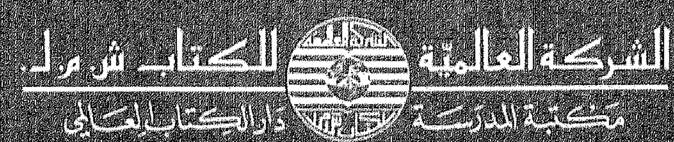
الدكتور ابراهيم أيوب

التاريخ العباسي

السياسي والحضاري





التاريخ العباسي

السياسي والحضاري


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

التاريخ العباسي

السياسي والحضاري

الدكتور ابراهيم أيوب





الشركة العالمية للكتاب ش م ل
طباعة - نشر - توزيع

مكتبة المدرسة

دار الكتاب العالمي

الدار الافريقية العربية

الادارة العامة
الصنائع - مقابل الاذاعة اللبنانية
هاتف ٣٤٩٠٥٥-٣٤٩٣٧٠٠ - ص ب ٣١٧٦
تلكس LE ٢٢٨٦٥ - برقياً: كتالبان
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى ١٩٨٩

«مقدمة»

على الرغم من وفرة الكتب التي تناولت التاريخ العباسي قديماً وحديثاً ، فإن المكتبة العربية تفتقر، اليوم، إلى كتاب واحد يكون نبراساً ينير الدرب أمام الطالب الجامعي والقارىء العربي لكي يدرك بصورة واضحة معالم الخلافة العباسية في جميع مراحلها التاريخية والحضارية. لذلك دفعني قيامي بتدريس مادة تاريخ العصور العباسية لأكثر من خمس سنوات في كلية الآداب والعلوم الإنسانية ـ الجامعة اللبنانية، إلى وضع هذا الكتاب خدمة للعلم.

والهدف الذي نرمي إليه، هو إلقاء النظرة الشاملة على تاريخ العصور العباسية، وشرح أحداثه بما يمثل أحدث الإتجاهات في تفسير التاريخ، لدولة حكمت العالم الإسلامي زهاء خمسة قرون، كان خلفاؤها في العصر الأول، من السفاح إلى الواثق رجالاً عظماء باستثناء الأمين الذي لم يجارِ هؤلاء في العظمة والمقدرة السياسية لسوء حظه.

وقد تميز العصر العباسي الأول بسياسة واحدة سار عليها جميع الخلفاء، كما غلبت على هذه السياسة صفة إسقاط العرب وإيثار الفرس عليهم، ثم تشجيع الفرس والعرب معاً في أواخر هذا العصر. ومع هذا وذا، فإن نهضة علمية وأدبية، إلى جانب ظهور حرية الفكر في البحث والجدل والمناظرة، وتقدم الفنون والموسيقى، جعلت العصر العباسي الأول العصر الذهبي بحق.

أما الإزدهار الذي عرفه العصر العباسي الأول فسرعان ما زال بقيام العصر العباسي الثاني. فاتسمت معظم مظاهر الحياة في العاصمة بغداد بسمة الضعف، وانعدمت هيبة الخلافة بسيطرة الأتراك.

ثم انتقلت الخلافة العباسية في العصر الثالث من سيطرة الأتراك إلى سيطرة بني بويه. وأصبح الخليفة فيه مجرد زعيم ديني لا أمر له ولا نهي، في حين غدا بنو بويه سلاطين مطلقي التصرف في العراق والخلفاء تحت سيطرتهم وتصرفهم، فتمردت الأطراف وقامت فيها الدول المستقلة.

وانتهى العصر العباسي الرابع بعد انتقال السلطة فيه إلى السلاجقة بسقوط بغداد في أيدي التتار سنة ٦٥٦ هـ/ ١٢٥٨ م ومقتل المعتصم في السنة ذاتها، وانتهاء الخلافة العباسية في بغداد. لكن السلطان بيبرس المملوكي أحياها في مصر سنة ٦٥٧ هـ/ ١٢٦٠ م لتستمر فيها حتى الإحتلال العثماني لمصر من قبل السلطان سليم الأول سنة ١٥١٧ م.

وقد قسمت الكتاب إلى قسمين تحدثت في قسمه الأول عن التاريخ السياسي للخلافة في جميع العصور، وأثبت نبذة مختصرة عن سائر الدول التي نشأت على أرض الأقاليم المشرقية والمغربية للدولة الإسلامية.

وشمل القسم الثاني الحضارة العباسية بمختلف وجوهها من نظم الحكم إلى الحياة الإجتماعية والإقتصادية والفكرية والثقافية.

بيروت في الخامس من كانون الأول ١٩٨٨.

المؤلف
إبراهيم أيوب

الفصل الأول

عوامل سقوط الدولة العربية

يجدر بنا قبل أن نتناول في حديثنا تاريخ الدولة العباسية أن نعرف العوامل التي أدت إلى سقوط الدولة العربية، وبالتالي ما هي أهم المميزات التي اتسم تاريخها بها، ثم العيوب والأخطاء التي ساهمت إلى حد كبير في سقوطها.

فالدولة العربية التي قامت بقيام الإسلام دولة صغيرة فوق جزء بسيط من شبه الجزيرة العربية، ولكنها ما لبثت أن نمت واتسعت في عصر الخلفاء الراشدين وبخاصة أيام عمر بن الخطاب، ثم الوليد بن عبد الملك، عصر الخلافة الأموية حتى شملت أجزاء كبيرة من المشرق والمغرب.

هذه الدولة التي اخطتت لنفسها صفحة فخار ومجد في التاريخ، قد مرت **في ثلاث مراحل**: مرحلة الدعوة الإسلامية، ومرحلة الخلفاء الراشدين فمرحلة **الخلافة الأموية** التي انتهت على أيدي العباسيين سنة ١٣٢ هـ/ ٧٤٩ م.

واتصفت الخلافة الأموية بالعربية لاهتمامها بجنس العرب وحده، وإغفال حقوق الشعوب المفتوحة التي تحولت إلى الإسلام. أما الخلافة العباسية التي قامت على أكتاف الأعاجم أو الشعوب التي أسلمت بعد الفتح فقد اتصفت بالدولة العربية، لأنه آل الأمر إلى الأعاجم من فرس وترك وبربر ألخ... فما هي مآثر أو حسنات الدولة العربية الأموية؟.

١ ـ مآثر الدولة العربية الأموية:

أ ـ الفتوحات:

أقامت الدولة العربية الفتوحات العظيمة، فاتسعت حدودها شرقاً إلى أواسط

آسيا، وغرباً إلى المحيط الأطلسي. ففتحت بلاد الشام على يد خالد بن الوليد، ومصر على يد عمرو بن العاص. وشمال أفريقيا والأندلس وبعض جزر البحر الأبيض المتوسط على يد عدد من كبار قادة العرب أمثال: عقبة بن نافع[١] وحسان ابن النعمان[٢] وموسى بن نصير[٣] ألخ . . . كما تم فتح بلاد ما وراء النهر على يد قتيبة بن مسلم[٤]، ومنطقة السند في شمال غرب الهند على يد محمد بن القاسم الثقفي[٥] والمهلب بن أبي صفرة.

ب ـ أسباغ الدولة بالصبغة العربية:

انتشر العرب خارج شبه الجزيرة العربية في البلاد المفتوحة، تاركين وراءهم الصحراء القاحلة ليعيشوا حيث استقر الخلفاء أو العمال والولاة. فصبغوا تلك البلاد التي حلوا فيها بالصبغة العربية لكثرة القبائل العربية التي هاجرت إليها، ونشروا الجنس العربي والثقافة العربية فيها. ونقلوا عاداتهم وتقاليدهم إليها.

جـ ـ التعريب·

من المعروف أن الخليفة عمر بن الخطاب قد ترك إدارة البلاد المفتوحة أجنبية بمعنى أنه أبقى على تحرير الدواوين بلغة أهلها: فديوان الشام كتب بالرومية (اليونانية) وديوان العراق وفارس بالفارسية، وديوان مصر بالقبطية[٦].

---

(١) البلاذري: فتوح البلدان، تحقيق de Goeje ٢٢٧ طبعة Brill ١٨٦٦ م

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، منشورات دار الكاتب العربي، بيروت ١٣٨٧ هـ/ ١٩٦٧ م. الطبعة الثانية حـ ٤ / ٣١ ـ ٣٢. ياقوت الحموي معجم البلدان طبعة دار بيروت، دار صادر ١٣٧٦ هـ/ ١٩٥٧ م. حـ ٤ / ٤٢٠ ـ ٤٢١.

(٣) المقري: نفخ الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق أحمد فريد رفاعي القاهرة ١٩٢٦ م. جـ ٢ / ١٣٢ البلاذري فتوح البلدان ٢٢٠.

(٤) الكامل في التاريخ حـ ٤ / ٩٤ و ١٠٥ و ١٠٧ و ١١٤ و ١٢٧ و ١٣١ و ١٣٢.

والديوري الأخبار الطوال تحقيق عبد المنعم عامر الطبعة الأولى القاهرة ١٩٦٠: ٢٨٠ و ٣٢٧ ـ ٣٢٨ وفتوح البلدان: ٤٢٠ ـ ٤٢١.

(٥) فتوح البلدان ص ٤٣٨ ـ ٤٣٩. والكامل في التاريخ جـ ٤ / ١٣٣ ـ ١٣٤

(٦) المقريزي: المواعظ والإعتبار في ذكر الخطط والآثار القاهرة ١٣٢٦ هـ حـ ١ ص· ١٥٨ ويقول ابن خلدون في المقدمة· ١٩٢ «كان ديوان العساكر الإسلامية بالمدينة يحرر بالعربية مذ عهد =

لكن عبد الملك بن مروان بعد أن استتب له الأمر أمر أن تكون اللغة العربية وحدها هي لغة الدواوين جميعها[٧]. فقد نقل ديوان الشام من اليونانية إلى العربية، وكذلك ديوان العراق من الفارسية إلى العربية أيضاً بينما تأخر نقل ديوان مصر إلى أوائل عهد الوليد بن عبد الملك[٨].

وقد تبع هذه الخطوة خطوة ترمي إلى تقوية الحكم العربي بضبط ميزانيته وإقتصادياته. فأمر عبد الملك بن مروان بضرب العملة ونقشها[٩]، ونهى على أن يضربها غيرهم[١٠] وقد عرفت هذه العملة الرسمية باسم «السكة الإسلامية»[١١]. ولم تتغير وحدة العملة بتعريبها، فبقى الدينار الذهبي والدرهم الفضي[١٢]، والقطع من الدرهم مثل الدانق والمثقال[١٣].

د - تدوين الحديث النبوي الشريف:

بدأ الإهتمام بكتابة السيرة النبوية منذ النصف الثاني من القرن الأول للهجرة نظراً للحاجة إلى الحديث النبوي الشريف.

وبما أن الحديث النبوي الشريف يعد المصدر الثاني للعقيدة الإسلامية بعد القرآن، نظراً للحاجة إليه في التشريع الإسلامي، والتنظيم الإداري، فقد قام بعض رجال الصحابة بتدوين الحديث من تلقاء أنفسهم وعلى رأسهم عبدالله بن عمرو بن العاص بالرغم من أن الرسول نهى عن كتابة الحديث حتى لا يختلط الحديث بالقرآن أو ينشغل المسلمون بشيء آخر غير كتاب الله.

= عمر بن الخطاب. وهذا يعني أن ديوان المال والجباية كانا يكتبان فقط بلغة أهل البلاد المفتوحة.
ابن خلدون: المقدمة، منشورات دار الكتاب العربي، بيروت، لا، ت، الطبعة الخامسة.

(٧) ابن خلدون. المقدمة ١٩٣.

(٨) الخطط جـ ١ / ١٥٨.

(٩) ابن سعد. كتاب الطبقات الكبير، تحقيق Sachau طبعه Leiden. ١٩٠٥ - ١٨٩٢٨ جـ ٥ / ١٧٠ والمقدمة ص ٢٠٦.

(١٠) الكامل في التاريخ جـ ٤ / ٥٣.

(١١) المقريزي: إغاثة الأمرة بكشف الغمة. تحقيق زيادة وشيال طبعة ثانية القاهرة ١٩٥٧ ٥٥

(١٢) المقدمة ص ٢٠٧ وفتوح البلدان ٤٦٧.

(١٣) الكامل في التاريخ جـ: ٤ / ٥٤ وفتوح البلدان ص: ٤٦٥ والمقدمة ٢٠٧.

وتأخرت عملية التدوين حتى خلافة عمر بن عبد العزيز الذي اختلط باتقياء أهل المدينة مثل أنس بن مالك[١٤] جامع الأحاديث المشهور، أو لثقافته بإقباله على دراسة علوم الدين، فكان أول من أمر بجمع الأحاديث وتدوينها[١٥]. وبعد محمد بن مسلم بن عبيدالله بن شهاب الزهري[١٦] (توفي سنة ١٢٤ هـ) أول من حاول تدوين الحديث إذ انه كان يحفظ الفين ومايتي حديث، ثم توالت بعد ذلك محاولات التدوين[١٧] والتفسيرات المشهورة.

ودراسة الأحاديث النبوية وتفسيراتها كان لها الفضل الأكبر على انتشار اللغة العربية بين المسلمين وبخاصة منهم الموالي، فاشتهر الإمام الليث بن سعد المصري بفضل كتابه «الجامع الصحيح».

وأخيراً لا آخراً فقد أنشأت الدولة العربية بذور الحضارة الإسلامية التي تفاخر بها اليوم.

٢ ـ عوامل سقوط الدولة العربية:

أ ـ الفتن بين العرب:

تسرب الفساد إلى الخلافة الأموية في أواخر أيامها، وبدأت الخلافات تشتد في البيت الأموي بسبب التسابق والتنازع على الخلافة. فقد حاول هشام بن عبد الملك (١٠٥ ـ ١٢٥ هـ) أن يعزل الوليد بن يزيد بن عبد الملك (١٢٥ ـ ١٢٦ هـ) عن ولاية العهد[١٨] ويوليها لأبنه مسلمة لكن الأخير توفي قبل أبيه، مما هيأ للوليد

(١٤) ابن سعد الطبقات جـ ٥ / ٢٩٢.

(١٥) ماجد، عبد المنعم: التاريخ السياسي للدولة العربية. الطبعة الثانية القاهرة ١٩٦٠، ٢/ ٢٥٩.

(١٦) روى عن ابن شهاب الزهري كل من أنس بن مالك وسفيان الثوري.

(١٧) من الذين اشتغلوا بجمع الحديث الإمام ملك بن القره (٣٠ ـ ١٣٧ هـ) في كتاب «الموطأ» في المدينة، وعبدالله بن عبد العزيز وابن جريج في مكة، وعبد الرحمن الأوزاعي (توفي ١٧٦ هـ) في بعلبك، وشعبان الثوري (توفي ١٩١ هـ) في الكوفة، وعماد بن سلمة بن لبنة (توفي ١٧٦ هـ) في البصرة.

(١٨) لم يتول الوليد بن يزيد بن عبد الملك الخلافة مباشرة بعد أبيه (١٠١ ـ ١٠٥ هـ) لأنه كان صغيراً، ابن خمس عشرة سنة. القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، القاهرة ١٩١٣ ـ ١٩١٧ جـ ٣ / ٢٥٧.

الفرصة في أن يلي الخلافة، بعد هشام[١٩].

كان الوليد بن يزيد بن عبد الملك مثل غيره من بعض خلفاء بني أمية، يحب اللذات، وشغل عن أمور الدولة[٢٠]، فما أن تولى الخلافة حتى ظهر حباً في الإنتقام والتشفي، إذ حجز أموال عمه هشام بالرصافة، وقبض على أولاده وجلد بعضهم. ثم انتقم من ولاة عمه على الأقاليم.

هذه التصرفات جعلت الوليد بن يزيد بن عبد الملك يثقل على رعيته وجنده[٢١]، وبخاصة اليمانية منهم لبغض الخلفاء لهم منذ هشام[٢٢]، وتقريبهم للقيسية، كما كرهه أفراد بيته.

ثم أخذت العصبية القبلية مأخذها في الدولة العربية إذ ثارت اليمانية لأول مرة ضد الوليد بن يزيد بن عبد الملك، وحرضت ابن عمه يزيد بن الوليد بن عبد الملك (١٢٦ هـ/ ٧٤٤ م) على أخذ البيعة لنفسه[٢٣]. فاستولى الأخير على دمشق وأرسل جيشاً إلى الوليد في القصر فدخلوا عليه وذبحوه في سنة (١٢٦ هـ/ ٧٤٤ م).

لكن اعتماد يزيد بن الوليد بن عبد الملك على تأييد اليمانية جره إلى العمل على إخماد ثورة القيسية في أماكن متعددة، حتى استتب الحكم له مدة ستة أشهر إلى وقت وفاته في ١٩ ذي الحجة سنة (١٢٦ هـ/ ٧٤٤ م)[٢٤] ووقف مروان بن محمد إلى جانب القيسية ضد اليمانية في نزاعه على الخلافة مع إبراهيم بن الوليد ابن عبد الملك في معركة عين الجر[٢٥].

(١٩) الأصفهاني. الأغاني منشورات دار الثقافة - بيروت. الطبعة السادسة ١٤٠٤ هـ/ ١٩٨٣ م، جـ ٧ / ١٣ - ١٦. والكامل في التاريخ جـ ٤ / ٢٥٦.

(٢٠) الأغاني جـ ٧ / ٢٤ والكامل في التاريخ جـ ٤ / ٢٥٦.

(٢١) الكامل في التاريخ جـ / ٢٦٤ - ٢٠ الأخبار الطوال ٣٤٩.

(٢٢) بويع هشام بن عبد الملك بالخلافة في شعبان سنة ١٠٥ هـ/ ٧٣٤ م.

(٢٣) الكامل في التاريخ جـ ٤ / ٢٦٥.

(٢٤) صبح الأعشى جـ ٣ / ٢٥٨ ابن عبد ربه، العقد الفريد. القاهرة ١٢٩٣ هـ جـ ٢ / ٢٤٧.

(٢٥) الكامل في التاريخ جـ ٤ / ٢٨٣، و«عين الجر»: موضع بين بعلبك ودمشق يقولون ان نوحاً عليه السلام منه ركب في السفينة. معجم البلدان جـ ٤ / ١٧٧.

لازم هذا التطاحن على منصب الخلافة صراع شديد بين المصرية (القيسية) واليمانية، وبخاصة أن هذه الأخيرة رأت في توليه مروان بن محمد الخلافة انتصاراً للمضرية عليها، وهو صراع امتد حيث توجد المضرية واليمانية في جميع أجزاء الدولة العربية، فعادت أيام العصبية القديمة[٢٦]. كما قامت الفتن من كل لون[٢٧].

ب ـ موقف العلويين من الأمويين:

لم يعد باستطاعة الذرية العلوية عمل شيء يذكر ضد بني أمية، بعد أن قتل معظم أفرادها في كربلاء، وبذلك تأكد انتصار هؤلاء على بني هاشم أكبر المنافسين لهم. ولكن أصبحت البقية الباقية من آل أبي طالب مقدسة. وأخيراً قام المختار بن أبي عبيد بن مسعود الثقفي[٢٨] منادياً بثأر آل البيت، وداعياً إلى محمد ابن الحنفية[٢٩] كما دعى سليمان بن صرد[٣٠] سراً بين العرب للإنتقام للحسين، فعرف أنصاره بسبب ذلك باسم «التوابين»[٣١] إلى أن قتله ابن زياد ـ عامل الأمويين على الجزيرة ـ في عين الوردة من أرض الجزيرة[٣٢] مع عدد كبير من أصحابه، فقوى موقف المختار بموته حتى تمكن منه مصعب بن الزبير وقتله بقصر الإمارة في سنة ٦٨ هـ / ٦٨٧ م وبذلك كان الإنتصار على الشيعة العلويين، وبخاصة عندما تمكن الحجاج بن يوسف الثقفي ـ عامل الأمويين على العراق ـ من

---

(٢٦) الكامل في التاريخ جـ ٤ / ٢٨٦.

(٢٧) البلاذري، أنساب الأشراف، تحقيق De Goitein طبعة القدس ١٩٣٦ م جـ ٥ / ٣٠٨، والمسعودي، التنبيه والأشراف. تحقيق De Coji طبعة Leiden ١٦٨٤ م ٣٠٩ وما بعدها.

(٢٨) أنساب الأشراف. ص: ٢١٤ فما بعدها. الكامل في التاريخ جـ ٣ / ٣٢٧ فما بعدها.

(٢٩) محمد بن الحنفية، ولد سنة ١٦ هـ/ ٦٣٧ م، وهو الذي كان الرسول قد منحه اسمه محمداً، وكنيته أبو القاسم، وقد اشترك مع أبيه في موقعتي الجمل وصفين، وتوفي في سنة ٧٢ هـ/ ٦٩١ م، ٨١ هـ/ ٧٠٠ م أو ٨٣ هـ/ ٧٠٢ م ابن سعد، الطبقات جـ ٥ / ٦٦ ـ ٨٦. وابن خلكان وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان. تحقيق إحسان عباس جـ ٤ / ٥٥٩.

(٣٠) الكامل في التاريخ جـ ٣ / ٣٣٣ و ٣٣٩ وابن سعد الطبقات جـ ٦ / ١٥ ـ ١٦

(٣١) الكامل في التاريخ جـ ٣ / ٣٣٢.

(٣٢) المسعودي مروج الذهب ومعادن الجوهر تحقيق يوسف أسعد داغر دار الأندلس بيروت ١٣٨٥ هـ/ ١٩٦٦ م جـ ٣ / ٩٩ ومعجم البلدان جـ ٤ / ١٨٠.

الإنتصار على عبدالله بن الزبير، فأصبح المسلمون جماعة واحدة تحكمهم الخلافة الأموية.

جـ ـ موقف الخوارج من الأمويين:

ما أن هدأت حدّة الصراع ضد الأمويين، حتى تأججت الثورة من جديد في العراق، ولكن هذه المرة ليست من جانب الشيعة الذين كانوا قد ضعفوا، وإنما من قبل جماعة أخرى كانت مع الإمام علي بن أبي طالب في صفين، وأنكرت عليه جعل حقه المقدس في الخلافة موضع التحكيم بين الناس وقالت: «لا حكم إلا الله[٣٤]، أي أنها كانت ترغب في استمرار المعركة، لتستمر وحدها حاملة لواء النزاع مع معاوية، وأنه لا يجوز العدول عن حكم الله إلى حكم الرجال، فعرفوا بسبب قولهم هذا: «بالمحكمية»[٣٥]، وإنما انحازوا إلى قرية حروراء ـ بالقرب من الكوفة ـ عرفوا أيضاً بالحرورية[٣٦].

وبدأت تختمر بين هذه الجماعة المنفصلة، فكرة الخروج على نظام الخلافة القائم، وجعلوها جائزة في غير قريش، وأنها يجب أن تعود إلى أفضل الناس مهما يكن أصله أو جنسه ما دام عارفاً بالكتاب والسنة[٣٧].

أخذت هذه الجماعة تتجمع، بعيداً عن البصرة والكوفة، عند وسط مجرى نهر دجلة، واختاروا لهم أميراً أو إماماً اسمه عبدالله بن وهب الأزدي[٣٨] وبسبب هذا الخروج عرفوا أيضاً «بالخوارج[٣٩]، وهو الإسم الذي غلب عليهم. وقد كفروا علياً ومعاوية وعثمان وأصحاب الجمل، وكل من رضي بتحكيم الحكمين[٤٠]، وحتى مرتكبي الذنوب الصغيرة.

---

(٣٤) الأخبار الطوال ٢٠٥.

(٣٥) البغدادي الفرق بين الفرق. تحقيق محمد بدر القاهرة ١٣٢٨ هـ/ ١٩١٠ م.٥٦ ـ ٦١.

(٣٦) المرجع السابق: ٥٧ وعن «حرورا» أنظر معجم البلدان جـ٢، ٢٤٥.

(٣٧) ابن حزم. الفصل في الملل والنحل، الطبعة الأولى، مصر، ١٣٢٠ هـ/ جـ ٢ / ١١٣.

(٣٨) الأخبار الطوال. ٢٠٤.

(٣٩) الفرق بين الفرق، ٦١.

(٤٠) الفرق بين الفرق، ٥٥.

ساعد الخوارج معاوية في تولي الخلافة بقتلهم الإمام علي، ومع ذلك وقفوا موقف الأعداء الألداء من الأمويين الذين حاربوهم بواسطة عمالهم في الكوفة والبصرة باستمرار حتى ملأوا السجون بهم، وقتلوا جماعة كثيرة منهم رجالاً ونساء، فانتقلوا إلى بلاد الأهواز بين البصرة وفارس، وبدأوا من هناك بشن غاراتهم التي أزعجت الأمويين كثيراً، وبخاصة في أيام زعيمهم نافع بن الأزرق الذي كان السبب في انشقاقهم إلى فرق متعددة بلغت عشرين[٤١] فرقة.

وقد تمكن عبد الملك بن مروان من القضاء على فتنة الخوارج عندما تمكن عامله على العراق، الحجاج بن يوسف الثقفي من إخماد أخطر فتن الخوارج بالمشرق، الأمر الذي جعل البغدادي يقول عن هزيمتهم «طهرت الأرض من الأزارقة، والحمد لله[٤٢]». وبذلك مهد عبد الملك لخلافته، ولمن جاء من الخلفاء بعده، الإستقرار.

د ـ موقف الموالي من الأمويين:

لم يهتم العرب بإسلام شعوب البلاد المفتوحة، وإنما كان همهم أخذ خيراتهم، وألا تنقص ايراداتهم، فاستمروا في فرض الجزية والخراج عليهم، بل أطلقوا على من أسلم منهم اسم: «الموالي» ومفردها مولى[٤٣] أي الخاضعين لقبائل العرب. وقد حاول عمر بن عبد العزيز أن يصلح الأمور بين العرب والموالي، وينفذ الإتفاقات الأولى بينهم أثناء الفتوح، فمنحهم المساواة في كل شيء، لكن عمال الأمويين عادوا بعده إلى ما كانوا عليه من تفرقة، فكانت محاولة عمر بن عبد العزيز تنبيهاً لهم إلى حقوقهم.

لذلك ظهرت في أواخر عهد الدولة الأموية (العربية) الحركة التي عرفت «بالشعوبية»[٤٤] أي المطالبة بحقوق الشعوب التي أسلمت بالمساواة. وامتدت

(٤١) الفرق بين الفرق، ٥٤.

(٤٢) الفرق بين الفرق، ٦٦.

(٤٣) لسان العرب، جـ ٢٠ / ٢٨٩ وما بعدها P, 479 Ency de L'ısl (art Mawalà) T.

(٤٤) العقد الفريد جـ ٢ / ٨٦ Ency de L'isl (artshabıya) T 4; P. 410 والشعوبية كلمة من أصل شعوب بلفظ الجمع لتعني غير العرب، لأن العرب يطلق عليهم القبائل، وسموا أنفسهم أيضاً «بأهل التسوية» انظر لسان العرب جـ ١ / ٤٨٢.

البحر الأسود
بحر الخزر
أرمينية
التركستان
خراسان
أصبهان
نهر دجلة
نهر الفرات
نهاوند
المدائن
الرقة
حمص
الرصافة
بلاد الشام
بحر الروم
الحيرة
الكوفة
القادسية
البصرة
بلاد فارس
هرمز
الخليج العربي
خليج عمان
المدينة
شبه الجزيرة العربية
مكة
الطائف
جدة
بحر القلزم
بحر العرب

فتح
فارس

هذه الحركة في المطالبة بالمساواة إلى شعوب مختلفة من عجم وعراقيين وفراعنة وروم ويهود[٤٥]، وبمعنى آخر، فإنها شملت معظم الدولة الأموية.

والحركة الشعوبية بدأت كلامية، اعتمدت في تأييد حقها في المساواة على آيات من القرآن، مثل: **﴿يا أيها الناس إنما خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله اتقاكم﴾**[٤٦]، وعلى أحاديث نبوية، مثل: «ليس لعربي على أعجمي فضل إلا بالتقوى». وقد انقسم العرب إزاء ذلك إلى: فريق من أتقياء العرب الذين كانوا يعطفون على هذه الحركة، فيما رأوا من سوء معاملة أفراد الطبقة الحاكمة لإخوانهم المسلمين من غير العرب، مما لا يتفق مع شريعة الله ومبادىء الرسول. وفريق متعجرف لم يعترف بسوء سياسة الحكام. ثم بدأت الإتهامات والتجريح بين الحكام والمحكومين، حتى قال العرب: «لا يقطع الصلاة إلا ثلاثة: حمار أو كلب أو مولى[٤٧]». أما الموالي فأخذوا يصغرون من شأن العرب ويفتخرون بملوكهم وتاريخهم[٤٨].

ولكن هذه الحركة لم تظهر بقوتها مثلما ظهرت بين الفرس، لأن الأمويين لم يهتموا بإسلامهم، وأطلقوا عليهم إسم: «العجم أو العلوج»[٤٩]. أي الذين يتكلمون لغة غير مفهومة. لذلك، ومنذ عهد مبكر، اعتنق الفرس المبادىء التي تناوىء الأمويين، بخاصة المبدأ الشيعي، الذي كان يدعو إلى ولاية أسرة النبي الخلافة، لا سيما وأنهم نظروا لهذه الأسرة نظرة احترام وتقديس، إذ كان الحسين ابن علي قد تزوج بابنة يزدجرد الثالث آخر ملوك الساسانيين، فكان معظم الفرس من الشيعة يومذاك.

---

(٤٥) العقد الفريد: جـ ٢ / ٨٥ / ٨٨.

(٤٦) القرآن الكريم: ٤٩ ـ ١٣.

(٤٧) العقد الفريد: جـ ٢ / ٤٠.

(٤٨) الأغاني: جـ ٤٠، ٣٣٤

(٤٩) أبو يوسف: الخراج، القاهرة ١٣٤٦ هـ ترجمة وتعليق Faynan جـ ١ / ٢٩ ـ ٣٠.

الفصل الثاني

قيام الدولة العباسية

١ ـ الدعوة العباسية:

استغل الهاشميون فرصة الإضطرابات الخطيرة التي شهدتها الدولة الأموية فنشطوا للإستفادة منها، بعدما تربصوا بالأمويين الدوائر، بزعامة العباس بن عبد المطلب ـ عم النبي ـ بقصد المطالبة بحق آل البيت في الخلافة.

فالعباس(١) مؤسس هذه الأسرة ـ لم يثبت انه طالب بالخلافة ربما لأنه تأخر في إسلامه إلى ما قبل فتح مكة(٢). وقد حرص المؤرخون(٣) العرب القدامى على إظهاره بمظهر المؤيد للدعوة الإسلامية، وأنه لم يحمل لها الحقد مثل غيره من أعمام النبي كأبي لهب وأبي جهل: فهو الذي خرج مع النبي عند بيعة العقبة ليمهد له الأمر(٤)، وكان يكاتبه سراً وهو بالمدينة.

ولم يظهر العباس طمعاً في خلافة النبي، بل أقبل بعد موته على ابن أخيه علي، وقال له: «أبسط يدك لنبايعك». ولكن علياً تباطأ أيضاً وانشغل بدفن

---

(١) عن سيرة العباس، أنظر: طبقات ابن سعد، جـ ١ / ١ وما بعدها. وابن الأثير أسد الغابة في معرفة الصحابة. طبعة مصر ١٢٨٥ هـ. جـ ٣ ص: ١٠٩ وما بعدها.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت جـ ٢ / ٥٨.

(٣) دون التاريخ الإسلامي بمعظمه في عصر الدولة العباسية لذلك أظهر المؤرخون العرب العباس بمظهر المؤيد للإسلام.

(٤) طبقات ابن سعد، جـ ١ / ٣

النبي[٥]، حتى ندم بعد ذلك وقال: «يا ليتني أطعت عباساً»[٦]. وعلى الرغم من ذلك فإن عمر بن الخطاب كان ينظر إليه على أنه رأس أسرة النبي ففرض له في الديوان وبدأ به. وقد توفي العباس في خلافة عثمان سنة ٣٢ هـ/ ٦٥٢ م[٧].

وابنه عبدالله بن العباس، كان غير طامح للخلافة، هو الآخر[٨] ومثله آمن بحق علي في الخلافة حتى أنه لما أنجب ولداً سماه علياً باسم علي أحب الناس إليه[٩]. وبعد مقتل علي وتسلم الحسن، اعتزل عبدالله الفتنة وأقام بمكة، واهتم بجمع الحديث حتى نبغ فيه، فعرف بالبحر لعلمه[١٠]. ورفض عبدالله بن العباس مبايعة ابن الزبير وخرج من مكة إلى الطائف مع ابن الحنفية ـ محمد بن علي بن أبي طالب ـ حيث توفي فيها سنة ٦٨ هـ/ ٦٨٧ م.

كذلك لم يسع علي بن عبدالله بن العباس إلى الخلافة وهو الذي ولد في الليلة التي قتل فيها علي فسماه أبوه علياً. وقدأقام في قرية الحميمة[١١] ـ بشرق الأردن اليوم، ربما بأمر من الأمويين ليكون تحت رقابتهم إلى وقت وفاته في سنة ١١٨ هـ/ ٧٣٦ م[١٢].

أ ـ إنتقال الدعوة إلى بني العباس:

ظهر طموح بني العباس للخلافة على يد محمد بن علي بن عبدالله بن العباس استناداً إلى روايتين: الأولى، تعزو ذلك الطموح إلى الصدفة عندما جاءه أبو هاشم عبدالله بن محمد بن الحنفية وريث الدعوة الشيعية المعروفة بالكيسانية[١٣] أو

---

(٥) الكامل في التاريخ جـ٢ / ٣٥.

(٦) المقريزي: النزاع والتخاصم فيما بين أمية وبني هاشم. تحقيق VOS طبعة Leiden ١٨٩٨ م ٦.

(٧) طبقات ابن سعد جـ١ / ٢٠.

(٨) التاريخ السياسي للدولة العربية، جـ ٢ /٣٢٤.

(٩) الكامل في التاريخ جـ٣ / ٢٠٩.

(١٠) أسد الغابة جـ ٣ / ١٩٣ ـ ١٩٤.

(١١) معجم البلدان، جـ٢ / ٣٠٧.

(١٢) الكامل في التاريخ جـ٤ / ٢٢٦ و٢٥٣ والنوبختي، كتاب فرق الشيعة صححه محمد الصادق، النجف ١٣٥٥ هـ/ ١٩٣٦ م، ٣٣و ٣٩.

(١٣) كتاب فرق الشيعة ص: ٢٧ والكامل في التاريخ جـ٣ / ٢٧٤.

باسمه: الهاشمية[١٤] وأوصى له بها. فقد كان أبو هاشم في زيارة الخليفة سليمان ابن‌عبد الملك (٩٦ هـ/ ٧١٥ م - ٩٩ هـ/ ٧١٧ م) لقضاء بعض الأعمال فلما رأى الخليفة سليمان علمه وفصاحته خافه، فدبر من وضع له السم في اللبن، ولما شربه أبو هاشم وأحس بالسم قصد الحميمة وكان بها محمد بن علي فأوصى له بأن يرثه في أمامة الشيعة خصوصاً وأن أبا هاشم لم يكن له عقب.

أما الرواية الثانية، فتذكر أن الوصية سلمها أبو هاشم إلى علي بن عبدالله بن العباس، وذلك لأن محمد بن علي بن عبدالله بن العباس كان صغيراً وأمره أبو هشام أن يسلمها بدوره إلى محمد متى بلغ، فهو الإمام[١٥]. ولم يكتف أبو هاشم بتوريث محمد الإمامة، وإنما نقل إليه أيضاً، العلم الخاص، بالتأويل، أو الذي ورثه عن أبيه محمد بن الحنفية[١٦].

ب ـ الدعوة للرضا من آل محمد:

ومهما يكن فقد كانت هذه الدعوة التي ورثها محمد بن علي بن عبدالله بن العباس من أقوى الدعوات وأكثرها إيجابية وتنظيماً. فمنذ أن قامت بالدعوة لأبن الحنفية بعد تسليم الحسن أو قبل ذلك، كانت قائمة على قدم وساق في ستر وكتمان، بإرسال الدعاة وجمع الزكاة ليوم الوثوب[١٧]. ولما تسلمها المختار وأظهرها، أعلنها حرباً شعواء على الأمويين وكل من وقف أمامها. كذلك ظلت الكيسانية بعد المختار تدعو إلى قتل آل أبي سليمان وهدم دمشق[١٨]، فلما آلت الدعوة إلى محمد بن علي أبقى علي إيجابيتها وجعل هدفها القضاء على دولة بني

(١٤) الشهرستاني، الملل والنحل، تحقيق Careton طبعة Leiden ١٨٤٦ م جـ ١ / ١١٢ والكامل في التاريخ جـ ٤ / ١٥٩ وطبقات ابن سعد جـ ٥ / ٢٤ وما بعدها.

(١٥) كتاب فرق الشيعة ص: ٣٣.

(١٦) الملل والنحل ١ / ١١٢، ويرى بعض الشيعة أن الإمامة كانت خرجت من أبي هاشم وانتقلت إلى عبدالله بن معاوية بن جعفر أو إلى غيره من العلويين وليس إلى محمد بن علي العباسي، المرجع نفسه: ١١٣ والفرق بين الفرق· ٢٨.

(١٧) ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، صححه محمد محمود الرافعي، القاهرة ١٣٣٣ هـ/ ١٩٠٤ م جـ ٢ / ٢٠٧ - ٢٠٨.

(١٨) كتاب فرق الشيعة ٤٢

أميـة وإعلان الخـلافة في بني هـاشم وذلك بـالدعـوة الغامضـة) **للرضا من آل محمد**[١٩]، دون أن يذكر الدعـاة المقصود. أهـو فرع آل علي بن أبي طـالب (العلويون) أو آل العباس (العباسيون). وإن كان عليهم أن يبينوا فضلهما وظلم بني أمية، وإشاعة أحاديث نبوية تؤيد ذلك[٢٠].

كذلك استمر محمد بن علي في إرسال الرجال والدعاة وكان أبو هاشم طلب من الدعاة الطاعة له[٢١]، فأصبحت الدعوة أكثر تنظيمـاً على يديـه بجعله لها مجلساً يشرف عليها يتكون من اثني عشر نقيباً، أما الدعاة فكان عددهم كبيراً حتى بلغ السبعين. وكان الدعاة يذهبون في زي التجار مستبضعين، على أن يجتمع بهم محمد في موسم الحج إذ يأتون إليه بالمال ويأخذون منه التعليمات والأوامر[٢٢].

لكن بعض المؤرخين لم يقتنع بصحة رواية انتقال الوصية إلى محمد بن علي بن عبدالله بن العباس للأسباب الآتية:

أولاً: إذا تنازل أبو هاشم فعلاً للعباسيين لأفصحوا عن هذا التنازل، بدل التمويه على الشيعة بوجه خاص بالدعوة للرضا من آل البيت أو آل محمد وهذا دليل على عدم صحة فكرة التنازل.

ثانياً: تبادل الرسائل بين محمد النفس الزكية (حفيد الحسن بن علي بن أبي طـالب) وبين الخليفة العبـاسي أبي جعفر المنصـور. يتبين منهـا: أن العلويين والعباسيين اجتمعوا في أواخر أيام الدولة الأموية، واتفقوا على أنه في حالة سقوط الدولة الأمـوية يكون خليفة المستقبل الإمام محمد النفس الزكية وكان أبو جعفر المنصور حاضراً في هذا الإجتماع. فلو أن فكرة التنازل حدثت فعلاً لاعترض أبو جعفر المنصور على ذلك أو أشار إليها في رسائله.

ثالثاً: حاول العباسيون بعد أن استقر لهم الأمر أن يحيطوا خلافتهم بشيء من الشرعية معتبرين أن قانون الوراثة في الشريعـة الإسلاميـة يعزِّز مـوقفهم أن

(١٩) الكامل في التاريخ جـ ٤ / ٣٧.

(٢٠) المصدر السابق نفسه جـ ٤ / ٣٢٣.

(٢١) المصدر السابق نفسه جـ ٤ / ١٥٩ ومروج الذهب جـ ٥ / ٨٩.

(٢٢) الأخبار الطوال، ٣٤٢.

الخلافة تركة بعد النبي وأنهم من نسل العباس ابن‌عم النبي. بينما العلويون من نسل فاطمة الزهراء بنت النبي، العم في الميراث والعصبية مقدم على ابن البنت. ففي إحدى رسائل المنصور التي وجهها إلى محمد النفس الزكية يقول: وأما قولك أنكم بنو رسول الله، فإن الله تعالى يقول في كتابه: **﴿وما كان محمد أبا أحد من رجالكم﴾**. ولكنكم بنو بنته وإنها لقرابة قريبة ولكنها لا يجوز لها الميراث ولا ترث الولاية ولا يجوز لها الإمامة فكيف تورث بها»؟[٢٣].

وأشاع العباسيون هذه النظرية عبر مؤيديهم من الشعراء والأدباء لمعرفة ردة الفعل عليها. وهذا ما يستبعد فكرة التنازل عن الخلافة.

والحقيقة هي أن العباسيين استغلوا فرصة الخلاف بين: الأمويين والعلويين، لكي لا يبقوا منفردين عملوا على الإنضمام إلى العلويين الذين تربطهم بهم صلة النسب، من أجل هذا تعاونوا مع العلويين بادىء ذي بدء في «الدعوة إلى آل البيت» حتى كانت وفاة عبدالله بن محمد بن الحنفية (أبو هاشم) دون عقب، روجوا الرواية التي تقول: إن أبا هاشم سلم زمام الدعوة الكيسانية للعباسيين قبل وفاته.

وخوفاً من أن يبتعد الشيعة العلويون عنهم، فقد حرصوا على عدم إظهار أطماعهم في الخلافة، وأبقوا على تمويههم بأخذ البيعة «للرضي من آل محمد» دون تعيين أو تسمية أحد، في الوقت الذي أعادوا فيه ربط نسبهم إلى هاشم بن عبد مناف[٢٤] جد العلويين والعباسيين. ولما سقطت الدولة الأموية أعلن العباسيون خلافتهم السنية.

فما هي إذن الخطوات التي اتبعها العباسيون للوصول إلى غايتهم؟ وبالأصح كيف نظم العباسيون الدعوة؟

---

(٢٣) الكامل في التاريخ جـ ٥ / ٣١٩.

(٢٤) هو هاشم بن عبد مناف بن قصي، فإلى قصي يرجع الفضل في استيطان قريش مكة بعد أن قادها في حرب ناجحة ضد قبيلة خزاعة: وهاشم هو أول من سنّ الرحلتين لقريش وهما: رحلة الشتاء ورحلة الصيف، راجع ابن قتيبة، المعارف تحقيق WUST طبعة GOTTINGEN ١٨٥٠ م، ٣٤ و ٥٤. والسيرة النبوية لإبن هشام جـ ١ / ٧٥ ـ ٧٩.

٢ ـ التنظيمات العباسية للدعوة

أ ـ سرية الدعوة:

يعد محمد بن علي بن عبدالله بن العباس أول الساعين من العباسيين للوصول إلى الخلافة، فقد بدأ بتنظيم الدعوة تنظيماً سرياً دقيقاً، وذلك بإرسال النقباء والدعاة والعمال[٢٥]، بزي التجار وأصحاب المصالح على أن يدعوا الناس في ستر وكتمان، إلى الجهات البعيدة التي يكثر فيها أعداء الدولة الأموية، والحاقدون على الأمويين بسبب سياسة التمايز بين من هو عربي ومن هو أعجمي. فكانت خراسان هي الأرض الملائمة لزرع بذور الدعوة العباسية.

آستجاب إلى العباسيين في خراسان أناس كثيرون[٢٦] وقد ساعد على ذلك، أن أهل خراسان أسلموا قبل غيرهم في أعداد كبيرة، وأظهروا حماساً للدين الجديد بالإشتراك مع العرب في الجهاد لقتال الترك. لكن العرب لم يحسنوا معاملتهم ولم يسووا بينهم وبين أنفسهم في العطاء بل كانوا أحياناً يجعلونهم يغزون دون عطاء ولا رزق[٢٧]، إلى أن جاء عمر بن عبد العزيز وقرره لهم[٢٨]: «لذلك كان محمد بن علي العباسي يوصي دعاته بالخراسانيين ويقول لهم[٢٩]: فإن هناك العدد الكثير والجلد الظاهر وهناك صدور سليمة وقلوب فارغة لم تتقسمها الأهواء ولم تتوزعها النحل، ولم يقدم عليهم فساد، وهم جند لهم أبدان وأجسام ومناكب وكواهل وهامات ولحى وشوارب وأصوات هائلة ولغات فخمة. . . «ويبدو أن بني أمية كانوا يخافون من حدوث انقلاب في خراسان. فكانوا يرون أنهم يقدرون أن يرتقوا أي فتق إلا من خراسان[٣٠].

(٢٥) جعل محمد بن علي العباسي للدعوة مجلساً يشرف عليها ويتكون من الدعاء ولكل داعية إثنا عشر نقيباً، ولكل نقيباً سبعين عمماً ويشرف هؤلاء العمال على الخلايا السرية التي تنتشر بين الناس ثم يجتمع فيهم محمد بن علي في موسم الحج إذ يأتون إليه بالمال ويأخذون الأوامر، الأخبار الطوال ص: ٣٤٢.

(٢٦) الأخبار الطوال ٣٣٣.

(٢٧) الكامل في التاريخ جـ ٤ / ١٥٨ وطبقات ابن سعد ٥ / ٢٦٢.

(٢٨) طبقات ابن سعد جـ ٥ / ٢٧٧.

(٢٩) معجم البلدان جـ ٢ / ٣٥٠ ـ ٣٥٤.

(٣٠) الكامل في التاريخ جـ ٤ / ٣٢٣

غير أن محمد بن علي مات قبل أن ينال غرضه من دعوته في سنة ١٢٤ هـ/ ٧٤٢ م. فعهد بالإمامة إلى ولده إبراهيم الذي عرف بالامام[٣١]. فاستمر الأخير في الدعوة بحماس شديد، إذ أرسل إلى خراسان بكير بن ماهان ليعلن وفاة محمد وولايته[٣٢]. ولما مات بكير في سنة ١٢٧ هـ/ ٧٤٥ م، عين الإمام إبراهيم مكانه أبا سلمة الخلال[٣٣]، الذي كان من الرقيق واعتق، وجعل له سيطرة تامة على الدعوة فعرف (الخلال): **بوزير آل محمد** وكان كثير التنقل بين خراسان والحميمة مركز الإمام.

ثم أحسن إبراهيم اختياراً بتعيينه قائداً شاباً لم يتجاوز التاسعة عشرة من عمره، هو عبد الرحمن بن مسلم[٣٤]، كني بأبي مسلم بناء على طلب إبراهيم وقد جعل له سلطة تامة على الدعوة بخراسان سنة ١٢٨ هـ/ ٧٤٦م، وأمر بقية الدعاة بطاعته. وقد زوده بنصائح في سبيل نصرة آل البيت بأن يفرق بين طوائف العرب، باستمالة اليمانية ومعاداة المضرية وحتى يقتل بخراسان من يتكلم العربية[٣٥].

ب ـ علانية الدعوة:

إنضم إلى الدعوة العباسية بقيادة أبي مسلم في ليلة واحدة أهل ستين قرية من نواحي مرو[٣٦]، وبناء على أمر الإمام إبراهيم أظهر أبو مسلم الدعوة علانية في شهر رمضان سنة ١٢٩ هـ/ ٧٤٧ م[٣٧] على أن تكون الطاعة لبني العباس. فعقد اللواء والراية اللذين بعث بهما الإمام، ويدعى الأول الظل والثاني السحاب، ومعناهما: أن خلفاءه العباسيين يظللون الأرض إلى آخر الدهر، وكان يتلو: (إن الذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير[٣٨]).

---

(٣١) المصدر السابق جـ ٤ / ٢٥٣ والأخبار الطوال ٣٣٩.

(٣٢) الأخبار الطوال ٣٣٤ و Ency. de L'isl (art Bukair B, Mâhân T 1, P. 794 — 795.

(٣٣) الكامل في التاريخ جـ ٤ / ٢٩١ Ency. de L'isl, (art Abusalama al Khlil T 1, P.108).

(٣٤) الكامل في التاريخ جـ ٤ / ٢٥٢ فما بعدها، والأخبار الطوال ٣٣٧ ـ ٣٣٨ ووفيات الأعيان جـ ٣ / ١٤٥.

(٣٥) الكامل في التاريخ، جـ ٤ / ٢٩٥.

(٣٦) الكامل في التاريخ جـ ٤ / ٣٠.

(٣٧) المصدر السابق جـ ٤ / ٢٢٩ ـ ٣٠٠.

(٣٨) القرآن الكريم ٢٢: ٣٩

واتخذ أبو مسلم السواد شعاراً له، فعرف جيشه بـ«المسودة» نسبة إلى شعار العباسيين الأسود، حزناً على الشهداء من بني هاشم، ونعياً على بني أمية في قتلهم. كذلك أمر بأن توقد النار وتضاء المشاعل الكبيرة على قمم الجبال. فأخذ ينضم إليه عدد كبير من الموالين كما ذكرنا سابقاً.

٣ ـ انتصار العباسيين وقيام دولتهم:

لما قوي أبو مسلم بمن اجتمع إليه، بدأ بإذكاء نار الخلاف بين نصر بن سيار ـ والي الدولة الأموية بمرو ـ والكرماني ـ زعيم قبيلة ربيعة اليمنية ـ الذي رفض الصلح بينهما وصمم على عزل نصر[٣٩] مما جعل هذا الأخير يطلب المساعدة من الخليفة الأموي بدمشق مروان بن محمد ضد الكرماني قبل أن يستفحل أمر الخراساني في تلك البلاد ويصعب قتاله. لكن انشغال الخليفة بمقاومة الخوارج[٤٠] أخره في إجابة الطلب وكتب إلى واليه نصر، يقول له: «أضبط ثغرك بجندك، واهتم هو ـ الخليفة مروان ـ بالقضاء على رأس الدعوة الإمام إبراهيم بالحميمة، فأرسل إليه من أوثقه وزج به السجن، ثم أمر به أن يخنق أو تلف رأسه في داخل جراب[٤١].

ولما لم يجد نصر بن سيّار فائدة من محاولة الصلح مع الكرماني، بعث إلى الأخير ابن الحرث بن سريح فقتله غدراً. تجاه هذا الأمر، انضم إبنا الكرماني إلى أبي مسلم الخراساني عندما تمكن هذا من دخول مرو في ربيع الآخر سنة ١٣٠ هـ/ ٧٤٨ م، واعترفا له بالإمارة[٤٢] لكنه ما لبث أن قتلهما خوفاً من أن تتفق اليمانية مع نصر. وقتل ستمائة من العرب[٤٣] بينهم عبدالله بن معاوية الذي كان قد استولى على فارس، وهرب إلى خراسان وبها ابو مسلم حينما علم بدعوته للرضا من آل محمد طمعاً فيها[٤٤]. كذلك قتل أبو مسلم الخوارج التي اجتمعت على

(٣٩) الأخبار الطوال ٣٥٦.

(٤٠) وفيات الأعيان جـ١ / ٣٩٩.

(٤١) مروج الذهب جـ٣ / ٣٤٤.

(٤٢) الكامل في التاريخ جـ٤ / ٣٠٣ و٣١٩ ـ ٣١٥.

(٤٣) النزاع والتخاصم ٥١.

(٤٤) الأصفهاني ـ مقاتل الطالبيين ـ النجف ١٣٥٣ هـ، ١٣٣.

قتله[٤٥]، فلما رأى نصر ما فعله الخراساني من قتل لربيعة واليمانية والعجم، خرج هارباً إلى نيسابور ثم هرب إلى «الري» بعد أن لحقت به جيوش الخراساني بقيادة الداعية قحطبة، حيث توفي هناك في سنة ١٣١ هـ/ ٧٤٨ م. فدانت بذلك سائر خراسان إلى أبي مسلم وسك العملة بها، باسم: أمين آل محمد، وعين عليها العمال.

بعد ذلك دخل الداعية قحطبة نيسابور ثم الري، ثم استولى على أصفهان وقتل عامل الخليفة مروان بن محمد بها. ثم حارب في نهاوند وفارس. وأخيراً هزم يزيد بن هبيرة ـ عامل الأمويين على العراق ـ وسلم عامل الكوفة المدينة إلى العباسيين. فلما دخلها عبدالله أبو العباس الذي بقي متخفياً خارجها أربعين ليلة، بعد إلقاء القبض على أخيه الإمام إبراهيم في الحميمة وقتله، نجد أن وزير آل محمد أبو سلمة الخلال يعلن خلافة أبي العباس ويبايع له في ربيع الثاني ١٣٢ هـ/ ٧٤٩ م. وقد تسمى أبو العباس بأمير المؤمنين، وكان أخوه أبو جعفر المنصور يأخذ البيعة له. وقد خطب أبو العباس في هذه المناسبة فبين حق أسرته في الخلافة وكيف أن بني حرب وبني مروان اغتصبوها وتداولوها.

وبعدها أرسل أبو العباس نحو مروان بن محمد بالجزيرة الفراتية عمه عبدالله ابن علي على رأس جيش بلغ عدده ثلاثين ألفاً جمع من أطراف بلاد فارس[٤٦] فالتقى الجيشان على نهر الزاب الأعلى قرب الموصل في معركة رهيبة مدة يومين. هزم فيها مروان بن محمد وغرق الكثير من جيشه في النهر.

وقد فر مروان إلى مصر عن طريق دمشق التي ترك فيها عاملاً من قبله عليها ليقاتل العباسيين ويؤخر زحفهم ـ فلحق به عبدالله بن علي الذي استولى على المدينة بعد حصار أيام، فقتل بها ألوفاً كثيرة من الجند والأمراء كما نبش قبور الأمويين فيها ثم تابع تعقبه لمروان، فما أن وصل إلى فلسطين حتى نادى بالأمان في بني أمية، فاستأمن له أكثر من سبعين رجلاً أدخلوا في سرادق عقد لهم مع بني هاشم الذين كانوا يجلسون على الكراسي وبنو أمية على الوسائد التي ثنيت لهم.

(٤٥) الكامل في التاريخ جـ ٤ / ٣١١.
(٤٦) المصدر السابق جـ ٤ / ٣٢٧ ـ ٣٢٩.

مع أنهم كانوا أثناء دولتهم يجلسون مع الخلفاء على السرير ويجلس بنو هاشم على الكراسي، فأمر عبدالله بن علي بقتلهم، فلما قتلوا دعا بالغذاء، وأمر ببسط فبسطت عليهم، وجلس فوقهم يأكل وهم يضطربون تحته. فلما انتهى من الأكل، قال: ما أعلمني أكلت أكلة قط أهنأ ولا أطيب لنفسي منها. ثم جروهم من أرجلهم وألقوا في بئر حُفرت لهم خصيصاً[٤٧]. أما من لم يستأمن منهم، فقد هرب إلى أقاصي المغرب[٤٨] وحتى الحبشة[٤٩] أو إلى الأندلس[٥٠] وبذلك أصبح إسم عبدالله مرهوباً فسماه أبو قتيبة بالسفاح[٥١].

ولكن مروان بن محمد لما دخل مصر عن طريق الفرما، لحقته الجنود الخراسانية كما قاتلته اليمانية من انصار العباسيين الموجودين هناك. وفي قرية بوصير بالأشمونين قطعت رأس مروان وهو نائم[٥٢] في ذي الحجة سنة ١٣٢ هـ/ ٧٥٠ م. بعد أن تعب من المطاردة. فلما حملت الرأس الى أبي العباس (الخليفة الأول) خرّ ساجداً[٥٣]، وأعلن عن قيام الدولة العباسية بعدما بويع بالخلافة من قبل القواد.

وقد اصطلح المؤرخون على تقسيم تاريخ الدولة العباسية إلى أربعة عصور:

- العصر العباسي الأول أو دور النفوذ الفارسي (١٣٢ - ٢٣٢ هـ/ ٧٤٩ - ٨٤٧ م).

---

(٤٧) الأغاني جـ ٤ / ٣٤٥ فما بعدها (لكن صاحب الأغاني يقول: ان أبا العباس هو الذي فعل ذلك).

(٤٨) معجم البلدان جـ٢ ٤٣٢.

(٤٩) الكامل في التاريخ جـ ٤ / ٣٣٢.

(٥٠) المصدر السابق جـ ٤ / ٣٦ فما بعدها.

(٥١) ابن قتيبة، الإمامة والسياسة صححه محمد محمود الرافعي، القاهرة ١٣٤٢ هـ، جـ٢/ ٢٣٢.

(٥٢) المصدر السابق، جـ ٢ / ٢٢٨ فما بعدها، الأغاني جـ ٤ / ٣٤٥ وعن قرية بوصير أنظر معجم البلدان جـ ١، ص: ٥٠٩.

(٥٣) الكامل في التاريخ جـ ٤، ص: ٣٣٢.

ـ العصــر العبــاسي الثــاني أو دور النفــوذ التــركي (٢٣٢ ـ ٣٣٤ هـ/ ٨٤٦ ـ ٩٤٥ م).

ـ العصر العباسي الثالث أو دور النفوذ البويهي الفارسي (٣٣٤ ـ ٤٤٧ هـ/ ٩٤٥ ـ ١٠٥٥ م).

ـ العصر العباسي الرابع أو دور النفوذ السلجوقي التركي (٤٤٧ ـ ٦٥٦ هـ/ ١٠٥٥ ـ ١٢٥٨ م).

وسوف نسير وفق هذا التقسيم تسهيلاً لعملية دراستنا لتاريخ الدولة العباسية.



الفصل الثالث

خلفاء العصر العباسي الأول(١)

١ - أبو العباس عبدالله بن محمد بن علي: (١٣٢ - ١٣٦ هـ/ ٧٤٩ - ٧٥٣ م).

هو أول الخلفاء العباسيين، والذي عمل على تمتين دعائم الدولة الجديدة بالضرب بشدة على أيدي أعدائها وبخاصة الذين وقفوا في وجهها منذ البداءة، لأنه كان يعلم أن أي تراخ أو تسامح مع خصومها قد يقضي عليها في المهد. لذلك نراه يتهدد ويتوعد في أول خطبة له بالكوفة حين قال(١): «يا أهل الكوفة، أنتم أهل محبتنا ومنزل مودتنا. . . فاستعدوا، فأنا السفاح المبيح والثائر المبير».

وانطلاقاً من هذا، عمل أبو العباس على تصفية بقايا الأمويين ومطاردتهم في كل مكان، للقضاء عليهم بقسوة بالغة، يعاونه في عملية التصفية، هذه أعمامه: عبدالله بن علي بالشام الذي قتل عدداً ضخماً من بني أمية، ونبش قبور موتاهم ولما رأى جسد هشام بن عبد الملك بن مروان سليماً، ضربه بالسياط، ثم صلبه وحرقه وذرى رماده في الهواء(٢).

وهكذا قام سليمان بن علي - والي البصرة، بقتل جماعة من بني أمية وسحلهم على الطريق. كما قام داود بن علي - والي الحجاز واليمن - بقتل جماعة

(١) الطبري، أبي جعفر محمد بن جرير - تاريخ الرسل والأمم والملوك - جـ ٧ / ٤٢٦ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - نشر دار المعارف بمصر ط ٤. وابن الأثير الكامل في التاريخ ٤ / ٣٢٤.

(٢) الكامل في التاريخ جـ ٤ / ٣٣٣ - بلبابيق، ي، أ. العرب والإسلام والخلافة العربية. ترجمة أنيس فريحة - راجعه محمود زايد ص: ٢٦٥. منشورات الدار المتحدة - بيروت.

كبيرة من الأمويين بمكة والمدينة. وفعل مثل ذلك صالح بن علي في مصر، وإسماعيل بن علي في الأهواز.

هذه الحياة المليئة بسفك الدماء، الصقت بأبي العباس لقب «السفاح» وإن كان بعض المؤرخين(٣) قد قال بإن لقب السفاح إنما قصد به عمه عبدالله بن علي وليس الخليفة. ومهما يكن الأمر، ماذا حقق أبو العباس للخلافة العباسية؟

أ ـ القضاء على الثورات:

فما أن استراح الخليفة من القضاء على الأمويين حتى واجهته الثورات في الشام وفلسطين والجزيرة التي قام العرب فيها بالثورات بعد أن أحسوا بزوال النفوذ العربي وتحوله إلى خراسان لاعتماد العباسيين على الفرس. وقد رفعت هذه الثورات الأعلام البيضاء، وسمت نفسها «بالمبيضة»(٤) دلالة على عدائها للعباسيين المعروفين «بالمسودة».

ونذكر من هذه الثورات، ثورة «حبيب بن مرة» في فلسطين(٥)، وثورة أبي الورد بالشام(٦)، وثورة إسحق بن مسلم(٧)، أحد قواد مروان بن محمد في الجزيرة بشمال العراق. لكن هذه الثورات المتفرقة، والتي لم يربط بينها أي رباط، أو يجمعها أي تنظيم، ظل خطرها قليلاً، وبالتالي سهل على العباسيين ضرب كل منها على حدة، والقضاء عليها جميعاً في غير صعوبة.

ب ـ عاصمة الخلافة:

في هذه الأثناء كان أبو العباس يبحث لنفسه ولدولته عن عاصمة جديدة لأنه لم يكن مطمئناً لأهل الكوفة واصفاً نصب عينيه أن تكون هذه العاصمة الجديدة بعيدة عن الشام ـ مركز الأمويين والنفوذ العربي ـ وقريبة من فارس وخراسان ـ مركز شيعته

---

(٣) الإمامة والسياسة: جـ ٢/ ٢٣٢.

(٤) الكامل في التاريخ: جـ ٤ / ٣٣٤.

(٥) تاريخ الطبري ٧ / ٤٤٣ ـ ٤٤٧، والكامل في التاريخ ٤ / ٣٣٥ وابن خلدون ٣ / ١٧٣ ـ ١٧٤

(٦) المصادر السابقة والصفحات ذاتها.

(٧) المصادر السابقة والصفحات ذاتها.

وأنصار بني العباس. فانتقل من الكوفة إلى مكان قريب منها عرف «بهاشمية الكوفة» جعلها مقراً له ولخاصته في سنة ١٣٢ هـ/ ٧٤٩م(٨). غير أنه لم يلبث أن انتقل إلى مدينة الأنبار سنة ١٣٤ هـ/ ٧٥١ م(٩) ـ شمال الكوفة على الفرات حيث أعجب بها، فبنى لنفسه بجوارها مدينة جديدة عرفت بـ«هاشمية الأنبار» التي ظل مقيماً فيها حتى وفاته سنة ١٣٦ هـ/ ٧٥٣ م.

جـ ـ الفتوحات:

لم تهدأ الأمور للعباسيين، بالقضاء على الأمويين في المشرق العربي، ذلك أن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك، كان هرب إلى الأندلس ليضع هناك أسس دولة أموية في المغرب ناهضت الدولة العباسية في المشرق الأمر الذي خسرت معه الدولة الإسلامية الجديدة الأندلس.

إضافة إلى ذلك استغلت بيزنطية فرصة قيام الثورات العربية في وجه العباسيين، فهاجمت منطقة الثغور والعواصم على أطراف الدولة العباسية الشمالية. فاضطر الخليفة أبو العباس أن يعهد إلى عمه عبدالله بن علي ـ والي الشام ـ قيادة حملة عسكرية تتصدى للبيزنطيين. وسار عبدالله بن علي تنفيذاً لتلك المهمة، وبينما هو في وسط الطريق، علم بوفاة الخليفة، فتوقف عن المتابعة وأخذ يستعد لمحاربة الخليفة الجديد أبي جعفر المنصور قصد انتزاع الخلافة منه.

هذا في المغرب وفي الشمال، أما بالمشرق، فإن أبا مسلم الخراساني قد استطاع أن يحافظ على انتصاراته التي أحرزها على الجيوش الصينية عندما هددت أطراف الدولة من ناحية الشرق سنة ١٣٤ هـ/ ١٧٥٢ م.

ولكن بالرغم من هذه المكاسب التي استطاع أبو العباس أن يحققها، فإنه ظل يشكك في اخلاص أقرب المقربين إليه. وبدلاً من أن يكافىء الذين بذلوا جهداً كبيراً لقيام دولة بني العباس، فإننا نراه يغدر بوزيره «ابي سلمة حفص بن

---

(٨) تاريخ الطبري ٧ / ٤٣١.

(٩) المصدر السابق ٧ / ٤٦٤.

سليمان الخلال»[١٠] داعي العباسيين بالكوفة، ويتهمه بأنه كان يريد تحويل الخلافة عنهم إلى آل علي بن أبي طالب. فأرسل أبو العباس أخاه جعفر المنصور إلى خراسان لاستشارة أبي مسلم الخراساني في قتل أبي سلمة الخلال، فقبل أبو مسلم المهمة وقال لأبي جعفر المنصور: «أنا أكفيكموه»[١١] وأمر أحد رجاله بالذهاب إلى الكوفة لقتل أبي سلمة. فقتله غيلة وهو خارج من عند أبي العباس. ثم أشاع الخراساني أن الخوارج هم الذين قتلوا أبي سلمة، بعدما قتل جميع عماله بفارس.

هذه الإنتصارات التي حققها أبو مسلم الخراساني جعلت أبا جعفر المنصور يخافه ويطلب من أخيه الخليفة التخلص منه بقتله. لكن أبا العباس تردد في اغتياله وتريث خوفاً من ثورة الخراسانيين، ولكنه لم يستطع كبت شعوره تجاه الخراساني، إذ بدا واضحاً وجلياً عندما استأذن الأخير الخليفة في سنة ١٣٦ هـ/ ٧٥٢ م لتأدية فريضة الحج[١٢]، فسمح له الخليفة بعد أن طلب من أخيه أبي جعفر المنصور أن يستأذن في الحج، فأذن له وولاه أمرة الموسم. عندها لم يستطع أبو مسلم إخفاء دهشته وغضبه، وقال:[١٣] «أما وجد أبو جعفر المنصور عاماً يحج فيه غير هذا»؟ وحرص في الطريق على المحافظة على رباطة جأشه وإظهار قوته وكرمه تجاه مرافقيه، الأمر الذي أغضب المنصور فأضمر له في نفسه ضرورة التخلص منه.

٢ - أبو جعفر المنصور: (١٣٦ - ١٥٨ هـ/ ٧٥٣ - ٧٧٥ م).

يعد أبو جعفر المنصور - عبدالله بن محمد - المؤسس الحقيقي للدولة العباسية، لما عرف عنه من الحزم، ولما اتصف به من الدهاء والمكر والجرأة. وساعد المنصور على تركيز بنيان دولته حكمه مدة بلغت نحواً من إثني وعشرين

---

(١٠) تاريخ الطبري ٧ / ٤٤٩. ومروج الذهب جـ٣ / ٢٧٠ - ٢٧١ والكامل في التاريخ. ٤ / ٣٣٦.

(١١) تاريخ الطبري، ٧ / ٤٤٧.

(١٢) المصدر السابق ٧ / ٤٤٩ - ٤٧٩.

(١٣) المصدر السابق نفسه ٧ / ٤٧٩.

عاماً، مما مكنه من تنفيذ كثير من المشروعات الحربية والعمرانية التي يحتاج إلى تنفيذها مدة طويلة.

١ ـ الأخطار الداخلية:

وإذا كان أبو العباس قد تمكن من القضاء على الأمويين وعلى الثورات المتفرقة التي قامت في وجه العباسيين، فإن ثمة أخطار داخلية واجهت أبا جعفر المنصور وهددت كيان دولته، الأمر الذي تطلب منه الحزم والسرعة في الرد عليها، وهو الذي يعتبر أن السياسة لا علاقة لها بالأخلاق وإن كل عمل في سبيل تثبيت السلطة له ما يبرره(١٤)، وهو على هذا الأساس من المكيافيلية لجأ إلى الاغتيالات متخلصاً من الذين اعتبرهم منافسين له:

أ ـ التخلص من عمه عبدالله بن علي:

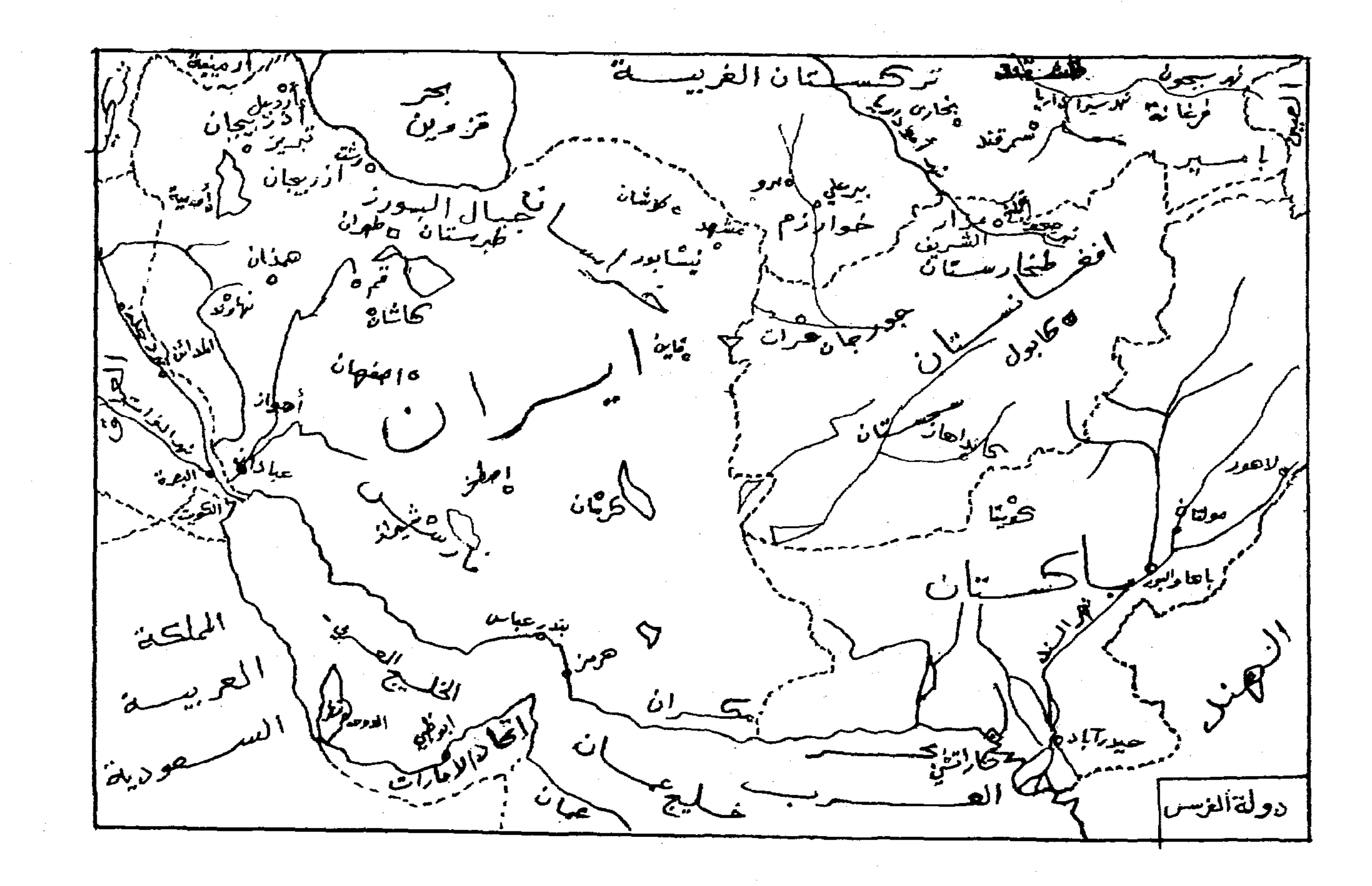
كان الخطر الأول الذي واجه المنصور من عمه عبدالله بن علي الذي كان له الدور الأكبر في القضاء على الأمويين وتوحيد الجيوش العباسية الناشئة تحت أمرته، مما جعل له مكانة كبرى في أيام أبي العباس، فتطلع إلى ولاية العهد. فهو ما أن علم بوفاة أبي العباس ـ الخليفة ـ في أثناء الطريق المؤدية إلى الثغور لغزو الروم البيزنطيين، حتى قفل راجعاً لانتزاع الخلافة لنفسه من المنصور(١٥).

ولم يجد الخليفة الجديد ـ أبو جعفر المنصور ـ أمامه حلاً سوى الإستعانة بأبي مسلم الخراساني للقضاء على عمه عبدالله بن علي الذي كان قد تمركز في نصيبين على الطريق المؤدي إلى الشام، وتحت إمرته جيش كبير يتألف من أهل الشام والجزيرة. وحفر خندقاً كبيراً حول معسكره بعد أن اختزن قدراً كبيراً من الزاد والسلاح. وكان المنصور يأمل في استمالة الخراسانيين من جيش عمه عن طريق أبي مسلم الخراساني.

وتحققت الأمال بعد أن سار أبو مسلم الخراساني من العراق متظاهراً بأنه يريد الشام لأن المنصور قد ولاه عليها، وإنه لم يأمره بقتاله، فتخوف عبدالله بن

(١٤) العرب والإسلام والخلافة العربية ٢٦٦.

(١٥) تاريخ الطبري ٧ / ٤٧٣. ومروج الذهب ٣ / ٢٨٩ ـ ٢٩٠.


دولة الفرس
إيران
تركستان الغربية
بحر قزوين
أذربيجان
أرمينية
تبريز
رشت
جبال البورز
طبرستان
طهران
همذان
نهاوند
قم
كاشان
أصفهان
أحواز
المدائن
البصرة
الكويت
عبادان
اصطخر
شيراز
فارس
كرمان
بندر عباس
هرمز
مكران
نيسابور
مشهد
مرو
خوارزم
جورجان
هراة
أفغانستان
طخارستان
كابول
سجستان
قندهار
كويتا
باكستان
مولتان
لاهور
حيدر آباد
كراتشي
سمرقند
بخارى
فرغانة
الهند
المملكة العربية السعودية
الخليج العربي
الدوحة
قطر
أبوظبي
اتحاد الإمارات
خليج عمان
عمان
بحر العرب

علي من الخراساني وارتكب حماقة كبرى عندما غدر بجنوده ورجاله من الخراسانيين[١٦] وقتلهم جميعاً خوفاً من انضمامهم إلى أبي مسلم بسبب العصبية. كذلك أثارت هذه الحماقة التي ارتكبها عبدالله بن علي مخاوف الكثير من جنده، فأوجسوا خيفة منه أن يغدر بهم أيضاً. وكاد يغدر بأحد كبار القواد المرافقين له، وهو حميد بن قحطبة لو لم يكتشف هذا الأمر وينجو بنفسه بانشقاقه عنه[١٧]

ومهما يكن من أمر، فإن أبا مسلم الخراساني قد استطاع أن ينزل الهزيمة بجيش عبدالله بن علي ويحتل نصيبين سنة ١٣٧ هـ/ ٧٥٤ م. فيؤثر الأخير الفرار على الصمود واللجوء إلى أخيه سليمان بن علي[١٨] والي البصرة ـ وهذا سلمه بدوره إلى المنصور سنة ١٣٩ هـ/ ٧٥٦ م بعد أن أخذ له اماناً من الخليفة نفسه، فوضعه المنصور في السجن حتى وفاته ١٤٧ هـ/ ٧٦٤ م.

ب ـ التخلص من أبي مسلم الخراساني:

ازداد طغيان أبي مسلم الخراساني بعد انتصاره على عبدالله بن علي، بقدر ازدياد غضب أبي المنصور وقلق باله وحذره منه، إذ اضفى عليه هذا الإنتصار مكانة جديدة فوق مكانته السابقة، حتى غدا رجل الدولة الأول وصاحب القوة والبطش فيها، وهو أمر كان لا يحتمله الخليفة المنصور.

وتصرف المنصور وفق ما عرف عنه من دهاء وحزم وفكر، فاستدرج الخراساني ليقع في شركه، بإرساله إليه كتاباً يقول فيه[١٩]: «اني قد وليتك مصر والشام، فهي خير لك من خراسان، فوجه إلى مصر من أحببت، وأقم بالشام حتى تكون بقرب أمير المؤمنين، فإن أحببت لقاءك أتيته من قريب»، وأرسل المنصور إليه رسولاً يدعى «يقطين» يحصي عليه الغنائم التي غنمها في حربه مع عبدالله بن

---

(١٦) تاريخ الطبري ٧ / ٤٧٥.

(١٧) المصدر السابق ٧ / ٤٧٥.

(١٨) تاريخ الطبري ٧ / ٤٧٨ ـ ٤٧٩. والفخري في الاداب السلطانية ١٦٨

(١٩) تاريخ الطبري ٧ / ٤٨٢.

علي، مما أغضب أبو مسلم فقال[٢٠] «أمين على الدماء خائن في الأموال». وشتم أبا جعفر.

فلما اطلع أبو مسلم على الكتاب من يقطين، غضب وقال[٢١]: «هو يوليني الشام ومصر، وخراسان لي؟»، وصمم على الذهاب إلى خراسان. عندها عمد المنصور مرة أخرى للحيلة، وتوجه إلى المدائن بعد أن كتب إلى أبي مسلم بالمسير إليه. لكن أبا مسلم لم يقبل وتوجس خيفة من الذهاب إلى المدائن، وكتب إلى الخليفة يقول[٢٢]: «.... نحن نافرون من قربك، حريصون على الوفاء بعهدك ما وفيت، حريون بالسمع والطاعة، غير أنها من بعيد حيث تقارنها السلامة، فإن أرضاك ذلك فأنا كأحسن عبيدك، فإن أبيت إلا أن تعطي نفسك إرادتها نقضت ما أبرمت من عهدك، ضناً بنفسي».

لكن المنصور استخدم اسلوب الترغيب والترهيب مع أبي مسلم، ومنح خليفة الخراساني على جند خراسان إمارتها مدى الحياة، مما جعل هذا الأخير[٢٣] أبو داود ـ يقطع صلته بأبي مسلم، وبالتالي أغلق أبواب خراسان في وجهه. عندئذ لم يعد باستطاعة الخراساني سوى التوجه إلى المدائن لموافاة الخليفة ليأمن على نفسه. ثم نفذ الخطة التي أعدها مسبقاً للفتك به بمواجهته بالتهم المنسوبة إليه، وأخيراً أمر رجاله المسلحين بقتله في مجلسه سنة ١٣٧ هـ/ ٧٥٤ م[٢٤] وبعد مقتله استرضى الخليفة قادة جيش أبي مسلم وجنده بالأموال والهدايا لتهدأ نفوسهم.

ولم تنته المشاكل بنهاية حياة رجل كان له الفضل الأكبر على دولة بني العباس، بقضائه على أعدائها الواحد بعد الآخر، ثم دفع في النهاية ثمن ما حققه لنفسه من مجد. فكانت نتيجة ذلك ظهور فرق دينية غريبة عن الإسلام وكان

---

(٢٠) تاريخ الطبري ٧ / ٤٨٣. ومروج الذهب ٣ / ٢٩٠.

(٢١) تاريخ الطبري ٧ / ٤٨٢.

(٢٢) المصدر السابق ٧ / ٤٨٣.

(٢٣) المصدر اليابق ٧ / ٤٨٥ و٤٨٦.

(٢٤) المصدر السابق ٧ / ٤٨٦ ـ ٤٩٤. والفخري في الآداب السلطانية ١٧٠.

أصحابها يظهرون الإسلام ويبطنون ديانتهم المجوسية القديمة، إذ حينما قتل أبا مسلم الخراساني أعلنوا الثورة في وجه الدولة العباسية لقتلها رمز حركاتهم الدينية.

المسلمية:

ومن هذه الحركات، الحركة المعروفة بـ«المسلمية» نسبة إلى أبي مسلم، التي تتوافق في مبادئها مع مبادىء «الخرمية» و«المزدكية»(٢٥) القديمة. وقد تزعم هذه الحركة رجل من أتباع أبي مسلم يدعى سنباذ(٢٦)، بدأ ثورته في نيسابور سنة ١٣٧ هـ/ ٧٥٤ م ونادى بإمامة أبي مسلم، وقال بأنه لم يمت، ولن يموت حتى يظهر ويملأ الأرض عدلاً ورحمة ويعيد دولة المجوس ويزيل ملك العرب. لكن المنصور أرسل إليه جيشاً كبيراً تمكن من هزيمته بعد سبعين يوماً من قيام حركته.

الراوندية:

حركة أخرى ظهرت بعد مقتل أبي مسلم الخراساني هي حركة «الراوندية»(٢٧) نسبة إلى قرية «راوند»(٢٨) بالقرب من أصفهان. يعتقد الراونديون بتناسخ الأرواح، ويقولون بأن روح آدم حلت في الأنبياء، إلى أن تنتقل من ثم إلى أبي مسلم. وإن روح الله حلت في أبي جعفر المنصور، وقد انتقل بعضهم من خراسان إلى هاشمية الأنبار سنة ١٤١ هـ/ ٧٥٨ م، وأخذوا يطوفون بقصر الخليفة وينادون المنصور بقولهم: «أنت، أنت، أي أنت ربنا» وقد حاربهم المنصور

---

(٢٥) إن خرم هي زوجة مزدك، هربت بعد مقتل زوجها سنة ٥٣١ م من المدائن إلى الري واستمرت تبشر بمبادىء زوجها التي تقوم على شيوعية الأموال والنساء كوسيلة لإزالة الخلافات بين الناس. فسمي أتباعها بالمزدكية نسبة إلى زوجها وبالخرمية نسبة إليها. واستمر هذا المذهب حياً في خراسان حتى مجيء أبي مسلم الذي نجح في ضم هذه العناصر إلى دعوة بني العباس.

(٢٦) مروج الذهب: جـ ٣ / ٢٩٣ ـ ٢٩٤. والفخري في الآداب السلطانية ١٧١.

(٢٧) الأخبار الطوال، ٣٨٤. والفخري في الآداب السلطانية ١٦٠ ـ ١٦١، والراوندية فئة تنسب إلى أحمد بن يحيى بن إسحق الراوندي المتوفى سنة ٣٠٣ هـ. وقد كان معتزلياً، ثم صار شيعياً، ثم تغير إلى الزيغ والإلحاد وله مؤلفات تمثل ذلك الاضطراب الذي تقلب فيه (تاريخ الإلحاد في الإسلام. عبد الرحمن البدوي).

(٢٨) معجم البلدان جـ ٣ / ١٩٠.

بشدة، واتخذ لنفسه من ذلك الوقت حرساً خاصاً من سلاح الفرسان لحراسة القصر ليلاً نهاراً.

جـ ـ التخلص من العلويين :

إذا كان المنصور قد تخلص من عمه عبدالله بن علي، وأبي مسلم الخراساني فإن خطراً أشد وأقوى منهما لأنه يمثل حركة جماعية تتجه نحو عدم الإعتراف بحق البيت العباسي بأجمعه في الخلافة. وهذا الخطر هو خطر العلويين من بيت الحسن بن علي، في حين ان بيت الحسين بن علي ـ الذي كان يمثله الإمام جعفر الصادق آنذاك ـ آثر التريث ولم يشترك في الثورة ضد أبي جعفر المنصور.

وقد تزعم الثورة ضد المنصور من البيت الحسني(٢٩) محمد بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ـ المعروف بالنفس الزكية ـ ومعه أخوه إبراهيم بن عبدالله. كان محمد النفس الزكية قد بايعه بنو هاشم بالخلافة في أواخر العصر الأموي، ومن جملة الذين بايعوه كان المنصور نفسه. لذلك رأى أنه أحق بالخلافة من العباسيين استناداً إلى حقه الشرعي بصفته حفيد الحسن بن علي بن أبي طالب. ورفض مبايعة أبي العباس بالخلافة، ثم اختفى مع أخيه إبراهيم عندما أدى أبو جعفر المنصور وأبو مسلم الخراساني فريضة الحج على عهد أبي العباس. وقد اجتمع، للقائه بالمدينة، بنو هاشم جميعاً إلا محمد النفس الزكية وأخاه إبراهيم، فلما سأل عنهما، تبين له أنهما اختفيا فأوجس منهما شراً.

ولما حج المنصور بعد أن ولي الخلافة سنة ١٤٠ هـ/ ٧٥٧ م استدعى عبدالله بن الحسن وسأله عن ولديه محمد وإبراهيم، أنكر معرفته بمكانهما، وأمر ولاته في الحجاز بمراقبة بني الحسن والتضييق عليهم. ثم أنكر المنصور حينما حج سنة ١٤٤ هـ/ ٧٦١ م. بالقبض على آل الحسن جميعاً وإرسالهم إلى العراق

---

(٢٩) مروج الذهب جـ ٣ / ٢٩٠ ـ ٢٩٨.

وسجنهم بالكوفة بعد مصادرة أموالهم، لأنهم يتسترون على المكان الذي يوجد فيه محمد النفس الزكية[٣٠].

وأخيراً ظهر محمد النفس الزكية، سواء بفعل الحيلة التي دبرها المنصور له والقاضية بترويج الدعاية له والتظاهر بأن دعوته قد عمت الأقطار، وأن قواد المنصور تعاطفوا مع دعوته وهم ينتظرون ظهوره، أم بفعل فقدانه الصبر على التستر لما لحق بأهله بسببه. فالمهم أنه انخدع وظهر بالمدينة، مع جماعة تقدر بـ ٢٥٠ رجلاً في أول رجب من سنة ١٤٥ هـ/ ٧٦٢ م استطاع بهم أن يستولي على المدينة، ويقهر عاملها العباسي رباح بن عثمان بن حيان المري لانضمام سائر من فيها إلى جانب محمد النفس الزكية، فأتى إلى السجن وأخرج من فيه، ثم صعد إلى منبر الحرم ليخطب في الناس منددآ بأبي جعفر المنصور، داعياً لنفسه، معلناً أن جميع الأمصار معه: « والله ما جئت هذه وفي الأرض مصر يعبد الله فيه إلا وقد أخذت لي فيه بيعة[٣١]. »وهذا ما يؤكد ما كان يقوله لأتباعه: لو التقينا مال إلي القواد كلهم».

لكن هذا الظن وذلك التقدير من قبل محمد النفس الزكية أوقعاه في شرك الحرب ليقاتل العباسيين منفرداً وبخاصة لأنه كان قد اتفق مع أخيه إبراهيم على أن يخرج بالبصرة في الوقت نفسه الذي يخرج هو فيه بالمدينة وبذلك يقع الخليفة المنصور بين نارين. إلا أن مرض إبراهيم أقعده عن ذلك وربما لأن محمد النفس الزكية استعجل الخروج قبل الوقت المحدد، إضافة إلى أنه حضر نفسه بالمدينة وبقي داخلها بعد انتصاره لنشر قوته خارجها لأن مواردها الذاتية لا تجعل أهلها يحتملون حصاراً طويلاً يفرض عليهم[٣٢]. لهذا أجاب الربيع بن عبدالله عندما قال له المنصور حينما علم بخروج محمد النفس الزكية: «خرج محمد، فقال الربيع»: أين؟ «قال المنصور بالمدينة »فقال الربيع: «هلك والله، خرج في غير عدد ولا رجال».

---

(٣٠) تاريخ الطبري ٧ / ٥٠١ ـ ٥٠٢ والكامل في التاريخ جـ ٤ / ٣٧٣ ـ ٣٧٦.

(٣١) المصدر السابق: تاريخ الطبري ٧ / ٥٥٤ ـ ٥٦٤ والكامل في التاريخ جـ٥ / ٣.

(٣٢) الكامل في التاريخ: جـ ٥ / ٥٠٣.

أسرع المنصور عندها إلى الكوفة ليأمن جانب أهلها لعلمه أنهم من شيعة علي، ويخشى خروجهم عليه لمساعدة محمد النفس الزكية، ثم أغلق أبوابها مانعاً الدخول إليها والخروج منها، في الوقت الذي حرص فيه المنصور على أن يخفي الأخبار عن أهل خراسان أيضاً حتى لا تتحول مشاعرهم فيثوروا ضده ثم بدأت المكاتبات والخطابات تتناوب بين الإثنين، يذكر كل منهما فضل بيته، ويتباهى بنسبه ويظهرا أحقيته في الخلافة، ويعرض الأمان على الآخر[٣٣].

لكن هذه المراسلات فشلت في التوفيق بينهما، وأدت بالتالي إلى توسيع الخرق بحيث لم يبق من مجال إلا للحرب. أعد الخليفة المنصور جيشاً ضخماً جهزه أحسن تجهيز واختار لقيادته ولي عهده عيسى بن موسى[٣٤]. وبعد أن زوده المنصور بتوجيهاته ونصائحه سار عيسى، فوصل في رمضان سنة ١٤٥ هـ/ ٧٦٢ م إلى المدينة ليجدها محاطة بخنادق، وقد تحصن محمد النفس الزكية بداخلها، فدعاه عيسى إلى الإستسلام ولكنه رفض، فأرسل عيسى فرقة من جيشه لحراسة طريقه للقبض على محمد. إذا ما حاول الفرار.

ودارت الحرب بين الفريقين التي أظهر فيها محمد النفس الزكية شجاعة نادرة، لكن هذه الشجاعة لم تجد شيئاً أمام قوة خصمه وكثرة عدد رجاله في الوقت الذي انفض فيه عدد كبير من أتباعه، ومنهم بعض العلويين أنفسهم[٣٥]، عندئذ لم يبق أمام أهل المدينة سوى رفع الأعلام السوداء ـ شعار العباسيين ـ فوق مرتفعاتها وعلى المسجد النبوي معلنين الإستسلام ثم قتل محمد النفس الزكية وقطع عيسى بن موسى رأسه وأرسله إلى المنصور في منتصف رمضان سنة ١٤٥ هـ/ ٧٦٢ م[٣٦].

ترك عيسى بن موسى قائد جيوش العباسيين المدينة وانتقل إلى حيث صادر

(٣٣) تاريخ الطبري ٧ / ٥٦.
(٣٤) الفخري في الآداب السلطانية ١٦٧ والكامل في التاريخ ٥ / ٣.
(٣٥) الكامل في التاريخ : '٣.
(٣٦) مروج الذهب ٣ / ٣٩٦ والفخري في الآداب السلطانية ١٦٧.

أموال العلويين فيها. وبناء لطلب الخليفة المنصور أسرع بالمجيء إلى البصرة لمحاربة إبراهيم بن عبدالله ـ شقيق محمد النفس الزكية ـ بعدما بايعه أهلها عندما ظهر فيها، الأمر الذي مكنه من السيطرة على الجهات القريبة منها والأهواز وواسط. وما أن وصل عيسى بن موسى إلى البصرة، وعند «باخمري» دارت الحرب بين الطرفين قتل فيها إبراهيم في ذي القعدة سنة ١٤٥ هـ/ ٧٦٢ م(٣٧).

وهكذا حلت بالعلويين النكبة بمقتل الأخوين محمد النفس الزكية وإبراهيم وتشرد من بقي من بني الحسن على قيد الحياة. في البلاد، بعد أن استشهد من استشهد، وقتل من قتل، وحبس من حبس، على أيدي العباسيين علماً أن الإمام إدريس بن عبدالله، أخو محمد وإبراهيم، فر إلى المغرب الأقصى وأسس هناك دولة الأدارسة(٣٨). هذه الكارثة التي لحقت بالعلويين بعد التي سبقتها على أيدي الأمويين تركت أثراً عميقاً في قلوب الكثير من المسلمين. وإيماناً بأحقية الدعوة العلوية وإحساساً بالعطف على آل البيت العلوي استمرت الدعوة لهم حتى قامت بعض الدول العلوية في أكثر من بقعة من بقاع العالم الإسلامي.

وكما واجهت المنصور أخطار داخلية، كذلك واجهته أخطار ومتاعب خارجية لذلك كان ينظر دائماً بعين إلى الداخل ليراقب ما يجري بالبلاد وبالعين الاخرى إلى الخارج ليعلم بتحركات أعدائه في المشرق والمغرب.

٢ ـ الأخطار الخارجية.

أ ـ في المشرق:

استغل البيزنطيون فرصة انشغال الخليفة أبي جعفر المنصور في قمع الفتن الداخلية التي قامت في بداءة خلافته وبخاصة من عمه عبدالله بن علي، فجهز الأمبراطور البيزنطي قسطنطين الخامس سنة ١٣٨ هـ/ ٧٥٥ م حملة لمهاجمة «ملطية» ـ إحدى الثغور الإسلامية في الجزيرة ـ فهدم سورها وعاث فيها فساداً وخراباً(٣٩)، فما كان من المنصور إلا أن أعد الجيوش لغزو البيزنطيين ورد خطرهم

(٣٧) تاريخ الطبري ٧ / ٦٤٩ - ٦٤٣. ٣ / ٢٩٧.

(٣٨) للمريد من التفاصيل عن دولة الأدارسة أنظر الفصل الحادي عشر من هذا الكتاب.

(٣٩) تاريخ الطبري ٧ / ٤٩٧.

عن الثغور الإسلامية، سواء منها الجزيرة الفراتية أو الثغور الشامية. وولى على هذه الجيوش عمه صـالح بن علي الذي توغل في أرض البيزنطيين بعد أن أصلح «ملطية» وفرض الصلح بين الدولتين. ثم تكررت الغزوات براً وبحراً في صوائف متعددة لأنها كانت تقوم في الصيف ـ سنة ١٥٥ هـ/ ٧٧٢ م، عندما لجأ البيزنطيون إلى طلب الصلح مقابل جزية يؤدونها للمسلمين.

ب ـ في المغرب.

ظل العباسيون ينظرون إلى المغرب والأندلس بعين الحسرة وهما ينسلخان عن نفوذهم وتقوم على أراضيهما دول ذات كيان مستقل عن الخلافة العباسية ولم يتركوا أي فرصة تفوتهم إلا وقد عملوا على مد سيطرتهم التامة عليها لأنهم كانوا يأملون بحكم وضعهم أن يكون لهم ما كان لاسلافهم الأمويين من سيطرة كاملة على كامل ممتلكات الدول الإسلامية. لذلك ما أن انتهى المنصور من فرض الأمن في الداخل حتى بدأ يتطلع إلى استعادة المغرب والأندلس.

فالمغرب الذي كان ميداناً خصباً لنشاط الخوارج الذين قالوا بعدم حصر الخلافة في بيت معين أو أسرة معينة أياً كان نسبها أو حسبها، لذا صادفت هذه الاراء التي نادوا بها هوى في نفوس البربر بشمال أفريقيا إذ رأوا في التمسك بها إعتداداً بالنزعة القومية والعصبية العنصرية ـ مما مكنهم من الوقوف أمام السيادة العربية ـ فكان أن قامت دولتان للخوارج في المغرب[٤٠].

ولم يشأ الخليفة أبو جعفر المنصور أن يترك المغرب ينسلخ عن نفوذه لذلك أرسل الحملات العسكرية بأمرة محمد بن الأشعث ـ والي مصر العباسي ـ الذي لم يتمكن إلا من استرداد المغرب الأدنى عندما دخل إلى القيروان بينما بقي المغرب الأقصى في منأى عن الخلافة العباسية.

جـ ـ في الأندلس.

والأندلس التي اقتطعت عن جسم الدولة العباسية الإسلامية بعد أن هرب

(٤٠) قامت دولتان للخوارج في المغرب، دولة بني مدرار أو بني وأسول والدولة الرستمية، وللمزيد من التفاصيل إقرأ الفصل الحادي عشر من الكتاب.

إليها عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان الملقب بالداخل وأسس فيها الدولة الأموية، ولم يتخذ عبد الرحمن لنفسه لقب الخليفة أو أمير المؤمنين، إنما اكتفى بلقب الأمير فقط(٤١).

وبسبب بعد المسافة بين العراق والأندلس وصعوبة وصول الجيوش العباسية إليه، لجأ المنصور إلى الحيلة لاسترداده إلى نفوذه بأن حرض أحد الزعماء العرب واسمه «العلاء بن مغيث الجذامي» في مدينة «باجه»(٤٢) ـ غرب الأندلس ـ على الثورة ضد الأمير عبد الرحمن واعداً إياه بإعطائه إمرة الأندلس إن هو نجح في الإنتصارعلى عدوه الأموي، لكن الأمير عبد الرحمن توجه سنة ١٤٧ هـ/ ٧٦٤ م على رأس قوة من جيشه لمحاربة العلاء الذي انتصر عليه في البداءة انتصاراً كبيراً فما كان من عبد الرحمن إلا أن جمع شتات جيشه وخطب فيهم قائلاً: «أمامنا الآن طريقان، إما النصر أو الموت، فاخرجوا معي خروج من لا يحدث نفسه بالرجوع»، ثم اندفع أمامهم وهم من خلفه فاخترقوا الحصار وانقضوا على جيش العلاء وشتتوا شمله وقتلوا قائده العلاء نفسه(٤٣).

تجاه هذا الواقع صرف المنصور النظر عن فكرة استعادة الأندلس وأبدى إعجابه بشجاعة عبد الرحمن، وقال(٤٤): «إن صقر قريش هو هذا الأمير الشجاع عبد الرحمن الذي ذهب إلى الأندلس شريداً طريداً واستطاع بذكائه وشجاعته أن يؤسس هناك ملكاً عريضاً». ومنذ ذلك الوقت لقب عبد الرحمن بلقب «صقر قريش».

٣ ـ بناء بغداد.

واجهت الخليفة الأول العباسي، مشكلة اختيار مقر للدولة العباسية الناشئة. فقد ذكرنا أن أبا العباس بقي يتنقل من «الكوفة» إلى هاشمية الكوفة» و«هاشمية الأنبار» حتى مات فيها. ثم جاء أبو جعفر المنصور فأقام أول الأمر في «هاشمية

---

(٤١) الخضري بك، الشيخ محمد، الدولة العباسية المكتبة التجارية الكبرى مصر ب، تا، ٧٩.

(٤٢) معجم البلدان جـ ١ / ٣١٤ ـ ٣١٥.

(٤٣) الكامل في التاريخ. جـ ٥ / ٢٦.

(٤٤) العقد الفريد: جـ ٥ / ٢٠١ ٢٠٢. والكامل في التاريخ ٥ / ٢٦.

الكوفة» ثم انتقل إلى المدائن. وفي الوقن نفسه كانت آماله عريضة وطموحه كبيراً وأراد أن يرتبط اسمه واسم العباسيين بحاضرة ضخمة مثلما ارتبط اسم بني أمية بمدينة دمشق، من هنا بدأ أبو جعفر المنصور يتطلع إلى بناء مدينة جديدة تجمع بين حصانة الموقع وسهولة الاتصال بأطراف الدولة. فكان اختياره لموقع بغداد بين نهري دجلة والفرات، يعود للأسباب التالية:

١ ـ لم يستطع الإقامة في الكوفة بين أهلها المتشيعين لعلي بن أبي طالب وابنائه من بعده.

٢ ـ لم يستقر في مكة أو المدينة لأن الحجاز في ذلك الوقت قطر فقير.

٣ ـ لم يختر الإقامة في دمشق لأنها كانت عاصمة الأمويين لأنها مدينة عربية وفي بيئة عربية.

٤ ـ لم يكن من مفر سوى اختيار الموقع في العراق، بين فارس وخراسان مركز قوة العباسيين من ناحية وبين بلاد الشام ودمشق قاعدة الأمويين من ناحية أخرى وعلى غير مسافة بعيدة من الحجاز مبعث الدعوة الإسلامية، ومقر الأماكن المقدسة للمسلمين.

ثم خط المنصور المدينة على شكل مستدير فجعل لها سورين: أحدهما داخلي والآخر خارجي، بلغت سماكة الأول في أعلاه خمسة وثلاثين ذراعاً وعليه أبراج ضخمة. بينما امتاز السور الثاني عن الأول بالسماكة والعلو وبأبراج الحراسة والمراقبة، وجعل المنصور للمدينة أربعة أبواب، كل إثنين منهما متقابلان وبنى المنصور وسط المدينة قصره والجامع(٤٥) وبنى فوق القصر قبة خضراء عالية ترى من أطراف بغداد، وفي أعلاها تمثال لفارس بيده رمح يتحرك في اتجاه الريح. وأحاط المنصور بقصره قصور الأمراء ودواوين الحكومة المختلفة.

ثم بنى المنصور في جنوب المدينة ربض الكرخ(٤٦) جاعلاً به الأسواق

---

(٤٥) الفخري في الآداب السلطانية ص: ١٦٣ وتاريخ ابن خلدون: جـ ٣ / ١٩٧.

(٤٦) تاريخ الطبري ٧ / ٦٥٣ و — Lombard Maurice. L'islam dans sa première grandeur (XIII — X) P: 127 Flammarion Paris 1971—.

ومسجداً خاصاً بالباعة، وتشير المصادر التاريخية إلى أن المنصور أنفق على بناء بغداد ثمانية عشر مليون دينـار، وقد أطلق عليها المسلمون أسماء عدة فقالوا(٤٧): «مـدينة المنصـور» نسبة إلى مؤسسهـا، و«المدينـة المدورة»، نسبـة إلى شكلها الدائري كما أطلق عليها إسم «مدينة السلام» أو «دار السلام» تشبهاً لها بالجنة واسم بغداد يغلب الظن أنه فارسي يتألف من كلمتين «بغ» ومعنـاها الله «وداد» ومعناها عطية، فيكون معنى بغداد «عطية الله» وقد استغرق بناء بغداد أربع سنوات (١٤٥ ـ ١٤٩هـ/ ٧٦٢ ـ ٧٦٦م). ثم وسعت على عهد الرشيد وابنه المأمون (أكبر مدن العـالم) (آنـذاك)(٤٨) حتى أصبحت تضم في أوائل العصر العباسي الثاني أكثر من مليون نسمة(٤٩).

وبنى المنصور أيضاً في سنة ١٥١هـ/ ٧٦٨ م مدينة «الرصافة» على الضفة الشرقية لنهر دجلة في مقابل بغداد، فعرفت ببغداد الشرقية، وجعل بين المدينتين ثلاثة جسور فوق نهر دجلة للربط بينهما. وقـد شيدهـا في الأصل لتكـون مقراً للجيش الخراساني بقيادة ابنه المهدي(٥٠) إلا أنها نمت بسرعة فأصبحت امتداداً لبغداد.

٤ ـ ولاية العهد.

المعروف أن أبا العباس أبو الخلفاء العباسيين كان قد ولى أخاه أبا جعفر المنصور العهد من بعده، على أن تكون الخـلافة بعـد المنصور إلى عيسى بن موسى بن محمد، ولما تولى أبو جعفر المنصور الخلافة بعد وفاة أبي العباس رأى أن يُقدم ابنه محمد المهدي في ولاية العهد على ابن أخيه عيسى بن موسى. لهذا أخذ المنصور يستعمل مع ابن أخيه التهديد حيناً والترغيب أحياناً حتى استجاب

---

(٤٧) الأخبار الطوال ٣٨٣ والفخري في الآداب السلطانية ١٦٣ وتاريخ ابن خلدون ٣ / ١٩٧.

(٤٨) M. Lombard. Lislam dans sa premiére grandeur, P P. 127 — 129

(٤٩) ABDEL Nour Antoine. introduction a l'histoire de la Syrie P. 42 — 82 ottomane (XVI — VII) publie de l'universite libanaise.

(٥٠) الفخري في الآداب السلطانية ١٧٣ ـ ١٧٤ وتاريخ ابن خلدون جـ ٣، ص ١٩٩.

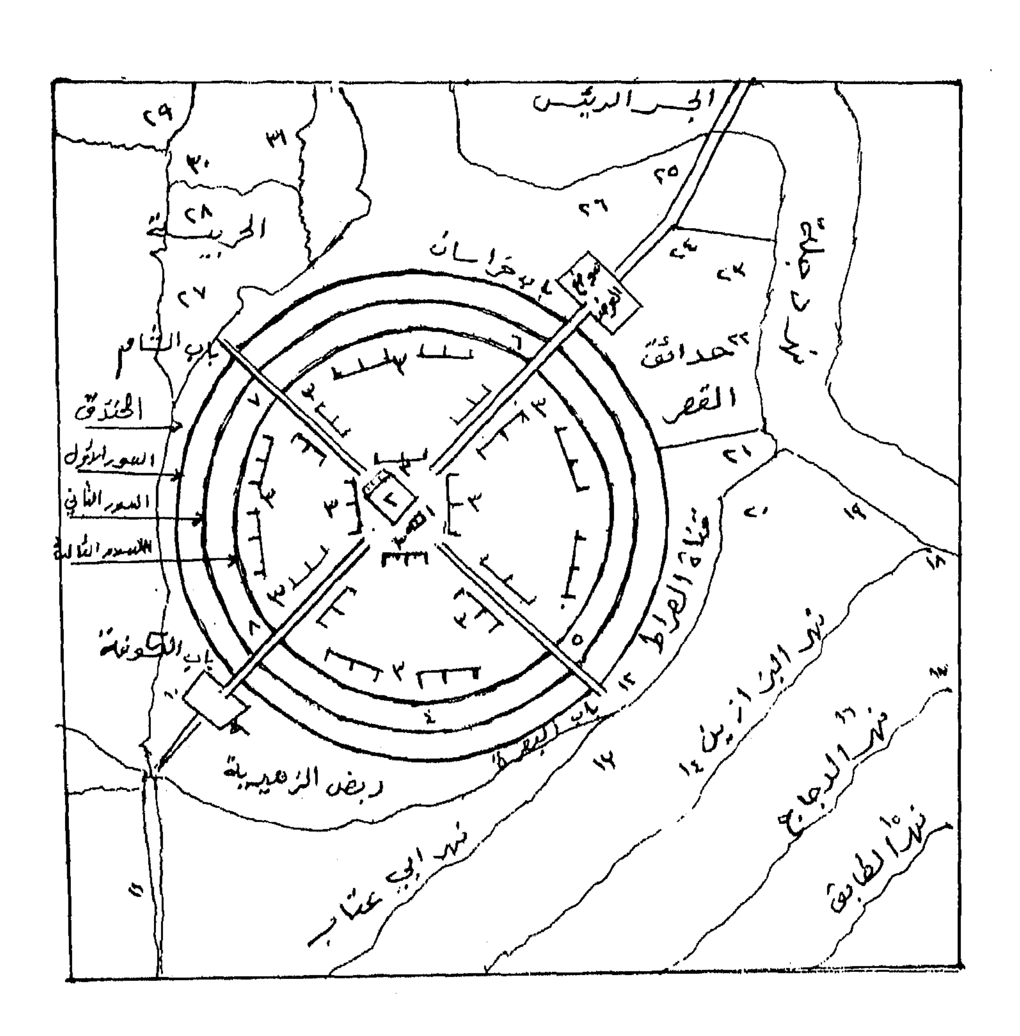
عيسى بن موسى وخلع نفسه منها سنة ١٤٧ هـ/ ٧٦٤ م فصارت ولاية العهد للمهدي بن المنصور أولاً ثم لعيسى بن موسى من بعده(٥١).

٥ ـ شخصية المنصور.

توفي أبو جعفر المنصور سنة ١٥٨ هـ/ ٧٧٥ م وهو في طريقه من الحج وقد عرف عن المنصور الجد وبعد النظر في العمل، والإطلاع على كل شاردة وواردة بنفسه وبخاصة الأمور المالية منها، فاتهمه الناس بالشح والبخل ولقبوه بـ«أبي الدوانيق» أو «الدوانيقي» نظراً لميله إلى الإقتصاد في النفقات حتى امتلأت خزائنه بالأموال. فاستطاع الإنفاق إلى سائر مرافق الدولة وعلى الحروب، وبناء حاضرة العباسيين الجديدة. ترك لابنه المهدي ثروة مكدسة أوصاه بها قائلاً: «وانظر هذه المدينة (بغداد) فإنها بيتك وعزك قد جمعت لك فيها من الأموال ما أن كسر عليك الخراج عشر سنين كان عندك فيها كفاية لأرزاق الجند والنفقات وعطاء الذرية (أي الأسرة العباسية) ومصلحة الثغور، فاحتفظ بها، فإنك لا تزال عزيزاً ما دام بيت مالك عامراً»(٥٢)

(٥١) ـ الفخري في الأداب السلطانية ١٧٢ ـ ١٧٣ والكامل في التاريخ ٥ / ٢٢ ـ ٢٣ وتاريخ ابن خلدون جـ ٣، ص: ١٩٧.

(٥٢) تاريخ الطبري ٨ / ١٠٣ وتاريخ ابن خلدون ٣ / ٢٠٤ ـ ٢٠٥.



الجسر الرئيس
باب خراسان
الحربية
باب الشام
الخندق
السور الأول
السور الثاني
السور الثالث
حدائق القصر
قناة الصراة
باب الكوفة
باب البصرة
ربض الزهيرية
نهر أبي عتاب
نهر البزازين
نهر الدجاج
نهر الطابق

دليل خريطة بغداد[1]:

١ ـ جامع المنصور.
٢ ـ قصر باب الذهب والدها ليزان المقابلان لباب الشام.
٣ ـ دواوين الدولة المختلفة: بيت المال ـ دار السلاح ـ دار القضاء ـ ديوان الخراج ـ المخابز العامة ـ ديوان الرواتب ـ ديوان الحاجب ـ قصور أبناء الخليفة الأصاغر.
٤ ـ السجن ويسمى المطبق.
٥ ـ باب البصرة.
٦ ـ باب خراسان.
٧ ـ باب الشام.
٨ ـ باب الكوفة.
٩ ـ مسجد المسيب.
١٠ ـ دار الحرس وديوان الصدقة والإصطبلات وثكنات الهجّانة.
١١ ـ الجسر القديم.
١٢ ـ الجسر الجديد.
١٣ ـ قصر ومسجد الوضاح.
١٤ ـ الطريق الذي يجتاز قوس الحراني.
١٥ ـ جامع ضاحية بغداد الشرقية.
١٦ ـ ضريح معروف الكرخي.
١٧ ـ مشهد علي المعروف بمشهد المنطقة.
١٨ ـ دار الجوز.

(١) الخريطة ودليلها: علي إبراهيم حسن. التاريخ الإسلامي العام. ٣٦١ ـ ٣٦٢. مكتبة النهضة المصري. القاهرة ١٩٧٢.

١٩ ـ قصر حميد بن عبد الحميد وباب الشعير.
٢٠ ـ قصر عضد الدين الوزير.
٢١ ـ الدير القديم بالقرب من ملتقى دجلة بباب البصرة.
٢٢ ـ دار القرار: قصر زبيدة.
٢٣ ـ قصر الخلد.
٢٤ ـ إصطبلات الخليفة.
٢٥ ـ ديوان أشغال الجسر، ودار عامل الشرطة.
٢٦ ـ قصر الأمير بن سليمان وصالح.
٢٧ ـ سجن باب الشام.
٢٨ ـ قصر سعيد الكاتب ومعهد الأيتام.
٢٩ ـ دكاكين الأبناء ـ الفرس.
٣٠ ـ رحبة الفرس.
٣١ ـ رحبة شعيب.



الفصل الرابع

خلفاء العصر العباسي الأول(٢)

٣ ـ محمد المهدي (١٥٨ ـ ١٦٩ هـ/ ٧٧٥ ـ ٧٨٥ م).

تسلم محمد المهدي الخلافة العباسية بعد وفاة والده المنصور وقد مل الناس سياسة الأخير المبالغة في الإقتصاد والتقتير إلى جانب الحروب المتواصلة في الداخل والخارج. فجاءت سياسة المهدي لتلبي رغبة الناس بالإستمتاع بقدر من الترفيه والراحة والتغيير، إذ كان سخياً كريماً فرق الأموال التي اكتنزها أبوه ـ بلغت أربعة عشر مليون دينار ـ على الناس، فأحسوا بالمال يجري بين أيديهم، الأمر الذي جعلهم يقارنون بين الوضع الذي كانوا عليه في عهد المنصور، وبين ما صاروا عليه في عهد المهدي.

وعرف عن المهدي حبه لحديث النساء حتى صار للجواري نفوذ كبير في شؤون الدولة، وخير مثل على ذلك الجارية المغربية خيزران التي تزوجها المهدي وأنجب منها موسى الهادي وهرون الرشيد، والتي كان قصرها مقصداً لذوي الحاجات في الدولة. وأحب المهدي الإستماع إلى الغناء، وحضور جلسات الغناء التي أجزل فيها العطاء للمغنين والسماح لأصحابه بشرب النبيذ في حضرته، حتى أنه لم يستطع بعد ذلك أن يوقفهم عند حد معين، فاندفعوا في تلك الحياة لا يلوون على شيء، مما أعطى الحياة الإجتماعية ـ وخاصة في بغداد ـ طابعاً جديداً. وثمة ظاهرة جديدة ظهرت في انطواء القبائل العربية على نفسها وضعف نفوذها، أمام تيار الموالي وضغطهم، فأخذت العادات وأساليب الحياة الفارسية تزحف على المجتمع لتحل محل عادات العرب وأساليبهم في الحياة.

١ ـ سياسة المهدي الداخلية:

ولأجل بلسمة جراح الناس، واسترضاء قلوبهم، رد معظم الأموال التي صادرها أبوه إلى أصحابها، وأطلق سراح المسجونين السياسيين وبخاصة العلويين منهم، واسترضى أهل الحجاز عندما حج ١٦٠ هـ/ ٧٧٦ م بتوزيعه عليهم الأموال والغلال كما استخدم منهم نحواً من خمسمائة في حرسه الخاص لكسب رضاهم.

وطابع الرخاء الذي تميز به عهد المهدي واكبه حرصه التام على القيام بإصلاحات كثيرة منها أنه أمر[١]:

- ببناء القصور في طريق مكة.
- بتخصيص الجرايات للمجذومين وأهل السجون حرصاً على عدم انتشار مرض المجذومين وخوفاً على المسجونين من الموت جوعاً وإهمالاً.
- بعمل المصانع[٢] في كل من مكة والمدينة.
- بإقامة البريد لأول مرة بين المدينة ومكة واليمن.
- بتوسيع المسجد الحرام، وزيادته.
- بالإهتمام بالمسالك التجارية، وتأمين طرقها.

إذا كانت هذه أعماله العمرانية، فما هي سياسته الأمنية القضائية؟

لم يتوان المهدي عن إقرار العدل بين الناس، فهو لذلك كان يجلس للمظالم وإليه تُرفع الشكاوى[٣]. وأمر المهدي باتخاذ بيت له شباك حديد على الطريق توضع فيه الشكاوى والقصص، يدخله هو بنفسه، فيأخذ ما يقع بيده منها أولاً بأول وينظر فيها دون أن يتقدم بعضها على بعض بلا وجه حق.

وساعد المهدي على النجاح في إدارة شؤوون الدولة العباسية الواسعة اعتماده على وزرائه بدرجة أقوى مما كان يفعل أبوه، الأمر الذي جعل صورة

(١) الكامل في التاريخ: جـ ٥ / ٥٢ ـ ٥٣، و ٦٠ ـ ٦١.

(٢) المصانع: مفردها مصنعة، وهي حيصان ماء تبنى وتملأ من مياه الأبار حتى يكون الاستقاء سهلاً على رحال القوافل

(٣) مروج الذهب ٣ / ٣١٢ ـ ٣١٣، والفحري في الآداب السلطانية. ١٧٩.

الوزارة في عهد المهدي أوضح من صورتها في عهد المنصور. لكن خلفاء هذا العصر إذا أحسوا أن لوزرائهم مكانة ونفوذ اكبر مما ينبغي، أخذوا يدبرون للتخلص منهم والايقاع بهم.

ـ مشكلة الزنادقة:

وثمة مشكلة داخلية، واجهت المهدي، أخذت الكثير من وقته وهي مشكلة الزنادقة والزندقة. وقد تباينت الآراء حول المقصود بالزندقة في ذلك العصر. فتارة تعني الشك والإلحاد وفساد العقيدة والخروج عن روح الدين، وتارة أخرى تعني الماجنين لإفراطهم في شرب الخمر والمجون، وطوراً تعني الأشخاص غير الموغوب فيهم سياسياً.

ولعل اهتمام المهدي بأمر الزنادقة راجع إلى ظهور بعض الحركات الالحادية في عهده مثل حركة المقنع(٤)الذي نادى بمبادىء الراوندية التي ترجع إلى شخصية الخراساني، فحاربه المهدي وقضى عليه وعلى أتباعه سنة ١٦٣ هـ/ ٧٧٩ م. ولكنه لم يقض على مبادئه التي انتشرت بين الناس وبخاصة في فارس.

وإزاء هذا الأمر اهتم المهدي بالتحري عنهم والتنكيل بهم، وأنشأ ديواناً لهذه المهمة أسماه «ديوان الزنادقة» ورئيسه يدعى «صاحب الزنادقة» يعهد إليه البحث عنهم في كل مكان وقتلهم. ولما كان الشك والإلحاد جاءا نتيجة مذاهب الكلام والجدل الديني حول المسائل الأساسية في الأديان جدلاً يعتمد على الفلسفة والبحث الفلسفي، فإن المهدي لم يكتف بإنشاء ديوان للزنادقة للبحث عنهم ومحاكمتهم، إنما أنشأ هيئة علمية لمناظرتهم والرد عليهم، وتأليف الكتب للرد عليهم أيضاً. ومن ذلك يقول المسعودي(٥) عن الخليفة المهدي «أنه أمعن في قتل الملحدين والمداهنين عن الدين لظهورهم في أيامه».

---

(٤) المقنع لقب هاشم بن حكيم من رجال أبي مسلم الخرساني المقربين إليه، فارسي الأصل من مدينة «مرو» ولقب بالمقنع لأنه كان يضع على وجهه قناعاً موشى بالذهب ليحجب الذات الإلهية، وربما ليخفي وجهه الدميم التي تجسدت فيه عن عيون الناس الدنسة، الكامل في التاريخ ٥ / ٥٢ـ٥٣.

(٥) مروج الذهب، جـ ٣ / ٣٢٢ ـ ٣٢٤.

٢ ـ سياسة المهدي الخارجية:

اتسمت سياسة المهدي الخارجية بالعدائية نحو البيزنطيين أولاً وباستعادة النفوذ على الأندلس ثانياً.

فبالنسبة إلى البيزنطيين:

واصل المهدي غزواته للأراضي البيزنطية. وقبل القدوم على هذا العمل، حرص على تحصين ثغوره المتاخمة لهم، ثم وجه أساطيله البحرية وجيشه البري في غزوات صيفية وشتوية. وأحياناً كان المهدي يخرج مع الصائفة مثلما حدث سنة ١٦٣ هـ/ ٧٧٩ م عندما ولى ابنه هرون الرشيد قيادة الصائفة، وخرج مع ابنه صحبة الجيش الكبير الذي أعده للجهاد(٦). وفي الطريق شجع المهدي الجند بمنحهم العطاء، كما أجزل الصلات لأهل بيته، ممن صحبوه، فكانت هذه الغزوة من أهم الغزوات في عهد المهدي إذ تم فيها فتح «حصن سمالا» بعد حصار طويل.

وسار هرون سنة ١٦٥ هـ/ ٧٨١ م في صائفة بقيادته لغزو بلاد الروم فاخترقت جيوش المسلمين آسيا الصغرى وأوغلت فيها حتى بلغت البسفور. فاضطرت إزاء ذلك الأمبراطورة إيرين التي كانت تحكم كوصية على ابنها القاصر قسطنطين السادس إلى طلب الصلح لمدة ثلاث سنوات، وتعهدت بمقتضاه بدفع جزية سنوية كبيرة للعباسيين(٧) وقد أظهر هرون في هذه الغزوة من الحكمة والشجاعة وسعة الإطلاع ما أهله لحمل لقب «الرشيد».

ولكن البيزنطيين نقضوا هدنة الصلح بين الطرفين قبل انقضاء أجلها بمهاجمتهم أراضي المسلمين سنة ١٨٦ هـ/ ٧٨٤ م(٨) إلا أن جيوش العباسيين ـ المرابطة في الثغور الشمالية والشمالية الغربية ـ ردتهم على أعقابهم. وهكذا ظلت العلاقة بين العباسيين والبيزنطيين تراوح بين السلم والمهادنة حيناً والحرب أحياناً.

---

(٦) تاريخ الطبري ٨ / ١٤٤ ـ ١٤٨، والكامل في التاريخ ٥ / ٦٣.

(٧) تاريخ الطبري ٨ / ١٥٢ ـ ١٥٣ والكامل في التاريخ ٥ / ٦٥.

(٨) تاريخ الطبري ٨ / ١٦٧ ـ والكامل في التاريخ ٥ / ٦٩ ـ ٧٠.

ـ أما بالنسبة إلى الأندلس:

ظلت الأندلس تؤرق بال العباسيين، فإن جل ما استطاع المهدي أن يفعله تجاه استعادتها إلى نفوذ العباسيين، هو لجوءه إلى تدبير مؤامرة ضد عبد الرحمن الداخل للإطاحة به.

اشترك في حبك أطراف المؤامرة ثلاث قوى: المهدي العباسي ـ وشرلمان ملك الفرنجة في فرنسا، وعبد الرحمن بن حبيب الفهري الوالي في المغرب.

ـ الطرف الأول:

فالطرف الأول العباسي كان كل همه من هذا الإتفاق الثلاثي هو استعادة نفوذه على بلاد الأندلس وإزالة الدولة الأموية الناشئة مع اعتراف عبد الرحمن بن حبيب الفهري بالخلافة العباسية.

ـ الطرف الثاني:

أما الطرف الثاني أو شرلمان ـ ملك الفرنجة ـ فقد وافق على حبك خيوط هذه المؤامرة مع العباسيين لأنه كان يتطلع إلى أن يتوج إمبراطور على الغرب، بعد الانتصار على العرب المسلمين في الأندلس ليظهر أمام الرأي العام المسيحي في غرب أوروبا وأمام الكنيسة والبابوية في صورة حامي حمى الكنيسة الذي خرج يحارب المسلمين.

ـ الطرف الثالث:

والطرف الثالث عربي يتمثل في عبد الرحمن بن حبيب الفهري الملقب بالصقلي، الذي كان والياً على بلاد المغرب وهو على عداء مع الأمير عبد الرحمن الداخل حاكم الأمويين في الأندلس، وقد كان يمني النفس بالإنتصار على الأخير وضم الأندلس إلى ولايته.

استغل الأطراف الثلاثة عداء سليمان بن يقظان الإعرابي ـ حاكم مدينة سرقسطة ZARAGOZA في شمال شرق إسبانيا ـ بسبب الخلاف الحزبي بينهما، لأن الأمير عبد الرحمن كان يميل إلى المضربة ويعادي اليمنية التي ينتمي إليها هذا

الوالي (الحاكم). واتفقوا معه على تنفيذ المؤامرة ضد أمير الأنـدلس بأن يعبـر شرلمان جبل البرانس على رأس جيوشه متجهاً إلى سرقسطة فيسلمها له حاكمها سليمان بن يقظان الإعرابي. وفي هذا الوقت يسير عبد الرحمن بن حبيب الفهري من المغرب على رأس أسطول قوي وينزل في مدينة مرسية MURCIA لمهاجمة السواحل الشرقية للأندلس، فتقع بذلك جيوش أمير الأندلس عبد الرحمن الداخل بين نارين، ويسهل بالتالي الإنتصار عليه بحسب رأيهم.

لكن المؤامرة لم يقدر لها النجاح ولم تنته إلى ما كان يأمله كل طرف، وذلك لعدم إعلان الحرب على العدو المشترك في وقت واحد. فقد انتقل ابن حبيب الفهري بأسطوله إلى مرسيه سنة ١٦٠ هـ/ ٧٧٧ م. قبل أن يـأتي شرلمـان إلى سرقسطة، فاستطاع الأمير عبد الرحمن الداخل أن يتفرغ له ويضربه منفرداً ويقضي عليه، ثم يحرق أسطوله[٩].

وفي السنة التاليـة ـ ١٦١ هـ/ ٧٧٨ م ـ يقطع شـرلمان جبـال البرانس من فرنسا متجهاً إلى سرقسطة، فخرج حاكم سرقسـطة سليمان الإعـرابي لملاقـاته حسب الخطة الموضوعة. لكن أهالي المدينة من المسلمين ثاروا بقيادة الحسين ابن يحيى الأنصاري، وقد أخـذتهم الحمية الـدينية، وأغلقـوا أبواب مـدينتهم، وأعلنوا رفضهم تسليمها إلى ملك مسيحي. فاضطر شرلمان إلى أن يحاصر المدينة لأخذها بالقوة وجـاءته الأخبـار، في الـوقت نفسه، بتجدد ثـورة الساكسـون في الشمال ـ المانيا ـ وإنها تركت المسيحية وارتدت إلى ديانتها الوثنية، وهي في هذه المـرة ـ كان السـاكسون الجـرمـان كلمـا أحسـوا ببعـد شـرلمـان عنهم يثـورون ضده ـ كانت عنيفة مما اضطره إلى رفع الحصار عن سرقسطة، والعودة إلى بلاده.

وهكذا نرى أن الأمير عبد الرحمن الداخل الأموي استطاع الصمود والبقاء، فسار إلى سرقسطة، واستولى عليها. وبذلك فشلت خطة المتآمرين. وبالتالي مني العباسيون للمرة الثانية بالفشل في استرجاع الأندلس.

٣ ـ ولاية العهد:

اتبع المهدي السياسة ذاتها التي اتبعها والده مع ولي عهده عيسى بن موسى

---

(٩) الكامل في التاريخ جـ ٥ / ٦٠.

القائمة على الضغط والتهديد والترغيب[10] لكي يخلع نفسه حتى كان له ما أراد في مقابل عشرين ألف دينار وقطائع كثيرة أخذها عيسى، عندما بايع المهدي سنة ١٥٩ هـ/ ٧٧٦ م لابنه الهادي بولاية العهد. ثم بايع في السنة ١٦٦ هـ/ ٧٨٢ م بولاية العهد لهرون الرشيد بعد الهادي. وأخيراً توفي المهدي في المحرم من سنة ١٧٩ هـ/ ٧٨٥ م.

٤ ـ موسى الهادي (١٦٩ ـ ١٧٠ هـ/ ٧٨٥ ـ ٧٨٦ م).

تولى موسى الهادي الخلافة بعد وفاة أبيه محمد المهدي سنة ١٦٩ هـ/ ٧٨٥ م لكنه لم يعش طويلاً، إذ توفي في ربيع الأول سنة ١٧٠ هـ/ ٧٨٦ م، فدامت خلافته مدة سنة وشهرين تقريباً. وكان كوالده محباً للهو والغناء، فقرب إليه المغني الشهير إبراهيم الموصلي العراقي وابنه إسحق الموصلي. الذي نال خمسين ألف دينار من الخليفة لقاء ثلاث أبيات أطربته لهذا قال إبراهيم: «والله لو عاش لنا الهادي لبنينا حيطان دورنا بالذهب».

هذا فضلاً عن حبه للشراب ومجالسه، كما كان الهادي يميل إلى سماع الأدب والتاريخ. ومن ذلك مثلاً مجالسته للمؤرخ الحجازي عيسى بن دأب[11] الذي كان يحدثه عن أخبار البلاد الإسلامية وأخبار الأمم والشعوب.

وكانت شخصية الهادي موصوفة بالشراسة والغلظة ورباطة الجأش، إذ يروى عنه: أن أحد الخوارج اقترب منه ليقتله وهو بمفرده، فلم يتحرك إلى أن اقترب منه الخارجي، فصاح الهادي[12]: «أقتلاه، فظن الخارجي أن وراءه أحد من الحراس، فالتفت وراءه، عندها هجم الخليفة عليه وانتزع سيفه وقتله.

١ ـ المشاكل التي واجهت الهادي في خلافته.

تبين للهادي أن سياسة التسامح التي اتبعها والده مع العلويين لم تنجح في تهدئتهم بعد الكوارث التي حلت بهم على أيدي العباسيين، لذلك اتبع سياسة

---

(١٠) المخري في الآداب السلطانية ١٨٠.

(١١) الكامل في التاريخ جـ ٥ / ٨١.

(١٢) مروج الذهب، جـ ٣ / ٣٢٥.

حازمة معهم. فقطع عنهم الأرزاق التي خصصها لهم أبوه المهدي، كما أمر عماله بالتضييق عليهم ومراقبتهم، الأمر الذي أدى إلى اندلاع ثورتهم بالحجاز سنة ١٦٩ هـ/ ٧٧٥ م بزعامة الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ابن عم محمد النفس الزكية[١٣].

ويقال ان السبب المباشر لهذه الثورة هو: أن والي المدينة عمر بن عبد العزيز بن عبدالله، أخذ الحسن بن محمد النفس الزكية، هو وجماعة كانوا يشربون النبيذ، فضربهم وجعل في أعناقهم الحبال وطيف بهم في المدينة، ثم حبسهم ولم يطلق سراحهم إلا بكفالة الحسين بن علي، ويحيى بن عبدالله بن الحسن[١٤] ولما كان من المفروض بحسب شروط الكفالة أن يمتثل المفرج عنهم، أمام المراقبين يومياً. لكن الحسن بن محمد النفس الزكية اختفى وتغيب عن المراقبين ثلاثة أيام متوالية. مما جعل والي المدينة يسيء معاملة الكفيلين، فقرروا الخروج والثورة. وصادف أن كان بالمدينة جماعة من أهل الكوفة من شيعتهم بايعوا الحسين ابن علي الذي دخل المسجد وجلس على المنبر، فأتى الناس وبايعوه على كتاب الله وسنة نبيه للمرتضى من آل محمد. وبعد أن أقام الحسين بن علي في المدينة أحد عشر يوماً، فارقها إلى مكة في موسم الحج حيث انضم إليه بعض الحجاج والعبيد.

ولكن هذه الثورة لم تكن بأفضل من ثورات العلويين السابقة، لأن الهادي أمر فوراً محمد بن سليمان بمقاتلتهم. فسار هذا الأخير بالجيوش العباسية إلى أن التقى بالعلويين الثائرين سنة ١٦٩ هـ/ ٧٨٥ م في مكان يدعى «فخ» - بين المدينة ومكة -، وفيه حصل القتال بين الفريقين، فانتهت المعركة بمقتل الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب زعيم الثورة. فسُمي «بقتيل فخ»[١٥] كما قتل الحسن بن محمد النفس الزكية الذي من أجله قامت هذه

(١٣) تاريخ الطبري ٨ / ١٩٢ ومروج الذهب، ٣ / ٣٢٦ - ٣٢٧ والكامل في التاريخ، ٥ / ٧٣ - ٧٥.

(١٤) المراجع السابقة نفسها والصفحات ذاتها.

(١٥) الفخري في الآداب السلطانية ١٩٠ - ١٩١

الثورة، وفر رجلان من العلويين هما: إدريس بن عبد الله بن الحسن ـ أخو محمد النفس الزكية ـ فوصل إلى المغرب حيث أسس فيه الأدارسة[16] دولتهم وأخوه يحيى بن عبدالله بن الحسين[17] الذي مضى إلى بلاد الديلم حيث بايعه أهلها.

ولم يختلف موقف الهادي عن موقف أبيه مع الزنادقة. فأخذ يطاردهم، وينكل بهم، ومع هذا الإضطهاد، وما تعرضوا له من تنكيل وملاحقة لم يستطع أن يضع حداً لنشاطهم.

وتبقى مشكلة ثالثة اعتبرها الهادي سيئة بحق خلافته، ألا وهي تدخل أمه الخيزران في شؤون الإدارة إلى حد أن الناس وقفوا بباب قصرها جماعات بقصد قضاء حوائجهم لأن كلمتها صارت مسموعة بسبب النفوذ الذي تمتعت به منذ أيام زوجها المهدي وامتد هذا النفوذ إلى عهد الهادي، إذ سيطرت على أموره واستبدت بالأمر والنهي. لذا أرسل إلى أمه: «ألا تخرجي من خفر الكفاية إلى بذاءة التبذل، فإنه ليس من قدر النساء الإعتراض في أمر الملك وعليك بصلاتك وتسبيحك وتبتلك». ثم قال لها[18]: «تستوعبي كلامي والله وإلا فأنا نفي من قرابتي من رسول الله، لئن بلغني أنه وقف ببابك أحد من قوادي أو أحد من خاصتي أو من خدمي لأضربن عنقه ولأقبضن ماله، فمن شاء فليلزم ذلك، ما هذه المواكب التي تغدو وتروح إلى بابك في كل يوم؟ أما لك مغزل يشغلك أو مصحف يذكرك أو بيت يصونك؟».

٢ ـ ولاية العهد:

وبالرغم من أن فترة خلافة موسى الهادي كانت قصيرة، فإنه حاول خلع أخيه هرون الرشيد من ولاية العهد، وجعلها لإبنه جعفر الذي كان لا يزال طفلاً.، وكاد الرشيد يرضخ لطلب أخيه لولا تحريض أستاذه يحيى بن خالد البرمكي له[19]

---

(١٦) الكامل في التاريخ ٥ / ٧٦.

(١٧) المرجع السابق ٥ / ٩٠.

(١٨) مروج الذهب ٥ / ٣٢٨ والكامل في التاريخ ٥ / ٧٩.

(١٩) تاريخ الطبري ٨ / ٢٠٧ ـ ٢١٣، ومروج الذهب جـ ٣ / ٣٣٣.

فأخذ يماطل ويتهرب من أخيه. ولما علم الهادي بما فعله يحيى البرمكي أمر بإلقاء القبض عليه تمهيداً لقتله، لكن المنيـة عاجلت الخليفـة الهادي قبـل أن يحقق غرضه، فتوفي وله من العمر ٢٦ سنة في ربيع الأول سنة ١٧٠ هـ/ ٧٨٦ م. وقد ذهب على حد قول ي. أبليابيف ضحية المؤامرات والدسائس التي كانت تحاك في البلاط من قبل مختلف الفئات في الحاشية بدافع المنافسة[٢٠].

(٢٠) العرب والإسلام والخلافة العربية ٢٦٦.

الفصل الخامس

خلفاء العصر العباسي الأول (٣)

٥ ـ هرون الرشيد (١٧٠ ـ ١٩٣ هـ/ ٧٨٦ ـ ٨٠٩ م)

١ ـ شخصيته:

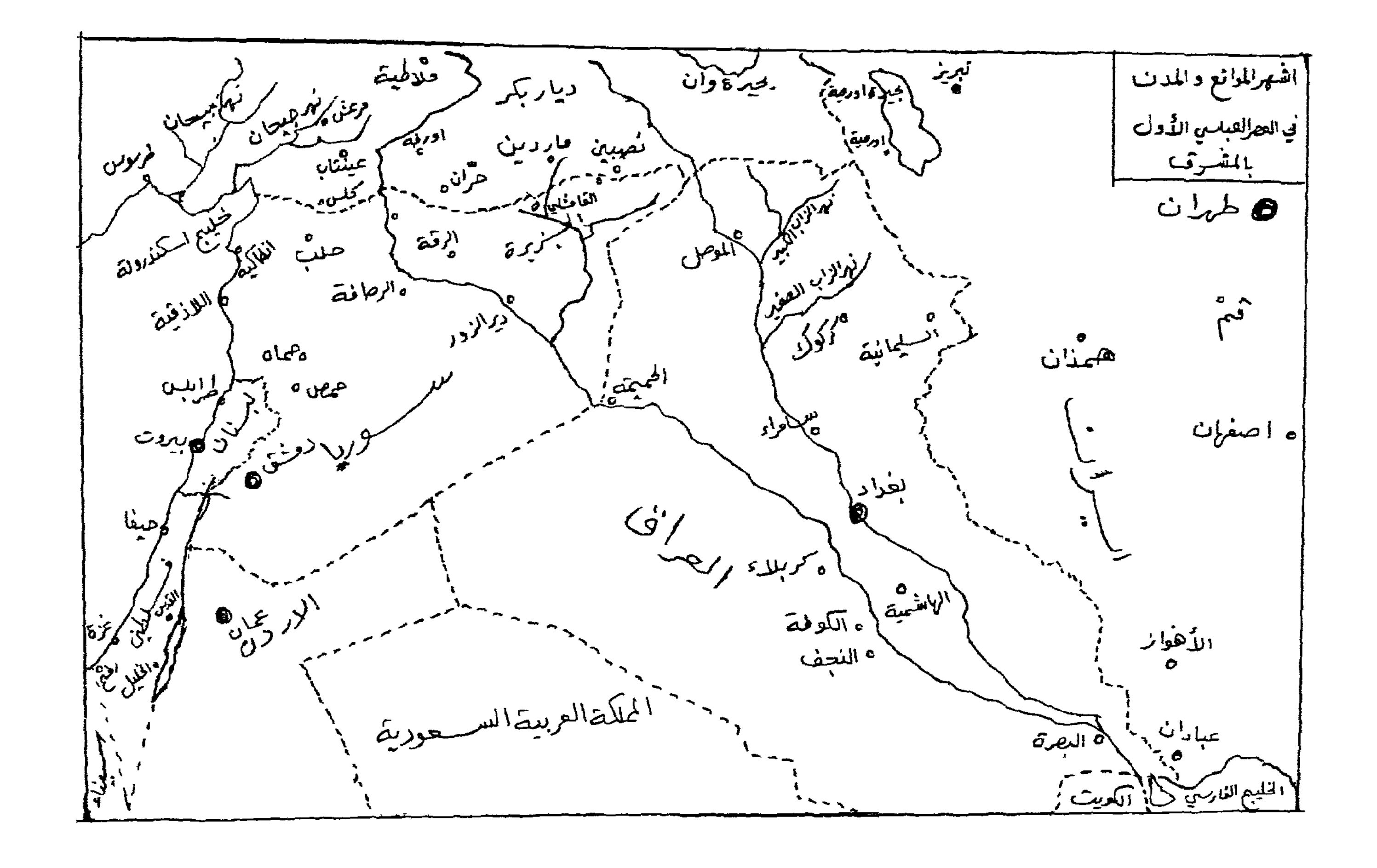
يمثل عصر الرشيد عصر نقلة في المجتمع العباسي من وجهة الاسراف في الترف، ساعد على ذلك استقرار الأمور في الدولة إلى جانب دخل الدولة الضخم حتى بلغ في عهد الرشيد أكثر من سبعين مليون دينار.

وتشير المصادر التاريخية إلى وصف الرشيد بالتدين الشديد والمحافظة على التقاليد الشرعية. فقد كان يصلي في كل يوم مائة ركعة ويتصدق بألف درهم من ماله بالإضافة إلى ما يجود به على الناس. كما أنه لا يختلف عن الحج سنوياً إلا أنه كان مشغولاً بالجهاد، حتى قيل: كان يحج عاماً ويغزو عاماً، وكان إذا حج، حج معه مائة من الفقهاء وأبنائهم، وإذا لم يحج أحج عنه ثلاثمائة رجل بالنفقة السابقة والكسوة الباهرة[١].

وإذا علمنا أنه عاش جندياً قبل خلافته، وأنه قاد في أكثر من غزوة لبلاد البيزنطيين، وحقق انتصارات باهرة جعلته معروفاً من الناس، ومحبوباً منهم ومع هذا فإنه لم يخرج عن روح العصر الذي عاش فيه والجو الذي أحاط به. فاشتهر الرشيد بأنه كان يشرب النبيذ وأنه كان يسمع الغناء في مجالس اللهو والطرب[٢]

(١) الفخري في الأداب السلطانية ١٩٣. والحافظ أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي ـ تاريخ بغداد ١٤ / ٦.

(٢) المرجع السابق والصفحة ذاتها.


أشهر المواقع والمدن
في العصر العباسي الأول
بالمشرق
طهران
قم
همذان
اصفهان
الأهواز
عبادان
الخليج الفارسي
الكويت
البصرة
الهاشمية
الكوفة
النجف
كربلاء
العراق
بغداد
سامراء
السليمانية
كركوك
نهر الزاب الصغير
نهر الزاب الكبير
الموصل
تبريز
بحيرة اورمية
اورمية
بحيرة وان
ديار بكر
نصيبين
ماردين
حران
الرقة
جزيرة
الرصافة
دير الزور
الحميمة
حلب
ملطية
اورفة
عينتاب
كلس
طرسوس
مرعش
نهر جيحان
نهر سيحان
خليج اسكندرونة
انطاكية
اللاذقية
حماه
حمص
طرابلس
لبنان
بيروت
دمشق
سوريا
حيفا
عمان
الاردن
غزة
الخليل
المملكة العربية السعودية

وبجزل العطاء عليه، لذلك قرب إليه إبراهيم الموصلي، كما جمعت مجالسه العلماء والقضاة. «فقد كان يحب الفقه والفقهاء ويميل إلى العلماء، ويحب الشعر والشعراء ويعظم في صدره الأدب والأدباء»[٣].

- أصل البرامكة:

لا بد لنا قبل الحديث عن سياسة الرشيد في فترة حكمه من معرفة أصل البرامكة وكيفية وصولهم إلى تدبير أمور الدولة العباسية، وإدارة شؤونها.

يعود أصل البرامكة إلى برمك، وهذا هو رجل مجوسي من مدينة «بلخ» قاعدة طخارستان عند نهر جيحون، حيث كان يوجد معهد كبير للمجوس - وهم عبدة النار - . وقد اشتهر البرامكة الأول بأنهم سدنة ذلك المعهد. ولما بلغت الدعوة العباسية خراسان تحمس لها خالد بن برمك، وصار من أكبر دعاتها وعند نجاح الدعوة استعان به أبو العباس الخليفة الأول بعد وفاة أبي سلمة الخلال. فاستمر خالد بن برمك حتى خلافة أبي جعفر المنصور الذي ولاه فارس ثم الموصل حتى كانت وفاته سنة ١٦٣ هـ/ ٧٧٩ م في أوائل عهد المهدي.

اختار أبو جعفر المنصور يحيى بن خالد لولاية أذربيجان سنة ١٥٨ هـ/ ٧٧٥ م ثم اختاره المهدي سنة ١٦٢ هـ/ ٧٧٨ م كاتباً ووزيراً لابنه هرون الرشيد[٤]، يدبر أمره ويرعى مصالحه، والرشيد لا يناديه إلا بـ«يا أبي». وكان يحيى يرافق الرشيد في حله وترحاله، فذهب معه سنة ١٦٣ هـ/ ٧٧٩ م. في غزوة الصائفة، ولما ولى المهدي ابنه هرون الرشيد المغرب سنة ١٦٤ هـ/ ٧٨٠ م أمر يحيى بن خالد أن يتولى ذلك عنه. وظل يحيى حتى ولاية الهادي الذي أراد أن يخلع أخاه الرشيد من ولاية العهد، لكن يحيى بن خالد حرضه على التمسك بحقه والتهرب من تلبية طلب الهادي، ولولا وفاة الخليفة المفاجىء لذهب يحيى ضحية إخلاصه للرشيد[٥].

---

(٣) تاريخ بغداد - ١٤ / ٧.

(٤) الفخري في الاداب السلطانية ١٩٨ وتاريخ ابن خلدون ٣ / ٣٢٣.

(٥) المرجع السابق، والصفحة ذاتها.

ولما تولى الخلافة هرون الرشيد كافأه بأن قلده الوزارة - وزارة تفويض - قائلاً له[٦]: «قلدتك أمر الرعية، وأخرجته من عنقي إليك، فاحكم في ذلك بما ترى من الصواب، واستعمل من رأيت، وأعزل من رأيت، وأمض الأمور على ما ترى»، ودفع إليه خاتمه.

وكان ليحيى أربعة أولاد هم: الفضل وجعفر ومحمد وموسى، برزوا جميعاً في عهد الرشيد وصاروا موضع ثقته. فبرهن الفضل عن حسن سياسة عندما ولاه الرشيد بلاد الديلم إلى أن ولاه سنة ١٧٨ هـ/ ٧٩٤ م خراسان وثغورها. فغزا ما وراء النهر. واشتهر جعفر بن يحيى بفصاحته ولباقته حتى نال إعجاب الرشيد، فولاه سنة ١٧٦ هـ/ ٧٩٢ م مصر وأفريقية والجزيرة الفراتية إلى جانب أعماله في بغداد[٧].

أما موسى بن يحيى فقد اشتهر بالشجاعة والبأس، وأظهر للرشيد الشيء الكثير من حصافة الرأي وقوة العزيمة. أما الرابع وهو محمد فقد عرف بعلو الهمة وسماحة الخلق.

وهكذا عملت أسرة البرامكة في خدمة العباسيين منذ بداءة الدعوة بأمانة، وكفاية، حسبما أوجزنا أعلاه، حتى نكبهم هرون الرشيد أحب الخلفاء إلى أنفسهم. فما هي أسباب نكبتهم؟.

نكبة البرامكة:

أجهد المؤرخون أنفسهم في تعليل نكبة البرامكة، وتقصي أسبابها الحقيقية. فمنهم من قال: أن نكبة البرامكة ليست إلا مظهراً مألوفاً من مظاهر الحكم العباسي. فالخلفاء العباسيون دأبوا منذ نشأة دولتهم على قتل الذين عملوا معهم بإخلاص وتفانوا فيها، والأمثلة كثيرة على ذلك: فقد سبق لأبي العباس أن اغتال أبا سلمة الخلال - وزير آل محمد - بعدما تفانى في تثبيت دعائم الدولة العباسية.

---

(٦) تاريخ الطبري ٨ / ٢٣٣، ومروج الذهب، ٣ / ٣٣٧، والكامل في التاريخ ٥ / ٨٣.

(٧) مروج الذهب. جـ٣، ص: ٣٦٨.

وأوقع أبو جعفر المنصور بأبي مسلم الخراساني الغني عن التعريف به، ثم أوقع بوزيره أبي أيوب المورياني[٨]، وعندما تولى المهدي الخلافة أوقع هـو الآخر بوزيره أبي عبيدالله معاوية بن يسار[٩]. لهذا، لم تكن نكبة البـرامكة على يـد الرشيد بشيء جديد لمن يعرف تاريخ العباسيين.

ويفسـر بعض المؤرخين نكبة البـرامكـة في ضـوء طبيعـة الحكم ونفسية الحكام، ذلك أن الحاكم أي حاكم يجب أن يستعين بـالمخلصين من رجالـه، ولكنه يكره أن يرى أحدهم وقد ازداد نفوذه إلى درجة تنتقص من مكانة الحاكم نفسه.

فمن الثابت أن البرامكة بلغوا في عهد الرشيد نفوذاً واسعاً ومكانة عالية. وهو ما جعل الشعراء يتسابقون إلى مدحهم والتغني بكرمهم، كما تزاحم أرباب الحاجات على أبوابهم[١٠]. هذا إلى جانب الثروة التي جمعوها والدور التي بنوها، والأثاث والرياض التي اقتنوها، عدا الخدم والحشم. والبذخ والتـرف في أمور كثيرة، حتى أزعج غناهم الرشيد نفسه فقال: «إن ضياعهم ليس لولدي مثلهـا، وتطيب نفسي لها»[١١]. كما أثار وضعهم هذا حسد الحساد، فكثرت الوشايات فيهم من اتهامهم بالزندقة حيناً، وبالعمل على نقل الخلافة إلى العلويين أحياناً.

وفريق من المؤرخين ومن بينهم الطبري[١٢] يرجع أسباب نكبة البرامكة إلى قصة العباسة أخت الرشيد. وملخص هذه القصة: أن الرشيد كانت له أخت اسمها العباسة، تتمتع بثقافة واسعة جعلت الرشيد يحب مجالسها، كما كان يحب مجالسة صديقه جعفر بن يحيى البرمكي. ولكي يجمع بينهما في مجلس واحد عقد لجعفر على أخته زواجاً صورياً كي ينظر إليها ويتحدث معها في مجلسه فقط. ولكن حدث ما لم يكن في الحسبان إذ اتصل جعفر بالعبـاسة اتصـال الازواج،

---

(٨) الفخري في الأداب السلطانية ٧٦.

(٩) الكامل في التاريخ ٥ / ٥٩.

(١٠) مروج الذهب ٤ / ١٧٣ - ١٧٤ وتاريخ الطبري ٨ / ٢٨١.

(١١) الطبري ٨ / ٢٩٤. والكامل في التاريخ ٥ / ١١٤.

(١٢) مروج الذهب ٣ / ٣٧٥ - ٣٨٠. والكامل في التاريخ ٥ / ١١٤.

فحملت منه، وولدت غلاماً خبأته في مكان بعيد ـ مكة ـ خوفاً من افتضاح أمرها أمام الرشيد. وظل الأمر مستوراً حتى وقع الخلاف بين العباسة وبعض جواريها فأشاعت احدى الجواري ما كان سراً حتى انتهت الأخبار إلى مسامع الرشيد، فأغضبه الأمر وبدأ يتحرى عن مكان الصبي في مكة عندما حج في تلك السنة، وأرسل في طلبه ومن معه. وقد سأل اللواتي ـ الحاضنات ـ معه لما أحضرنه عن قصته، فأخبرنه بمثل القصة التي تناهت إلى مسامعه من الجارية في الحج لينتقم من البرامكة.

وكانت عودة الرشيد من الحج سنة ١٨٧ هـ/ ٨٠٣ م وهو متوتر الأعصاب غاضب لما حدث من صديق عزيز على قلبه خانه مع اخته التي شغلت حيزاً كبيراً في قلبه أيضاً، فما أن وصل الأنبار حتى دخل إلى فراشه مبكراً على غير عادته، وكان عنده جعفر بن يحيى فانصرف. وما كاد ينصرف حتى أرسل الرشيد وراءه كبير خدمه ـ واسمه مسرور[١٣] ـ وأمر بضرب عنقه، ثم أمر الرشيد في الحال بالقبض على يحيى البرمكي وأولاده الباقين وجميع أفراد أسرته وصادر أموالهم كلها. وقد صلب جسد جعفر بن يحيى البرمكي ثم أحرق[١٤]. وأرسلت الكتب إلى جميع العمال في مختلف أقاليم الدولة العباسية بقبض أموال البرامكة وحجز وكلائهم. وأعلن في البلاد أن لا أمان لمن آواهم، باستثناء محمد بن خالد بن برمك وولده لأن الرشيد استثناهم لتأكد الرشيد من براءتهم. بما أتهم به بقية البرامكة.

٢ ـ وبعد فما هي السياسة التي اتبعها الرشيد خلال فترة حكمه؟

مرّ حكم الرشيد بمراحل ثلاث.

ـ المرحلة الأولى: ١٧٠ ـ ١٧٤ هـ/ ٧٨٦ ـ ٧٩١م.

تولى هرون الرشيد الخلافة ليجد أمه «الخيزران» صاحبة الكلمة المسموعة في الدولة، والناس يقصدونها لقضاء حوائجهم. وهذا النفوذ تمتعت به منذ خلافة

---

(١٣) تاريخ الطبري ٨ / ٢٩٥ ـ ومروج الذهب ٣ / ٣٧٩.

(١٤) تاريخ الطبري ٨ / ٤٩٦.

زوجها محمد المهدي. وقد استمرت تسيطر على الأمور في أول أيام خلافة ابنها موسى الهادي، وتستبد بالأمر والنهي حتى وجه لها الهادي ذلك الخطاب المشهور[١٥]الذي أوقفها عند حدها من التدخل لفترة قصيرة. وما أن تولى الخلافة ولدها هرون الرشيد حتى عاودت تدخلها في شؤون الحكم، وصارت هي صاحبة الكلمة المسموعة الأولى والأخيرة في هذه المرحلة، فكان يحيى البرمكي يعرض عليها الأمور ويصدر تعليماته بعد أخذ رأيها، وهكذا حتى كانت وفاتها سنة ١٧٤ هـ/ ٧٩٠ م.

ـ المرحلة الثانية: ١٧٤ ـ ١٨٧ هـ/ ٧٩١ ـ ٨٠٣ م.

بعد وفاة الخيزران ـ والدة الخليفة الرشيد ـ انفرد بالحكم، وصار له الرأي والتدبير، فهذا ليس بجديد لأن الرشيد في كتاب تقليده، الوزارة ليحيى البرمكي، قال[١٦]: «قلدتك أمر الرعية، وأخرجته من عنقي إليك، فاحكم في ذلك بما ترى من الصواب، واستعمل من رأيت، وأعزل من رأيت، وامض الأمور على ما ترى». فقام يحيى بأمره خير قيام، ودبر أموره أحسن تدبير. كما تولى أولاد يحيى البرمكي المناصب الكبيرة في الدولة. وصاروا موضع ثقة الخليفة حتى نكبهم الرشيد فجأة سنة ١٨٧ هـ/ ٨٠٣ م.

ـ المرحلة الثالثة: ١٨٧ ـ ١٩٣ هـ/ ٨٠٣ ـ ٨٠٩ م.

تولى الرشيد في هذه المرحلة أمور الحكم بنفسه، فنراه ينتقل في أرجاء دولته ويتجول بين الناس في الأسواق متستراً ليستمع إلى شكاوى الشاكين. ويتفقد ما هم بحاجة إليه. كما قاد الجيوش ضد الثائرين وقام بالغزوات ومهما يكن من أمر فقد واجهت الرشيد كأسلافه في خلافة العباسيين متاعب كثيرة ومنها:

ـ خروج يحيى بن عبدالله بن الحسن[١٧]:

كان العلويون وشيعتهم الذين آمنوا بأحقيتهم في الخلافة، أول من خرج

---

(١٥) الكامل في التاريخ ٥ / ٧٩.

(١٦) تاريخ الطبري ٨ / ٢٣٣. ومروج الذهب ٣ / ٣٣٧

(١٧) تاريخ الطبري ٨ / ٢٤٢ ـ ٢٤٣. والكامل في التاريخ ٥ / ٩٠.

على الخليفة الرشيد، لأنه عز عليهم ما حل بهم من قتل وتشريد على أيدي أقربائهم العباسيين. هذا مع العلم بأن الرشيد حاول أن يسترضيهم ليأمن ثورتهم في بداية خلافته، فرفع الحجز المفروض عمن كان منهم ببغداد وسمح بمغادرتها إلى المدينة. لكن هذه السياسة لم تنفع في بلسمة الجراح الثخينة. فخرج عليه يحيى بن عبدالله بن الحسن ـ الذي كان نجا من «موقعة فخ» على عهد الهادي كما ذكرنا في حينه ـ فذهب إلى بلاد الديلم وهناك كثر أنصاره وقصده كثيرون حتى اشتدت شوكته، وأعلن خروجه على الرشيد.

ولما بلغ النبأ الخليفة وهو يشرب النبيذ، ترك الشراب وأمر لقتاله الفضل بن يحيى البرمكي الذي استعمل مع يحيى بن عبدالله اسلوب التهديد والترغيب. حتى قبل يحيى بالصلح على أن يكتب له الرشيد بخطه أماناً[١٨]. فكتب الرشيد الأمان وأشهد عليه القضاة والفقهاء ومشايخ بني هاشم، وأرسله في جملة هدايا إلى يحيى الذي استأمن وقدم إلى بغداد، فاستقبله فيها الرشيد، وأجرى له الأرزاق، وأنزله منزلاً سرياً. لكنه وجد من وشى يحيى بن عبدالله عند الرشيد على أنه أخذ يدعو لنفسه مما جعل الخليفة يغضب عليه بعد إكرامه وينقض الأمان الذي أعطاه له ويتخلص منه.

ثم أن الرشيد غير سياسته تجاه العلويين نتيجة لذلك، فأنزل أشد العقوبات بمن اتهم بالميل إليهم، وأخذ موسى بن جعفر الصادق المعروف بـ«الكاظم»[١٩] إلى بغداد فأقام فيها إلى أن مات.

ـ خروج الخوارج:

والمشكلة الثانية التي واجهت الرشيد في الداخل، هي مشكلة تجدد ظهور الخوارج الذين أخذوا على الخلفاء مأخذ الإستبداد في السلطة والخروج عما توجبه الأوامر الشرعية من كتاب الله وسنة نبيه. فخرج الوليد بن طريف الشاري الشيباني سنة ١٧٨ هـ/ ٧٩٤ م[٢٠] المقيم في الجزيرة بنواحي نصيبين. وبعد أن نجح

(١٨) تاريخ الطبري ٨ / ٢٤٢ ـ ٢٤٣. والكامل في التاريخ ٥ / ٩٠.
(١٩) الفخري في الأداب السلطانية ١٩٦.
(٢٠) الكامل في التاريخ ٥ / ٩٧.

الوليد بن طريف الشيباني في إنزال الهزيمة بعدة جيوش كان قد أرسلها الخليفة الرشيد لقتاله كثر مؤيدوه وازداد أتباعه. لكن جيوش الرشيد تمكنت في سنة ١٧٩ هـ/ ٧٩٥ م من هزيمة الوليد الشيباني في موقعة «الحديقة» قرب الأنبار، فقطع رأسه وأرسل إلى الخليفة الرشيد.

ـ ثورة رافع بن ليث بن نصر بن سيار:

ولى الرشيد علي بن عيسى بن ماهان[٢١] بلاد خراسان، فأخذ هذا الوالي يرهق الأهالي في جمع الأموال والتشدد بالمظالم، وبالمقابل يرسل إلى الخليفة ببغداد مزيداً من الأموال والهدايا ليرضى عنه. لكن الأهالي وقد ضجروا من سياسة علي بن عيسى بن ماهان شكوا أمرهم إلى الرشيد. فخرج الخليفة إلى الري ليتحقق من ذلك بنفسه. لكن علي بن عيسى وقد علم بالأمر أسرع إلى ملاقاته بالهدايا الثمينة، كما أغدق على رجال حاشيته، فعاد الرشيد واستأنف الوالي سيرته الأولى مع الأهالي.

وتشاء الصدف أن يقوم رجل من سمرقند يدعى رافع بن ليث بن نصر بن سيار[٢٢] بالتغرير بامرأة غنية والزواج منها بعد أن طالت غيبة زوجها. ولما عاد زوجها ووجد ما اقترفه ابن سيار، رفع الأمر إلى الخليفة الرشيد الذي أرسل إلى علي بن عيسى بن ماهان ـ والي خراسان ـ يأمره أن يفرق بين رافع وزوجة الرجل وأن يعاقبه على فعلته تلك.

احتاط رافع بن سيار للأمر واستنجد بولد علي بن عيسى ليتوسط عند أبيه، فكان له ما أراد وأمنه ورده إلى بلده سمرقند شريفاً معززاً. هناك في سمرقند ثار لنفسه وقتل عامل المدينة العباسي. فالتف حوله كثير من أبناء سمرقند وأيدوه في ثورته. وفي الوقت نفسه هجم الناس على منزل علي بن عيسى بن ماهان واستولوا على ما فيه من أموال كثيرة. عندها رأى الرشيد أن يستدرك قبل استفحال الأمور

---

(٢١) تاريخ الطبري ٨ / ٣٠٩. الكامل في التريخ جـ ٥ / ١٠٢.

(٢٢) تاريخ الطري ٨ / ٣١٩ ـ ٣٢٠ والكامل في التاريخ ٥ / ١٢٢ وتاريخ ابن خلدون ٣ / ٢٢٨ ـ ٢٢٩

ويعزل علي بن عيسى، ثم ينتدب من يقبض عليه ويصادر أمواله. فخلص الناس من ظلمه، لكنه لم يتمكن من القضاء على رافع بن ليث بن نصر بن سيار بالرغم من خروج الرشيد إليه بنفسه لأنه مات وهو في طريقه إليه.

٣ ـ سياسة الرشيد الخارجية.

تمثلت سياسة الرشيد الخارجية بالإعتراف بالأمر الواقع فيما يخص دولة بني أمية بالأندلس. وحتى يمنع توسع دولة الأدارسة العلويين في المغرب لجأ إلى إقامة وتأييد دولة الأغالبة في تونس لتكون حاجزاً بين الدولة العباسية ودولة الأدارسة.

أما بالنسبة إلى الفرنجة في فرنسا، فقد قامت على أساس من الصداقة وتبادل الهدايا والسفارات بسبب العداء المشترك بينهما وبين البيزنطيين من جهة، وبينهما وبين الأمويين في الأندلس من جهة ثانية.

فانصرف الرشيد إلى تأمين حدود دولته مع بيزنطية بالعرض العسكري من ناحية لإرهابهم وبالغزو لكسب شرف الجهاد وثوابه من ناحية أخرى. فقامت القيروان في عهده سنة ١٧٥ هـ/ ٧٩١ م بقيادة عبد الرحمن بن عبد الملك بن صالح، في حين غزا الرشيد نفسه سنة ١٨١ هـ/ ٧٩٧ م فافتتح حصن الصفصاف عنوة، والذي قلل من الغزوات قبول الإمبراطورة «أيرين» ـ التي كانت تحكم باسم ابنها الصغير ـ بدفع الجزية للرشيد مقابل عدم الإعتداء على أراضيها[٢٣] ولكن حدث أن نقض العهد الامبراطور نقفور الأول سنة ١٨٦ هـ/ ٨٠٢ م، وامتنع عن دفع الجزية، وأرسل رسالة إلى الرشيد جاء فيها[٢٤]:

«من نقفور ملك الروم إلى هرون ملك العرب.

أما بعد فإن الملكة التي كانت تحكم قبلي أقامتك مقام الــرخ، وأقامت نفسها مكان البيدق، فحملت إليك من أموالها ما كنت حقيقاً بحمل أمثاله إليها.

---

(٢٣) السيوطي، الإمام الحافظ حلال الدين عبد الرحمن تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد. الطبعة الرابعة ١٣٨٩ هـ/ ١٩٦٩ م القاهرة ص. ٢٨٨.

(٢٤) تاريخ الطبري ٨ / ٢٦٨. الكامل في التاريخ ٥ / ١١٨. والسيوطي تاريخ الخلفاء ٢٨٨.

لكن ذلك ضعف النساء بما يقع به المبادرة لك، وإلا فالسيف بيننا وبينك».

فلما قرأ الرشيد الكتاب استشاط غضباً وكتب له جواباً جاء فيه:

«بسم الله الرحمن الرحيم.
ومن هرون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم.
قد قرأت كتابك والجواب ما تراه دون أن تسمعه والسلام».

ثم انطلق الرشيد على رأس جيش كبير بلغ عدده أكثر من مائة وثلاثين ألفاً، توغل به في الممتلكات البيزنطية حتى وصل إلى مدينة «هرقلة»، فاستولى عليها بالقوة سنة ١٩٠ هـ/ ٨٠٦ م[٢٥]. واستمرت بعد ذلك الغزوات الصائفة بقيادة كبار قادته أمثال شرحبيل بن معن بن زائدة ويزيد بن مخلد وداود بن عيسى حتى اضطر الأمبراطور نقفور في نهاية الأمر إلى طلب الصلح بدفع الجزية والتعهد بعدم ترميم الحصون التي دمرها الرشيد.

٤ ـ ولاية العهد:

كان الصراع بين الحزب العربي والحزب الفارسي على أشده في أيام الرشيد وهذا الصراع استمرار للأوضاع التي كانت سائدة في أيام الأمويين، عندما جعلوا السيادة للعرب. ولم يساووا بين العرب والموالي، الأمر الذي استاء منه الفرس وأخذوا يتعصبون لأنفسهم وأصلهم. ولما حاربهم الأمويون لم يسعهم إلا أن جعلوا هذه النزعة دعوة سرية، ثم وجدوا في الدعوة العباسية ستاراً وحافزاً لهم. لكن العنصر العربي لم يستسلم لسيطرة الفرس في ظل الدولة العباسية، لذلك حاولوا أن يجمعوا كلمتهم، ويوحدوا صفوفهم ويصفوا خلافات القبائل العربية بين بعضها.

وبالرغم من أن الرشيد أنجب المأمون من جارية فارسية تدعى «مراجل» في ربيع الأول سنة ١٧٠ هـ/ ٧٨٦ م، وأنجب الأمين من ابنة عمه زبيدة بنت جعفر بعده بأربعة أشهر في شوال من السنة نفسها ١٧٠ هـ. فقد رضخ الرشيد لضغط الحزب العربي المتمثل في زوجته «زبيدة»، وأمه الخيزران التي يعود لها الفضل

(٢٥) تاريخ الطبري ٨ / ٢٦٨. الكامل في التاريخ ٥ / ١١٨، والسيوطي. تاريخ الخلفاء. ٢٨٨.

في إقناعه بالزواج من ابنة عمه، وإلى حاجبه الفضل بن الربيع، وعهد بولاية عهده من بعده إلى ابنه الأمين ١٧٥ هـ/ ٧٩١ م[٢٦].

من جهته، الحزب الفارسي، وعلى رأسه البرامكة، لم يرضوا بهذا الوضع، فسعوا لدى الرشيد حتى تمكنوا من إقناعه في جعله يعهد بولاية العهد إلى ولده المأمون بعد الأمين سنة ١٨٢ هـ/ ٧٩٨ م. وعلى أن يتولى المأمون ولاية المشرق بعد وفاة أبيه[٢٧] وبمعنى آخر تقسيم الخلافة إلى خلافتين. وتكرس هذا التقسيم سنة ١٨٦ هـ/ ٨٠٢ م عندما حج الرشيد ومعه ولداه الأمين والمأمون، بكتابته مواثيق الإخلاص لبعضهما على ولديه. وفي هذه المواثيق أن يترك الأمين للمأمون كل ما عهد إليه من بلاد المشرق، ثغورها، وكورها، وجندها، وخراجها، وبيوت أموالها، وصدقاتها، وعشورها، وبريدها. وقد سجلت هذه المواثيق وعلقت في الكعبة[٢٨] حرصاً على زيادة قدسيتها وقوة تنفيذها، كما كتب منشوراً عاماً بهذا المعنى.

ثم توفي الرشيد وهو في طريقه إلى خراسان للقضاء على ثورة رافع بن الليث بن نصر بن سيار ـ كما أشرنا إلى ذلك ـ بمدينة طوس[٢٩] ودفن بها في جمادى الآخر سنة ١٩٣ هـ/ ٨٠٩ م.

٦ ـ محمد الأمين: ١٩٣ ـ ١٩٨ هـ/ ٨٠٩ ـ ٨١٣ م.

تولى محمد الأمين الخلافة بعد وفاة والده الرشيد سنة ١٩٣ هـ/ ٨٠٩ م والصراع بين العرب والعجم على أشده، لذلك مرت خلافته القصيرة بمرحلتين:

- مرحلة دبلوماسية ١٩٣ ـ ١٩٥ هـ/ ٨٠٩ ـ ٨١١ م.
- مرحلة حرب ١٩٥ ـ ١٩٨ هـ/ ٨١١ ـ ٨١٣ م.

---

(٢٦) تاريخ الطبري ٨ / ٢٤٠ ومروج الذهب جـ ٣ / ٣٥١ والكامل في التاريخ جـ ٥ / ٨٨.
(٢٧) مروج الذهب ٣ / ٣٥٢ ـ ٣٥٣. والسويطي تاريخ الخلفاء ٢٩٠.
(٢٨) مروح الذهب ٣ / ٣٥٣ ـ ٣٥٤. والكامل في التاريخ جـ ٥ / ١٣٠.
(٢٩) الكامل في التاريخ ٥ / ١٢٩ ـ ١٣٠.

المرحلة الدبلوماسية:

اتخذ الصراع بين الأخوين في هذه المرحلة صورة المراسلات والسفارات المتبادلة حول العهد المعلق في الكعبة. ذلك أن المأمون رأى وفقاً للعهد ومواثيقه السابقة أن يستقل بشؤون خراسان خلال حكم أخيه الأمين. أما الأمين فقد رأى بحكم وضعه كخليفة، أن من حقه السيطرة التامة على كامل أجزاء الدولة، في المشرق، كما في المغرب، وإن طلب أخيه المأمون الاستقلال يعني إقامة دولة ضمن الدولة، وهذا غير جائز في أصول الحكم ورد الأمين على أخيه المأمون بأن ولايته على خراسان لا تعني اقتطاع هذا الجزء الهام عن جسم الدول وأصر على وضع نظام بريد(٣٠) تابع له في خراسان، ليطلع عن طريقه أولاً بأول على ما يجري في خراسان من أمور بحيث تظل مرتبطة بقلب الخلافة، ويظل الخليفة مشرفاً على أمورها مطلعاً على خفاياها.

وطالت عملية الأخذ والرد بيين الأخوين. وكثر تبادل المراسلات بينهما(٣١) مع إصرار كل طرف على التمسك بموقفه في عناد وإصرار. وقد وقف خلف الخليفة الأمين وزيره الفضل بن الربيع ممثلاً الحزب العربي يشير عليه أن يستدعي أخاه المأمون إلى بغداد ليكون تحت رقابته فيحرم جنده في خراسان من زعامته. ووقف خلف المأمون الفضل بن سهل ممثلاً الحزب الفارسي الذي يوأزره ويشدد من عزمه على الثبات على موقفه وعدم الذهاب إلى بغداد بحجة أن خراسان في حاجة إليه، وأن أوضاعها تستدعي بقاءه فيها.

٣ ـ المرحلة الثانية أو مرحلة الحرب.

إزاء تمسك كل واحد من الأخوين بموقفه، لم يبق إلا الإلتجاء إلى القوة. فإذا بالأمين يصدر أوامره في أوائل سنة ١٩٥ هـ/ ٨١٠ م بوقف الدعاء للمأمون بعده، وأعلن البيعة لابنه موسى ولقبه «الناطق بالحق» ونقش اسمه على السكة، ثم أرسل إلى مكة من سرق من الكعبة المواثيق وأحرقها. وتجاه هذا الأمر رأى

(٣٠) الأخبار الطوال: ٢٩٣ ـ ٢٩٦ وتاريخ الطبري ٨ / ٣٧٤ ـ ٣٨٧. ولم يكن البريد عند العباسيين كما هو اليوم، بل كان بريداً خاصاً بالدولة لمعرفة ما يجري في الأقاليم.

(٣١) الأخبار الطوال: ٢٩٤ ـ ٢٩٥. وتاريخ الطبري ٨ / ٣٨٨ ـ ٣٨٩.

المأمون أن يستعد للحرب، فأعد جيشاً كبيراً وحشـده على حدود خـراسان في منطقة الري، وولى قائدين من أتباعه المخلصين. أحدهما طاهر بن الحسين الذي أخذ نجمه يتصاعد منذ ذلك الوقت. وثانيهما هرثمة بن أعين. واختار الأمين على رأس جيشه علي بن عيسى بن ماهان الخبير بأحوال خراسان منذ وليها في عهد الرشيد(٣٢).

لكن علي بن عيسى بن ماهان استخف بأمر طاهر بن الحسين بوصفه قائداً حديثاً غير مجرب في الأمور العسكرية. فتقدم علي بن عيسى على جيش الأمين نحو الري دون استعداد وتأهيـل لجيشه. فحلت الهزيمـة بـه على يد طـاهر بن الحسين، وسقط علي بن عيسى نفسه قتيلاً في المعركة سنة ١٩٥ هـ/ ٨١١ م. ثم كتب طاهر بن الحسين إلى الفضل بن سهل يخبره ويقول له(٣٣). «كتبت إليك ورأس علي بن عيسى في حجري وخاتمه في يدي، والحمد لله رب العالمين». فلما وصل الكتاب إلى الفضل بن سهل وقرأه، نهض مسرعاً إلى المأمون وسلم عليه بـ «أمير المؤمنين»، ثم أرسل الى طاهر بالرجال وبالقواد ولقبه «بذي اليمنين وصاحب حبل الدين»(٣٤).

أرسل الأمين جيوشاً إلى الري، وقد هاله خبر هزيمة جيشه وانتصار جيش المأمون، فلقيت هذه الجيوش المصير نفسه الذي لقيه جيشه السابق بقيادة علي بن عيسى بن ماهان، الأمر الذي شجع المأمون والفضل بن سهل على الإنتقال من الدفاع إلى الهجوم، وأعدا جيشين لمهاجمة بغداد من جهتين، يتولى قيادة أحدهما طاهر بن الحسين، والآخر يتولى قيادته هرثمة بن أعين، على أن يهاجما بغداد. الأول من ناحية الغرب، والثاني من ناحية الشرق. ولما كانت الحروب السابقة قد استنفـدت موارد خزينة الأمين، كما انهارت معنويات من بقي من جيشه حتى أن العديد من رجاله انضموا أثناء حصار بغداد إلى الخصوم المهاجمين، بينما صمد أهل بغداد وخاصة منهم جماعة العيارين أو الفتيان(٣٥). فذكر أن قائداً خراسانياً،

(٣٢) تاريخ الطبري ٨ / ٣٩٠ ـ ٤١٢. والكامل في التاريخ جـ ٥ / ١٤٣.

(٣٣) الكامل في التاريخ ٥ / ١٤٦ ـ ١٤٧.

(٣٤) الكامل في التاريخ ٥ / ١٥٢ ـ ١٥٣.

(٣٥) العيارون أو الفتيان أو الشطار أو الزعار أو الحرافيش أسماء أطلقت على جماعات الفتيان التي

من قواد طاهر بن الحسين، المعروف بشجاعته وبأسه، نظر إلى جماعة العيارين والفتيان، وجلهم من العراة، لا سلاح معهم، وقال لأصحابه: ما يقاتلنا من أرى، استهانة بأمرهم واحتقاراً لهم، فقيل له: نعم هؤلاء الذين ترى هم الآفة. فقال أفّ لكم حين تختبئون عن هؤلاء وتهربون منهم، وأنتم في السلاح الظاهر، والعدة والقوة، ولكم مالكم من الشجاعة والنجدة، وما عسى أن يبلغ كيد من أرى من هؤلاء ولا سلاح معهم ولا عدة لهم ولا أجنة تقيهم .فأوتر قوسه وتقدم. وأبصره بعضهم فقصد نحوه وفي يده باريه مغيرة، وتحت إبطه مخلاة فيها حجارة. فجعل الخراساني كلما رمى بسهم إستتر منه العيّار فوقع في باريته أو قريباً منه فيأخذه فيجعله في موضع من باريته. وجعل كلما وقع سهم أخذه، وصاح: دانق: أي ثمن النشابة دانق أحرزه. ولم يزل كذلك حتى أنفذ الخراساني سهامه، ثم حمل على العيّار ليضربه بسيفه. فأخرج الأخير من مخلاته حجراً، فجعله في مقلاع ورماه فما أخطأ به عينه، ثم ثناه بآخر فكاد يصرعه عن فرسه لولا تحاميه ففر هارباً من أمامه وهو يقول: ليس هؤلاء بأنس (ناس)[٣٦]. لكن الحصار الذي فرضته جيوش المأمون، واشتداد الجوع على البغداديين، اضطر الأمين إلى الإستسلام في نهاية الأمر. لكن جنود المأمون الخراسانيين هجموا على الأمين وقتلوه في المحرم سنة ١٩٨ هـ/ ٨١٣ م. وكتب طاهر بن الحسين إلى المأمون يبشره بالنصر ويوضح له الأسباب التي جعلته يأمر بقتله الأمين.

وهكذا انتهت خلافة الأمين، التي كانت مليئة بالفتن والشرور كما اشتعلت نار الثورة في عهد الأمين ببلاد الشام، على يد علي بن عبدالله بن خالد بن يزيد بن معاوية ـ المعروف بالسيفاني ـ الذي دعا لنفسه واحتل دمشق وأعمالها بعد أن طرد عامل الأمين. وكاد أن يستقل بالشام لولا النزاع الذي قام بين اليمنيين والمغربيين وحال دون ذلك، ولكن هذه البلاد بقيت مسرحاً للفوضى ما يقرب من عامين.

عصت الأباء أول الأمر وعاشت في الخلاعة، وقد اتصفوا بالحيلة والدهاء والخبث والذكاء والقوة. والعيار لغوياً معناه الكثير التجول والطواف، الذي يتردد بلا عمل. انظر مادة (عير) في المعاجم اللغوية. وللمزيد من التفاصيل يراجع سلسلة عالم المعرفة الكويت. الكتاب رقم ٤٥ بعنوان: حكايات الشطار والعيار في التراث العربي أيلول ١٩٨١.

(٣٦) تاريخ الطبري ٨ / ٤٥٧ ـ ٤٥٨.



الفصل السادس

خلفاء العصر العباسي الأول (٤)

٧ ـ عبدالله المأمون: ١٩٨ ـ ٢١٨هـ/ ٨١٣ ـ ٨٣٢ م

١ ـ شخصيته:

بويع عبدالله المأمون بالخلافة سنة ١٩٨ هـ/ ٨١٣ م وهو بالري. وقد ظل بخراسان ولم يأت إلى بغداد العاصمة إلا سنة ٢٠٤ هـ/ ٨١٩ م[١]. واختلف المأمون عن أخيه الأمين في أنه لم يستسلم للذاته وشهواته، بل انصرف إلى العلم والأدب والفلسفة، وشغف بالجدل في المسائل الفقهية والدينية. قال عنه ابن طبا طبا[٢] «أنه كان من عظماء الخلفاء ومن عقلاء الرجال، وله اختراعات كثيرة في مملكته، ومنها أنه كان أول من فحص منهم علوم الحكمة، وحصل كتبها، وأمر بنقلها إلى العربية وشهرها، وحل أقليدس، ونظر في علوم الأوائل، وتكلم في الطب، وقرب أهل الحكمة...» ولكن هذا لم يمنع المأمون عن شرب النبيذ والاستماع إلى الغناء والطرب وبخاصة غناء اسحق بن إبراهيم الموصلي الذي قربه إليه، فأدى ذلك إلى انتشار جو من اللهو والإستمتاع بالغناء والشراب والملذات سيطر على أهل بغداد في عهد خلافة المأمون.

٢ ـ سياسة المأمون الداخلية:

إذا كان المأمون قد استطاع بسياسته المرنة أن يجمع بين المواقف المتناقضة، وأن يرضي جميع الأحزاب، ويتغلب على معظم الصعاب. لكن بقاءه

(١) مروج الذهب٣ / ٤٤٢. والسيوطي. تاريخ الحلفاء.٣٠٧.

(٢) الفخري في الأداب ،سلطانية ٢١٦.

بعيداً عن مركز خلافته بغداد، وتفويضه إدارة البلاد فيها إلى وزيره الفضل بن سهل وأخيه الحسن بن سهل الذي ولاه المأمون على العراق وتزوج من ابنته بوران[٣]، تسبب في بعض الأزمات، وقيام الثورات ضده، خاصة وإن عهده قد حفل بالعداء بين الشيعة والسنة، وبين العرب والعجم، فكانت أولى الثورات:

أ ـ ثورة عربية عراقية[٤]:

كان لتباطؤ المأمون في المجيء إلى بغداد من خراسان ـ نحواً من ست سنوات ـ إطلاق الشائعات، فمن قائل:

ـ إن المأمون خشي أهل بغداد أنصار أخيه الأمين.

ـ إن المأمون استهدف نقل عاصمة الخلافة من بغداد إلى «مرو» على مقربة من أنصاره في خراسان ـ نشأ وتربى على حب الفرس، وبويع بالخلافة وهو بخراسان، وتزوج فارسية ـ .

ـ إن الفضل بن سهل غلب على المأمون وأنزله قصراً حجبه فيه عن أهل بيته، ووجوه قواده، وإنه يبرم الأمور على هواه.

فغضب لهذه الشائعات، أهل العراق من بني هاشم، ووجوه الناس، وأنفوا أن تخضع الخلافة للفرس ونفوذهم، وأعلنوا الثورة العربية في العراق من مدينة الكوفة. وتزعم هذه الثورة أبو السرايا السري منصور الشيباني[٥]، أحد أكبر أعوان هرثمة بن أعين. فاستولى رجاله على الكوفة، وهزم أبو السرايا جيش الحسن بن سهل الذي أرسله لمحاربته، واستولى على ما معه من مال وسلاح ودواب سنة ١٩٩ هـ/ ٨١٤ م. وتوالت انتصاراته على جيوش الحسن بن سهل تباعاً، كما عمل على إخضاع البصرة والقادسية إلى نفوذه، وبدأ بعزل من شاء من العمال وتولية من شاء منهم، وتسيير الأمور.

---

(٣) مروج الذهب ٣ / ٤٤٣ والسيوطي. تاريخ الخلفاء ٣٠٨.

(٤) تاريخ الطبري ٨ / ٥٥٥ الكامل في التاريخ ٥ / ١٨٤

(٥) تاريخ الطبري ٨ / ٥٣٤ ـ ٥٣٥. ومروج الذهب جـ ٣ / ٤٣٨ ـ ٤٤٠.

لم يجد الحسن بن سهل بدآ، إزاء ذلك، من استرضاء هـرثمة بن أعين الذي سبق له وطرده من العراق وأمره بالذهاب إلى خراسان تخلصاً منه. ولم يزل الحسن بن سهل يتلطف معه ويسترضيه للحضور ومحاربة أبي السرايا السري بن منصور الشيباني، حتى حضر هرثمة واستولى على الكوفة من عمال أبي السرايا، ثم أنزل هزيمة كبرى بأبي السرايا نفسه، واضطره إلى الفرار. ودخل هرثمة إلى الكوفة سنة ٢٠٠ هـ/ ٨١٥ م ولم يلبث أن ألقى القبض على أبي السرايـا أثناء هربه، وضرب عنقه[٦].

ب ـ ثورة العلويين:

انتهز العلويون، فرصة قيام الثورة في العراق، فساهموا فيها بقصد الإطاحة بحكم بني العباس. لذلك ما أن تم ضرب ثورة أبي السرايا في الكوفة حتى جاء دور العلويين في الحجاز، فقد كان أبو السرايا قد ولى أحد أحفـاد الحسين بن علي ـ حسين بن حسن بن علي بن الحسين بن علي[٧] ـ مكة. فسارع هذا الأخير إلى طرد والي العباسيين منها، وأمر بتجريد الكعبة من الثياب التي عليهـا، ثم كساها ثوبين بعث بهما أبو السرايـا، مكتوب عليهـا[٨]: أمر بـه الأصفر بن أبي الأصفر أبو السرايا داعية آل محمد لكسوة بيت الله الحرام، وان يطرح عنه كسوة الظلمة من ولد العباس ليطهر من كسوتهم، وكتب سنة ١٩٩ هـ/ ٨١٤ م ثم أخذ يلاحق بني العباس وأتباعهم في مكة، فهاجمهم في ديارهم، وسلبهم أمـوالهم وشردهم في البلاد.

وما أن وصل خبر مقتل أبي السرايا وتشريد من بالكوفة والعراق من العلويين إلى مكـة حتى اجتمع من بهـا من العلويين، وأتباع أبي السـرايـا، وطلبـوا من محمد بن جعفر الصادق[٩] أن يبايعوه بالخلافة، فقبـل بعد تـردد. وأقبل عليـه

(٦) تاريخ الطبري ٨ / ٥٣٤ ـ ٥٣٥. ومروح الذهب ٣ / ٤٣٨ ـ ٤٤٠.
(٧) تاريخ الطبري ٨ / ٥٤٠، ومروج الذهب. جـ٣ / ٤٤٠.
(٨) تاريخ الطبري ٨ / ٥٣٦.
(٩) تاريخ الطبري ٨ / ٥٣٧ ـ والكامل في التاريخ ٥ /١٧٧.

الناس يبايعونه، وأسموه «أمير المؤمنين». لكن الحقيقة كانت غير ذلك. إذ استمر حسين بن حسن ورجاله يعبثون في مكة فساداً، حتى انتقلوا من الإعتداء على الأموال إلى الإعتداء على الأعراض.

فما كان من هرثمة بن أعين إلا أن أرسل جيشاً للقضاء على تلك الحركة في مكة، قاتل العلويين حتى هزمهم. لكن محمد بن جعفر الصادق طلب الأمان له ولمن معه حتى يخرجوا من مكة. ويذهبوا حيث شاؤوا. فأجيبوا إلى طلبهم، وأمهلوا ثلاثة أيام. دخلت بعد ذلك جيوش العباسيين مكة وتفرق العلويون في كل مكان

لم تقتصر حركة العلويين على مكة والحجاز، بل تعدتها إلى اليمن حيث خرج إبراهيم بن موسى بن جعفر[10]، واستولى على صنعاء بعد أن انسحب منها الوالي العباسي. وقد أساء إبراهيم بن موسى السيرة وتطرف مع الناس حتى غلب عليه لقب «الجزار»[11] لكثرة من قتل منهم، ووجه سنة ٢٠٠ هـ/ ٨١٥ م بعض أتباعه خلف قافلة للحج بإمرة أبي إسحق بن هرون الرشيد ـ شقيق المأمون نفسه ـ فاعتدوا على الحجاج والتجار عند محلة بستان «ابن عامر»، وسلبوا التجار أموالهم وملابسهم[12] فلما بلغ أبو إسحق ما فعله رجال إبراهيم بن موسى بن جعفر بالحجاج، أرسل جيشاً إلى اليمن أدبهم وأسر الكثير من العلويين وشردهم. فانتهت بذلك الحركات العلوية باليمن.

٣ ـ المأمون واختيار علي الرضا لولاية عهده:

كان المأمون ـ اتهمه البعض بالتناقض والتذبذب في سياسته ـ قد تصرف تصرفاً غريباً عندما بايع بولاية العهد في سنة ٢٠١ هـ/ ٨١٦ م الإمام العلوي «علي الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق[13] ـ الإمام الثامن عند الشيعة

(١٠) تاريخ الطبري ٨ / ٥٣٦ تاريخ الطبري ٨ / ٥٤١.

(١١) تاريخ الطبري ٨ / ٥٣٥ ـ ٥٣٦.

(١٢) تاريخ الطبري ٨ / ٥٥٤.

(١٣) علي الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق، اشتهر والده ـ موسى الكاظم بزهده وورعه، ولقب بالكاظم لأنه كان يحسن إلى من أساء إليه، وأن جده جعفر الصادق حول الإمامة من بعده إلى ابنه =

الإمامية الاثني عشرية ـ ولقبه بالرضا من آل محمد، وزوجه ابنته أم حبيبة، وأمر جنوده بطرح السواد ـ شعار العباسيين ـ ولبس الثياب الخضراء ـ شعار العلويين ـ . وكتب بذلك إلى سائر أنحاء الخلافة. فأثارت خطوة المأمون هذه تساؤلات كثير من الباحثين عن دوافعها، ومال أغلبهم إلى القول بأن الفضل بن سهل كان وراء هذه الحركة، لأن الفرس يفضلون بأن يكون إمام المسلمين علوياً. هذا فضلاً عن أن المأمون نفسه كانت لديه نزعة فارسية علوية، فقد كانت أمه وزوجته فارسيتين.

ومهما يكن، فإن هذه الخطوة التي أقدم عليها المأمون، وهو في مرو بخراسان زادت من حدة الإنقسام في بغداد بين الناس، ولا سيما عندما بلغهم خبر مقتل القائد هرثمة بن أعين الذي ما أن انتهى القضاء على الفتن الداخلية حتى اتجه إلى مرو ليطلع المأمون على حقيقة ما يجري في العراق واستياء الناس من الحسن بن سهل، فما كان من الفضل بن سهل إلا أن أسرع وأفهم المأمون قبل وصوله بأنه ـ هرثمة ـ هو المسؤول عن الإضطرابات التي حدثت بالبلاد. وليس أدل على ذلك من ثورة أبي السرايا لأن هذا الأخير هو أحد رجال هرثمة. فصدق المأمون كلام الفضل بن سهل وأمر هرثمة بالعودة وتولي أمر الشام والحجاز، لكن هرثمة ـ وهو في طريقه ـ رفض العودة قبل أن يرى أمير المؤمنين ويخبره حقيقة الأمر.

ولما وصل هرثمة إلى مرو خشي أن يخفي الفضل بن سهل عن المأمون خبر قدومه فأمر بضرب الطبول حال دخوله كي يسمعها المأمون. ولما سمعها الخليفة سأل فقيل له: «هرثمة جاء يبرق ويرعد». فدخل هرثمة على المأمون وقد ثار غضبه فأمر بضربه ثم حبسه، إلى أن قتل بعد أيام.

قسم من أهالي بغداد قال على أثر إقدام المأمون لعلي الرضا بولاية عهده: نبايع ونلبس الثياب الخضراء، وقال القسم الآخر(١٤): بل نبايع ولا نلبس الثياب

= موسى الكاظم بدلاً من ابنه إسماعيل بسبب اتهام إسماعيل بشرب الخمر. وهذا التحول أدى إلى انقسام الشيعة إلى إسماعيلة وأثني عشرية. وعن العهد. تاريخ الطبري ٨ / ٥٥٤.

(١٤) تاريخ الطبري ٨ / ٥٥٤ ـ ٥٥٥.

الخضراء ولا نخرج هذا الأمر من ولد العباس، وإنما هذا دسيس من الفضل بن سهل. وحسماً لكل خلاف، رأى أهل بغداد مبايعة إبراهيم بن المهدي[١٥] ـ عم الخليفة المأمون ـ بالخلافة. فخلعوا المأمون في أول المحرم سنة ٢٠٢ هـ/ ٨١٧ م، فدانت لإبراهيم بن المهدي، الكوفة وسواد العراق كله، وعسكر بالمدائن. وولى الجانب الشرقي منها العباس بن الهادي، والجانب الغربي منها إسحق بن الهادي.

وبالرغم من الحرص التام من قبل الفضل بن سهل على عدم تسريب الأخبار عن حقيقة الوضع بالعراق، وتلفيق الأخبار واتهام القائد هرثمة بالأحداث. فإن ولي عهده علي الرضا بن موسى الكاظم هو الذي سرب له الأخبار وحذره من وزيره الفضل بن سهل، وخوفه سوء عاقبة ما يجري في بغداد، وطلب منه الخروج إليها قائلاً: «يا أمير المؤمنين ان الناس ببغداد قد أنكروا عليك مبايعتي بولاية العهد، وتغيير لباس السواد، وقد خلعوك وبايعوا عمك إبراهيم بن المهدي[١٦]».

ولما تبين المأمون حقيقة الأمر، قرر الإنتقال إلى بغداد بعدما دبر مقتل الفضل بن سهل بالإيعاز إلى جماعة قتلته وهو في الحمام[١٧] في أوائل شعبان سنة ٢٠٢ هـ/٨١٧ م.

وبينما كان المأمون في طريقه إلى بغداد، توفي الإمام علي الرضا[١٨] ولي عهده: وقيل ان المأمون[١٩]: «دس له سما في عنب، وكان يحب العنب، فأكل منه واستكثر، فمات من ساعته». وذلك استرضاء لأهل بغداد وخاصة العباسيين منهم ثم تابع سيره إلى بغداد التي وصلها في صفر سنة ٢٠٤ هـ/ ٨١٩ م، بعد أن هرب منها في ذي الحجة سنة ٢٠٣ هـ/ ٨١٨ م، إبراهيم بن المهدي والفضل بن

(١٥) تاريخ الطبري ٨/ ٥٥٥.

(١٦) المرجع السابق والصفحة ذاتها، والفخري في الأداب السلطانية ص: ٢١٨.

(١٧) الفخري في الأداب السلطانية ٢١٨.

(١٨) توفي الإمام علي الرضا ودفن في ضواحي مدينة «طوس». وقامت بعد ذلك حول مقامه مدينة جديدة عرفت باسم مشهد اليوم من الأماكن المقدسة بعد كربلاء. تاريخ الطبري ٨ / ٥٦٨.

(١٩) الفخري في الأداب السلطانية. ص: ٢١٨

الربيع الذين عفا عنهما المأمون وأحسن إليهما، واستقبل زينب بنت سليمان بن علي بن عبدالله بن العباس ـ كان العباسيون يعظمونها، واليها ينسب الزينبيون فقالت له[٢٠]: «يا أمير المؤمنين ما الذي دعاك إلى نقل الخلافة من بيتك إلى بيت علي؟ قال: «يا عمه إني رأيت علياً حين ولي الخلافة أحسن إلى بني العباس، فولى عبدالله البصرة، وعبيدالله اليمن، وقثم سمرقند، وما رأيت أحداً من أهل بيتي حين أفضى الأمر إليهم كافأوه على فعله في ولده، فأحببت أن أكافيه على إحسانه. . .، ثم سألته تغيير لباس الخضرة، فأجابها إلى ذلك، وأمر الناس بتغييره، والعودة إلى لباس السواد. . . وعزل الحسن بن سهل عن ولاية العراق.

د ـ ثورات الأقاليم:

كان لغياب المأمون عن العاصمة بغداد أثره الكبير في إحداث الفتن والحروب التي قامت في أكثر من مكان من البلاد وانتقلت عدواها إلى الأقاليم الإسلامية. وقد شجع على قيام هذه الحركات تهاون العمال بمصالح الناس وإرهاقهم بالضرائب والأعباء المالية الأخرى، مما شجعهم على الثورة، ومنها:

ـ ثورة الزط:

كان جنوب العراق مسرحاً لثورة خطيرة في عهد المأمون، عرفت باسم ثورة الزط، وكلمة الزط هي تعريب للفظ «جت» الفارسي. والزط خليط من الشعوب أقرب إلى الغجر. نزحوا أول أمرهم من شمال غرب الهند، فسكنوا شواطىء الخليج العربي ـ الفارسي. واستغلوا الفتنة التي وقعت بين الأمين والمأمون، فاستولوا على البصرة التي عاثوا عليها فساداً[٢١].

ولما انتقل المأمون إلى مركز خلافته في بغداد، واستقرت الأمور له، أرسل عدة حملات ضد الزط في سنة ٢٠٥ هـ/ ٨٢٠ م، و٢٠٦ هـ/ ٨٢١ م. ولكن هذه الحملات لم تتمكن من القضاء على ثورتهم لأنهم كانوا يتفرقون في الفيافي والأصقاع الخالية كلما شعروا بالخطر يداهمهم ويتكتلون عندما يذهب الخطر حتى

(٢٠) تاريخ الطبري ٨ / ٥٤٧ ـ ٥٧٥.

(٢١) الكامل في التاريخ ٥ / ٢٣٢.

تمكنوا من فرض الضرائب على السفن الداخلة إلى بغداد. فحالوا دون وصول الأقوات إلى عاصمة العباسيين.

واستمر الزط في عبثهم حتى خلافة المعتصم الذي أرسل حملة ضدهم سنة ٢١٩ هـ/ ٨٣٤ م بقيادة «عجيف عنبسة»[٢٢]، تمكنت من الإطاحة بالمنطقة التى انتشروا فيها. ثم ضيقت الخناق عليهم، وبدأت بالقتال فأبادت وأسرت معظمهم. عندئذ أمر القائد عجيف بنفي الأسرى ـ كانوا حوالى ٢٧ ألفاً بين رجال ونساء وأطفال ـ إلى مدينة «عين زوربة» ـ في شمال الدولة العباسية بمنطقة الثغور ـ وبقوا هناك إلى أن وقعت أعداد كبيرة منهم أسرى في أيدي البيزنطيين سنة ٢٤١ هـ/ ٨٥٥ م. فنقلوهم إلى القسطنطينية، ومنها انتشروا في مختلف البلاد الأوروبية ولا سيما هنغاريا وإسبانيا.

ثورة نصر بن شبث:

لم تهدأ الأوضاع في الجزيرة وشمال الشام. إذ قامت القبائل العربية في هذه المنطقة بثورة ضد النفوذ الفارسي في الدولة العباسية... وتزعم هذه الإنتفاضة عربي من بني عقيل اسمه «نصر بن شبث»[٢٣] استاء كغيره من مقتل الأمين وانحطاط العنصر العربي نتيجة لسياسة المأمون، فأعلن خروجه في أواخر سنة ١٩٨ هـ/ ٨١٣ م، فتغلب على شمال الشام وملك سميساط حتى ازداد أنصاره، وعبر الفرات إلى الجزيرة.

وحينما تولى المأمون الخلافة، كافأ قائده طاهر بن الحسين، وولاه الموصل والجزيرة والشام والمغرب، وأمره بالقضاء على نصر بن شبث. لكن الأخير تمكن من الإنتصار على طاهر بن الحسين وأجبره على التراجع، الأمر الذي أدى إلى ارتفاع شأن نصر بن شبث والتف حوله العربان وبعض العلويين، وطالبوه بنقل الخلافة إليهم لكنه أبى.

وعند إنتقال المأمون إلى بغداد ولى طاهر بن الحسين على خراسان، وولى

(٢٢) الكامل في التاريخ ٥ / ٢٣٢.

(٢٣) تاريخ الطبري ٨ / ٥٩٨ ـ ٦٠٠.

ابنه عبدالله بن طاهر بن الحسين على الجزيرة والشام ومصر، وأمره في محاربة نصر. فعمل عبدالله بن طاهر على تضييق الخناق على نصر حتى أجبره على طلب الأمان والإستسلام سنة ١٢٠ هـ/ ٨٢٥ م[٢٤].

ـ الإضطرابات في مصر:

أحس الولاة بضعف رقابة العاصمة عليهم في الفترة التي كان فيها المأمون بالري ـ خراسان ـ . فاضطربت الأحوال في مصر بسبب الخلاف بين الأمين والمأمون، وانقسم أهلها إلى ثلاثة أفرقاء: فريق يؤيد الأمين، وفريق ثان يؤيد المأمون، وفريق ثالث بزعامة السري بن الحكم وأولاده[٢٥] يعمل لحسابه الخاص، ويضرب الفريقين السابقين بعضهما ببعض.

وصادف أن قامت ثورة في الأندلس (إسبانيا) ضد أميرها الحكم الأول الأموي، وهي الثورة المعروفة بثورة الربض، لأنها قامت في ربض من أرباض ـ ضواحي ـ العاصمة قرطبة. لكن الحكم الأموي نجح في إخماد الثورة وتشريد القائمين بها. فنزح فريق من الثوار الأندلسيين إلى أفريقيا، وعبروا إلى المغرب حيث استقروا في مدينة «فاس» عاصمة دولة الأدارسة. بينما واصل قسم منهم سيرهم في البحر شرقاً حتى وصلوا إلى شواطىء الاسكندرية فنزلوا بضواحيها في أوائل عهد المأمون. استغل هؤلاء فرصة اضطراب الأحوال في مصر واستولوا على مدينة الإسكندرية بمعاونة عرب البحيرة، وأسسوا إمارة مستقلة عن الخلافة العباسية استمرت نحواً من عشر سنوات[٢٦].

ولما استقرت أحوال المأمون في بغداد، لم يسكت عن أحداث مصر، لذلك أرسل قائده عبدالله بن طاهر بن الحسين إلى مصر سنة ٢١٢ هـ/ ٨٢٧ م. وكان من الطبيعي أن يبدأ بالأندلسيين في الإسكندرية لتخوف العباسيين من كل أثر يمت بصلة إلى بني أمية في الأندلس. فطلب عبدالله بن طاهر إلى الأندلسيين

(٢٤) تاريخ الطبري ١٦٠. والكامل في التاريخ ٥ / ٢٠٧.

(٢٥) تاريخ الطبري ٨ / ٦١٣. والكامل في التاريخ ٥ / ٢١١.

(٢٦) تاريخ الطبري ٨ / ٦١٠. والكامل في التاريخ ٥ / ٢١٢.

الجلاء أو الحرب. فوافقوا على الجلاء، وتعهدوا بألا ينزلوا في أرض تابعة للخلافة العباسية. وفعلاً اتجهوا شمالاً إلى جزيرة كريت التي كانت تابعة إلى الدولة البيزنطية واستولوا عليها. وبذلك استمر حكم المسلمين لكريت حتى سنة ٣٥٠ هـ/ ٩٦١ م عندما استردها البيزنطيون.

ومع خروج الأندلسيين من الاسكندرية لم تستقر الأحوال في مصر. ذلك أن عيسى بن منصور والي مصر تطرف في فرض الجزية على أقباط مصر، مما جعلهم يثورون ثورة خطيرة شملت معظم أنحاء الوجه البحري سنة ٢١٦ هـ/ ٨٣١ م. استمرت ثورتهم ثمانية أشهر اضطرت الخليفة المأمون، الذي كان بالشام وقتئذ أن يذهب إلى مصر بنفسه لتهدئة الحالة. ألقى الخليفة تبعة الثورة على الوالي ووجه اللوم الشديد، وقال له[٢٧]: «لم يكن هذا الحدث العظيم إلا من فضلك وفضل عمالك، حمّلتم الناس ما لا يطيقون، وكتمتموني الخبر حتى تفاقم الأمر واضطربت البلد». ثم عزل المأمون الوالي عيسى بن منصور. وحاول أخذ الثوار باللين لتهدئة الحال في البلاد. ولما لم تنفع هذه السياسة ولم يركن الثوار إلى الهدوء، اضطر الخليفة إلى استعمال الشدة للقضاء على ثورتهم. ويقال إنه استفتى فقيهاً «مالكياً» في معاملة الثوار، فأفتى الفقيه بأنه[٢٨]: «إذا كانوا خرجوا لظلم نالهم، فلا يحل دماؤهم وأموالهم» فرد عليه الخليفة المأمون: «أنت تيس ومالك أتيس منك... هؤلاء كفار لهم ذمة، إذا ظلموا تظلموا إلى الإمام، وليس لهم أن يستنصروا بأسيافهم، ولا يسفكوا دماء المسلمين في ديارهم» وأقر المأمون الأمن وعاد إلى بغداد.

ـ ثورة بابك في بلاد فارس:

وثمة ثورة هزت الدولة العباسية في عهد المأمون، واستمرت حتى عهد المعتصم. هي الحركة التي قام بها بابك الخرمي[٢٩] في بلاد فارس ـ مهد كثير

(٢٧) تاريخ الطبري ٨ / ٦٢٥. والكامل في التاريخ جـ ٥ / ٢٢٠.

(٢٨) الكندي: أبو عمر بن يوسف. كتاب الولاة والقضاة، نشر مكتبة المثنى ببغداد ودار الكتاب اللبناني ٤٩٢.

(٢٩) اعتصم بابك الخرّمي في الأقاليم الشمالية الشرقية، منذ سنة ٢٢١ هـ. وقد ادعى بابك أن روح =

من الفرق والمذاهب ـ زعيم الفرقة الخرمية التي أباحت النساء كلهن وسائر المحرمات. ثم عمد بابك الخرمي بعدما كثر أتباعه إلى قطع السبل ونشر الفساد. فأرسل الخليفة المأمون وهو بمرو سنة ٢٠١ هـ/ ٨١٦ م حملة لقتاله لكنها فشلت كما فشلت الخليفة الحملات التي تعددت بعدها نظراً لازدياد أتباعه. واستمرت الخرمية في إقلاق بال الدولة العباسية طوال عهد المأمون حتى كانت سنة ٢١٨ هـ/ ٨٣٣ م عندما تمكن المعتصم في أن يبدد شملهم ويقضي على شرهم، ويوقع بابك نفسه أسيراً سنة ٢٢٣ هـ/ ٨٣١ م فقتل وصُلب بباب سامراء(١).

جـ ـ سياسة المأمون الخارجية:

لم يحدث أي تغيير يذكر في سياسة المأمون الخارجية عما كانت عليه في عهد أبيه الرشيد. فاستمرت العلائق السياسية مع الفرنجة ـ الإمبراطورية الرومانية المقدسة ـ على حالها من تبادل السفارات والهدايا، إذ أرسل لويس النقي بن شارلمان إلى البلاط العباسي سفارة أيام المأمون سنة ٢١٦ هـ/ ٨٣١ م. يؤكد فيها حُسن العلاقات الدبلوماسية.

أما بالنسبة إلى سياسة المأمون تجاه البيزنطيين فتتلخص بمواصلة الجهاد، فنرى الخليفة المأمون يستغل فرصة الثورة الداخلية التي تزعمها توماس الصقلي ضد الإمبراطور البيزنطي ميخائيل الثامن سنة ٢٠٦ هـ/ ٨٢١ م وأخذ يمد تلك الحركة بالمال والسلاح كي يساعده في الاستيلاء على القسطنطينة وبالتالي على الحكم، لكن الدولة البيزنطية كشفت أخبار تلك الإتصالات فعملت على إنهاء الثورة وقتل زعيمها توماس الصقلبي على أبواب مدينة القسطنطينة سنة ٢٠٨ هـ/ ٨٢٣ م(٣١).

= جاويدان قد حلّت فيه ـ وجاويدان كان زعيماً نسب إليه أتباعه صفات الألوهية. وزاد بابك على ذلك أن نشر تعاليم المجوس.

وقد أثار البيزنطيين على الدولة العباسية. وعقد حلفاً معهم ضدها، فتمكن من المقاومة مدة طويلة. وساعد على ذلك انشغال المأمون العباسي بالقضاء على الفتن في أنحاء البلاد وقتال البيزنطيين.

(٣٠) تاريخ الطبري ٩ / ٥٢ ـ ٥٥ مروج الذهب جـ٣ / ٤٦٧ ـ ٤٧١.

(٣١) Diehı Charles Hıstoıre de l'empıer Byzantin paris P. 131.

والقضاء على ثورة توماس الصقلبي لم يمنع الخليفة المأمون من غزو الأراضي البيزنطية بنفسه عندما انتهى من متاعبه الداخلية. فخرج سنة ٢١٥ هـ/ ٨٣٠ م لغزو البيزنطيين، واتجه إلى طرطوس الثغر الإسلامي على حدود بيزنطية، ومنها أوغل في البلاد البيزنطية يفتح الحصون ويأسر الأهالي. وتكررت غزواته سنة ٢١٦ هـ/ ٨٣١ م و٢١٧ هـ/ ٨٣٢ م(٣٢). حتى طلب إمبراطور بيزنطية الهدنة فقبلها المأمون. وأخيراً خرج المأمون سنة ٢١٨ هـ/ ٨٣٣ م لغزو البيزنطيين عن طريق طرسوس، فأصيب بالحمى وتوفي هناك(٣٣).

أما الدولة الأموية في الأندلس، فقد ظلت بمنأى عن الخلافة العباسية، تنظر كل منهما إلى الأخرى نظرة حقد وتذمر دون أن تستطيع أن تثأر لنفسها بسبب بعد المسافة. بينما بقيت علاقة دولة الأغالبة في المغرب بالعباسيين على أساس الإستقلال الذاتي مع التبعية للدولة العباسية. وكان الأمير زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب يحكم دولة الأغالبة في عهد المأمون، فكتب إليه المأمون طالباً منه الدعاء لعبدالله بن طاهر بن الحسين واليه على مصر، لكن زيادة الله لم يقبل ذلك وقال للرسول(٣٤): «هذا ما لا يكون أبداً.... ثم رمى إلى الرسول بألف دينار كلها مضروبة باسم دولة الأدارسة حكام المغرب الأقصى. ففهم المأمون مغزاه ولم يعاتبه بعد.

٤ ـ النهضة الفكرية في عهد المأمون:

ازدهرت النهضة الفكرية في العصر العباسي وبخاصة على عهد المأمون لاهتمامه بجمع تراث الأمم القديمة وخاصة التراث اليوناني، كا أنه أرسل البعثات العلمية إلى القسطنطينية وقبرص للبحث عن نفائس الكتب العلمية ونقلها إلى بيت الحكمة(٣٥) في بغداد. وشجع المأمون مجالس المناظرة بين العلماء لأنها بنظره تساعد على إزالة أسباب الخلاف فيما بينهم.

(٣٢) تاريخ الطبري ٨ / ٦٢٣ ـ ٦٢٥، والكامل في التاريخ جـ ٥ / ٢١٩ ـ ٢٢٠.
(٣٣) تاريخ الطبري ٨ / ٦٤٦. ومروج الذهب. ٣ / ٤٥٦ ـ ٤٥٨.
(٣٤) الكامل في التاريخ ٥ / ١٨٤ ـ ١٨٥.
(٣٥) الفخري في الاداب السلطانية ص ٢١٦.

فأدت هذه الحرية الفكرية إلى ظهور جماعة من كبار العلماء والمتكلمين الذين تناولوا أصول الدين والقصائد، وحكموا عقولهم في البحث، فانتهى إلى اختلاف وجهات النظر، وظهور أكثر من مذهب من المذاهب الفكرية. لكن المسألة الهامة التي شغلت تفكير الباحثين هي: هل الإنسان مسير أم مخير؟، وبالتالي هل الإنسان حر الإرادة يعمل ما يشاء؟ وبالتالي مسؤول عن عمله أم أنه مسير بحكم القدر؟ ولا خيار له فيما يعمله من خير أو شر؟ وقد عرف الذين قالوا بأن الإنسان حر الإرادة وأنه مخير وليس مسيراً باسم «القدرية أو المعتزلة» أما الذين قالوا بعكس ذلك فقد عرفوا باسم «الجبرية أو السلفية».

أ ـ المعتزلة:

قامت عقيدة المعتزلة على خمسة أصول هي:

ـ القول بالتوحيد: وهو أن الله واحد لا شريك له.

ـ القول بالعدل: وهو أن الله لا يحب الشر والفساد

ـ القول بالوعد والوعيد: وهو أن الله صادق في وعده ووعيده لا يغفر إلا بعد التوبة.

ـ القول بالمنزلة بين المنزلتين: وهو أن صاحب الكبيرة ليس بمؤمن ولا كافر لكنه فاسق.

ـ القول بالمعروف والنهي عن المنكر: وهو تكليف المؤمنين بالجهاد وإقامة حكم الله على كل من خالف أمره أو نهيه، سواء أكان كافراً أو فاسقاً.

والمعتزلة التي نشأت في بداءة الأمر طائفة دينية لا علاقة لها بالسياسة سرعان ما تطرقت إلى السياسة، فناقشت مسألة الإمامة ووضعت الشروط التي يجب توفرها في الإمام. وهنا يبدو واضحاً مدى العلاقة القوية بين أراء المعتزلة وآراء الشيعة.

ب ـ خلق القرآن(٣٦):

كان المأمون من المؤيدين لطائفة المعتزلة. فقد قرب إليه أتباع هذا

(٣٦) تاريخ الطبري ٨ / ٦١٩.

المذهب، فازداد نفوذهم في قصر الخلافة ببغدادلأن مذهبهم يعتمد على الحرية والعقل. ولكن المسألة الخطيرة التي أثارها المعتزلة، وكان لها أثراً عميقاً في الأحداث السياسية والإجتماعية إضافة إلى الحالة الفكرية، هي مسألة القول «بخلق القرآن» فقالوا: إنه من المحال أن يكون القرآن صفة من صفات الله، أن صفاته وحدة لا تتجزأ ولا تتغير، في حين أن القرآن فيه: أمر ونهي، وعد ووعيد، وهذه الحقائق متباينة. ولو كان القرآن كلاماً أزلياً بوصفه من صفات الله لترتب على ذلك عدة استحالات منها أن الأمر لا قيمة له ما لم يصادف مأموراً. فمثلاً على ذلك: «أقيموا الصلاة» إلا إذا كان هناك مأمورون بالصلاة، ولم يكن هناك في الأزل مأمورون مخاطبون. ومنها أيضاً: أن الخطاب مع النبي موسى، غير الخطاب مع النبي محمد ومناهج الكلامين مع الرسولين مختلفة. وهذا الإختلاف يجعل من المستحيل أن يكون الكلام صفة من صفات الله، لأن صفات الله، واحدة ثابتة لا يطرأ عليها اختلاف.

إذن القرآن برأي المعتزلة مخلوق، لأن كلام الله عبارة عن أصوات وحروف يخلقها الله في غيره فتصل إلى النبي عن طريق ملاك. هذا الرأي أخذ به المأمون، وأراد أن يفرضه على الناس، فبعث في سنة ٢١٨ هـ/ ٨٣٣ م. ن[٣٧] كتاباً إلى والي بغداد إسحق بن إبراهيم بن مصعب يطلب منه امتحان القضاة والمحدثين في مسألة القرآن[٣٨]. وأن يعاقب كل من يقول بعكس ذلك. وكان المأمون يأمل بأن يأخذ العلماء والفقهاء والناس برأيه دون نقاش، لكن حدث ما لم يكن في الحسبان بظهور جماعة نادت بكفر من يقول بخلق القرآن، واتسع بعد ذلك الإختلاف والإنقسام في الدولة مستمراً إلى عهد المعتصم والواثق.

وأخيراً مات الخليفة المأمون كما قدمنا سنة ٢١٨ هـ/ ٨٣٣ م بالحمى وهو في الطريق لغزو بلاد البيزنطيين، فانتقلت الخلافة من بعده إلى أخيه المعتصم[٣٩]

(٣٧) تاريخ الطبري ٨ / ٦٣١.

(٣٨) المرجع السابق ٨ / ٦٣١ - ٦٣٩.

(٣٩) أوصى المأمون في آخر أيامه أن يكون أبو إسحاق أخوه الخليفة من بعده ابن الخطيب البغدادي - تاريخ بغداد١٠ / ٩٨٤.

لأن المأمون كان قد أوصى له بالخلافة قبل وفاته.

٨ - أبو إسحق محمد المعتصم بالله: ٢١٨ - ٢٢٧ هـ/ ٨٣٣ - ٨٤٢ م.

١ - شخصيته:

تولى أبو إسحق محمد المعتصم بالله مصر والشام في عهد أخيه المأمون. فأظهر من ضروب الشجاعة وقوة الشكيمة ما جعله موضع ثقة أخيه فولاه عهده. وبقي في الخلافة منذ وفاة المأمون سنة ٢١٨ هـ/ ٨٣٣ م حتى وفاته سنة ٢٢٧ هـ/ ٨٤٢ م وهو حوالى ثماني سنين وثمانية أشهر[٤٠]. رفض غالبية الجند في بداءة الأمر مبايعة المعتصم بالله بالخلافة، وأرادوا تولية العباس بن المأمون، لكن العباس أسرع إلى مبايعة عمه بالخلافة احتراماً لوصية أبيه، فحذا الجيش حذوه.

٢ - سياسته الداخلية:

أ - المعتصم والمعتزلة:

اتبع المعتصم وصية أخيه المأمون في حمل الناس على القول بخلق القرآن، ولأنه كان محدود الثقافة، ضعيف الكتابة، كره العلم منذ صغره، لم تعقد مجالس المناظرة في عهده، كما كانت تعقد في عهد أخيه المأمون، ولكنه حرص على سياسة القول بخلق القرآن والإمتحان به، لا عن اقتناع وتفكير، وإنما تنفيذاً لوصية المأمون التي جاء فيها[٤١]: «وخذ بسيرة أخيك في القرآن».

ويقال إن المعتصم جلد الإمام أحمد بن حنبل، لامتناعه عن القول بخلق القرآن، ثمانية وثلاثين سوطاً حتى سال منه الدم، وتعددت جراحه[٤٢]، بعدما كان استحضره من سجنه الذي ظل محبوساً فيه منذ وفاة المأمون - وأدخله في حضرته ليناظر مجموعة علماء وعلى مدى ثلاثة أيام متواصلة، فشلوا في إقناعه، وملوا مناظرته، الأمر الذي جعل المعتصم يأمر بضربه، ثم أرسل إلى السجن.

(٤٠) - ٣٩ - الفخري في الآداب السلطانية ٢٣٩.

(٤١) الكامل في التاريخ ٥ / ٢٢٦.

(٤٢) مروج الذهب ٣ / ٤٦٤. والكامل في التاريخ. جـ ٥ / ٢٣٣.

ب ـ المعتصم والعلويين :

واجه المعتصم العلويين بالشدة والحزم كمن سبقه من أسلافه الخلفاء العباسيين وطبقاً لذلك تخلص من محمد الجواد بن علي الرضا(٤٣)، الذي كان المأمون قد زوجه ابنته أم الفضل بتدبير وإيعاز من المعتصم نفسه خشية المطالبة بالخلافة لسببين :

أولهما : أن أولاده من سلالة المأمون .

ثانيهما : أن أباه علياً الرضا قد ولاه المأمون العهد قبل وفاته .

كما أعلن محمد بن القاسم بن علي بن عمر بن علي بن الحسين بن علي(٤٣) من طالقان بخراسان ـ وصل إليها قادماً من الكوفة ـ الدعوة إلى الرضا من آل محمد . فاجتمع حوله كثيرون . عندها أرسل عبدالله بن طاهر بن الحسين ـ والي خراسان ـ عدة حملات ضده أنزلت به وبجماعته الهزيمة . فحاول الفرار، لكنه وقع في الأسر سنة ٢١٩ هـ/ ٨٣٤ م، وسلّمه الوالي إلى المعتصم الذي أمر بحبسه في سامراء . غير أن محمد بن القاسم غافل الناس وقت احتفالهم بعيد الفطر وهرب من سجنه(٤٥) . ومنذ ذلك الوقت لم يعرف عنه شيء الأمر الذي جعل الكثيرين من أتباعه الزيدية يقولون بإمامته في ناحية الكوفة وجبال طبرستان والديلم ويزعمون أنه المهدي المنتظر، وإنه حي لم يمت، وأنه يخرج فيملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً .

جـ ـ قضاؤه على ثورة الزط :

استمرت مشكلة الزط في جنوب العراق قائمة منذ خلافة المأمون الذي لم يتمكن من القضاء عليهم وإسكات ثورتهم . ولما تسلم الخلافة المعتصم استعان بالقائد العربي عجيف بن عنبسة لحرب الزط . فسد هذا الأنهار عليهم، وأحاط بهم من كل جهة . وبعد قتال استمر تسعة أشهر اضطروا إلى طلب الأمان(٤٦) فأسر

(٤٣) مروج الذهب ٣ / ٤٦٤ .

(٤٤) تاريخ الطبري ٣ / ٤٦٤ ـ والكامل في التاريخ جـ ٥ / ٢٣١ ـ ٢٣٢ .

(٤٥) المرجعان السابقان والصفحات ذاتها.

(٤٦) تاريخ الطبري ٩ / ١٠ ـ ١١ . و M. Lombard. l'ıslam dans sa première P. 156.

منهم خمسمائة رجل، وقتل منهم في المعركة ثلاثمائة رجل، ثم عاد وضرب أعناق الأسرى ثم أمر المعتصم بنفي الباقي إلى آسيا الصغرى وفيها أسرهم البيزنطيون سنة ٢٤١ هـ/ ٨٨٥ م. وشردهم في كثير من بلدان أوروبا، فعرفوا باسم الغجر أو النور.

د ـ اهتمام المعتصم باقتناء الجنود الأتراك[٤٧].

والمسألة التي اعارها المعتصم اهتمامه الكبير هي مسألة إقتنائه الجنود الأتراك وجلبهم من أقاليم ما وراء النهر ـ جيحون ـ وخاصة بلاد سمرقند وفرغانة وأشروسنة والشاش وخوارزم. والذي جعل المعتصم يفكر في جعل جيشه منهم هو:

ـ أن الأتراك في تلك النواحي اتصفوا بالشجاعة والقوة البدنية فضلاً عن جمال الصورة.

ـ إن المعتصم نفسه جندي قوي شجاع.

ـ إن جنود الأبناء لم يعد يوثق بهم لكثرة اضطرابهم وتقلبهم.

لهذه الأسباب عني المعتصم باستحضار هؤلاء الأتراك، إما عن طريق الشراء، وإما عن طريق الأسر في الحروب. أو عن طريق الهدايا التي اعتاد أن يقدمها له ـ على شكل رقيق أبيض ـ ولاة تلك الأقاليم.

وهكذا أسكن المعتصم جنوده الأتراك بغداد، واستغنى عن الجنود العرب وأسقطهم من كافة الدواوين، بحيث لم يبق مرتزق لعهده إلا من كان من الأتراك أو الأبناء. واستخدم المعتصم قوماً من حوف مصر، وحوف اليمن وسماهم المغاربة.

هـ ـ المعتصم وبناء مدينة سامراء:

امتلأت بغداد في عهد المعتصم بأولئك الجنود الأتراك، الذين ألبسهم المعتصم أفخر الملابس، وسمح لهم بركوب الخيل في شوارع بغداد مما أدى إلى

---

(٤٧) تاريخ الخلفاء ٣٣٥.

أصطدام مهم بالناس في الطرقات، فأثار ذلك مشاجرات بينهم وبين أهلها(٤٨).
ولما شكا أهل بغداد إلى المعتصم عنت الأتراك وعسفهم، فكر في إنشاء حاضرة جديدة له تكون مقرآ لهذا الجيش، واختار المعتصم مكاناً بعيداً عن بغداد حوالى ستين ميلاً إلى الشمال.

بدأ المعتصم في تخطيط حاضرته الجديدة ـ سامراء ـ سنة ٢٢١ هـ/ ٨٣٧ م فوضع أولاً أساساً لقصره، ثم جعل قطائع خاصة لكل من الأتراك، ولغلمانه من أهل خراسان عرفوا باسم «الأشروسية»، ولأهل حوف مصر الذين عرفوا أيضاً باسم المغاربة، عرفت هذه المدينة أولاً باسم «سرور من رأى» ثم اختصر الإسم فصار «سر من رأى»، ولما خربت سميت «ساء من رأى»، ثم اختصرت فقيل «سامراء»(٤٩).

و ـ المعتصم وطغيان الأتراك:

امتاز الجنود الأتراك بزيهم عن سائر جند المعتصم، ورفع من قدرهم حتى صار بأيديهم مستقبل الخلافة، واصطنع منهم قواداً بلغوا درجة كبيرة من النفوذ وعلو الكلمة في الدولة، من مثل: الأفشين الذي قضى على ثورة بابك الخرمي، فكافأه المعتصم باستقباله أفضل استقبال وتخصيصه في كل يوم بفرس وخلعة ووشاحين بالجواهر حتى أصابه الغرور وحدّثته نفسه بالإستقلال ببلاده أشرو سنة عن المعتصم الذي أحسّ بمؤامرته، فقبض عليه وحبسه إلى أن مات(٥٠). ومن القواد الأتراك الذين بلغوا مرتبة رفيعة في عهد المعتصم. أيتاخ الذي استمر على مكانته طوال عهد المعتصم إلى أن قتل أوائل عهد الواثق على يد أحد رجال جعفر الكردي الذين قاموا بثورتهم ضد المعتصم في سنة ٢٢٧ هـ/ ٨٤١ م.
واشناس(٥١) الذي بلغ هو الآخر مكانة عالية عند المعتصم حتى أجلسه على كرسي، وتوجه وبقي في عهد الواثق على مكانته هذه حتى توفي سنة ٢٣٠ هـ/ ٨٤٤ م.

(٤٨) مروج الذهب ٣ / ٤٦٥ ـ ٤٤٦. والسيوطي تاريخ الخلفاء. ٣٣٦.
(٤٩) مروج الذهب ٣ / ٤٦٦ ـ ٤٦٧. والسيوطي تاريخ الخلفاء. ٣٣٥ ـ ٣٣٦.
(٥٠) تاريخ الطبري ١٠٤٩ ـ ١١٠ و١١١ ـ ١١٤
(٥١) المرجع السابق ٩ / ١٢٤.

ز ـ المعتصم وقيام الثورات العربية:

اتباع المعتصم سياسة تقريب الأتراك وتخصيصهم بالعطايا والهبات، أثارت الحسد والغيرة في نفوس العرب فتحركت جماعة من هؤلاء بقيادة عجيف مستاءة من تصرفات القواد الترك، وأغرت العباس بن المأمون بالخروج على عمه، والمطالبة بعرشه، وقد اتقن العرب المشاركون في هذه المؤامرة على قتل المعتصم والأفشين واشناس. وحددوا موعداً لذلك تمام توزيع الغنائم التي يستولي عليها المسلمون من البيزنطيين في موقعة عمورية سنة ٢٢٣ هـ/ ٨٣٨ م.

لكن الأخبار تسربت إلى المعتصم بعد أن لعبت الخمرة برأس العباس وبرؤوس بعض القواد العرب، فأفضوا بسر المؤامرة. فما كان من المعتصم إلا أن وضع العباس. ابن أخيه المأمون ـ وعجيف تحت المراقبة ومنع عنهما الماء إلى أن ماتا(٥٢).

وإذا كانت هذه الحركة قد انتهت إلى القضاء عليها وهي في مهدها، أدى قيامها إلى سيطرة القواد الأتراك، فأمعنوا في إقصاء العرب والفرس تدريجياً، وإسقاطهم من ديوان العطاء. وعملوا على انتزاع السلطة، حتى غدا خلفاء العباسيين في سامراء الأعيب في أيدي القواد الأتراك. ووصل الأمر إلى حد الاستيلاء على ممتلكات القواد العرب، ومن ذلك أن جندياً تركياً استولى ـ صادر ـ داراً تخص أبي حرب المبرقع وهو غائب عنها. فلما عاد وعلم بالخبر قتل الجندي التركي. ولكنه خاف على نفسه فلبس برقعاً وهرب إلى منطقة الأردن حيث أخذ يحرض الناس ضد الخليفة المعتصم. ورغم أنه أموي، فالتف حوله الكثير من أهالي تلك البلاد وبخاصة اليمانية وعندما علم بأمره المعتصم، أرسل جيشاً كبيراً لمقاتلته، فتمكنوا منه وأتوا به أسيراً إلى سامراء.

٣ ـ سياسته الخارجية:

الحدث الوحيد الذي استأثر اهتمام المعتصم هو حربه مع البيزنطيين. ذلك أن الامبراطور تيوفيل استغل الفتن والثورات الداخلية في الخلافة العباسية ولا سيما

(٥٢) تاريخ الطبري ٩ / ٧١. والكامل في التاريخ جـ ٥ / ٢٥١.

عندما كان الأفشين يحارب بابك الخرمي. وقد كتب إليه الأخير يقول: «إن ملك العرب قد وجه معظم عساكره إلي، ولم يبق على بابه أحد فإن أردت الخروج إليه فليس في وجهك أحد يمنعك»(٥٣). ويبدو من هذا الكتاب أن بابك أراد من ورائه أن يوقع المعتصم بين نارين. فخرج تيوفيل أمبراطور البيزنطيين على رأس قوة من مائة ألف مقاتل، وهاجم مدينة «زبطرة »AZOPTORA أقرب الثغور الإسلامية إلى البيزنطيين، فدمرها تيوفيل وأشعل فيها النيران، وقتل وأسر من فيها ثم واصل أغاراته على ملطية وغيرها من الحصون الإسلامية القريبة، وقد بالغ من الإنتقام من المسلمين بجدع أنوفهم وقطع أذانهم وسمل أعينهم.

أغضب هذا الحدث المعتصم أشد الغضب، لأن لمدينة «زبطرة» مكانة خاصة في قلب المعتصم كونها مسقط رأس والدته، لذلك ما أن فرغ من حرب بابك الخرمي بأسره تم تعذيبه وقتله، وقيل ان قائده أفشين صلبه في سامراء(٥٤) وتفرق كامل اتباعه، حتى قصد البلاد البيزنطية على رأس جيش إسلامي كبير سنة ٢٢٣ هـ/ ٨٣٨ م فهاجم المعتصم عمورية بوصفها مسقط رأس والد تيوفيل من ناحية، ومن أحصن بلاد البيزنطيين من ناحية أخرى(٥٥). وانتهت المعارك بعد محاصرة عمورية باقتحامها عنوة، وانتقموا لما حل بـ «زبطرةوملطية» على أيدي البيزنطيين. عاد بعد ذلك المعتصم ظافراً إلى سامراء فاستقبل استقبالاً حافلاً، فامتدحه أبو تمام بقصيدة شهيرة مطلعها(٥٦).

السيف أصدق أنباء من الكتب   في حده الحد بين الجد واللعب

٩ ـ هرون الواثق بالله: ٢٢٧ ـ ٢٣٢ هـ/ ٨٤١ ـ ٨٤٦ م.

١ ـ خلافته:

تسلم الخلافة أبو جعفر هرون الواثق بالله بن المعتصم بن هرون

(٥٣) تاريخ الطبري ٩ / ٥٥ ـ ٥٦ والكامل في التاريخ جـ ٥ / ٢٤٦ ـ ٢٤٧.

(٥٤) تاريخ الطبري ٥٢/٩ـ٥٣ و M Lombard. L'ıslam dans sa premièer grandeur. P. 154.

(٥٥) تاريخ الطبري ٩ / ٥٧ ـ مروج الذهب جـ ٣ / ٣ / ٣٧٤ والكامل في التاريخ ٥ / ٢٤٧ ـ ٢٥٠.

(٥٦) أبو تمام الديوان شرح الخطيب التبريزي تحقيق محمد عبده عزام. جـ ١ / ٤٥ دار المعارف بمصر ١٩٦٥.

الرشيد ـ تاسع الخلفاء العباسيين ـ بعد وفاة والده المعتصم. أحسن في أيام خلافته إلى بني عمه الطالبين وبرهم[٥٧]. كما أنه اتبع سياسة أبيه في الإعتماد على الأتراك الذين تزايدت أعدادهم، فشغلوا المناصب الكبيرة في الدولة. حتى أنه ولى قائده التركي «اشناس» السلطة وتوجه بتاج مرصع بالجواهر وذلك في سنة ٢٢٨ هـ/ ٨٤٢ م ومات الواثق سنة ٢٣٢ هـ/ ٨٤٦ م.

٢ ـ سياسة الواثق الداخلية:

لم يقع في أيام الواثق من الحوادث المشهورة ما يؤثر[٥٨]. لكن هذا لا يعني أن عهده لم يواجه الثورات الداخلية، ومنها.

أ ـ ثورة القبائل العربية:

ثارت القيسية بدمشق في بداءة عهد الواثق. فأرسل إليهم جيشاً تمكن من الإنتصار عليهم في مرج راهط، وقتل منهم نحو ألف وخمسمائة. وتمرد بنو سليم ـ أقوى القبائل العربية وأكثرها عدداً ـ على الواثق وعاثوا فساداً في بلاد الحجاز[٥٩] وتطاولوا على الناس في ضواحي المدينة، ونهبوا الأسواق، وقطعوا الطرق. وأوقعوا بجند والي المدينة سنة ٢٣٠ هـ/ ٨٤٤ م. فما كان من الواثق إلا أن أرسل إليهم جيشاً بقيادة القائد التركي «بغا الكبير» فأغار هذا الأخير على قرى بني سليم، وقتل منهم نحو الخمسين وأسر مثلهم، وقبض على ألف رجل من الذين ثبت عليهم أعمال الشر والفساد، وحبسهم في سجن المدينة. لكن هؤلاء السجناء حاولوا الفرار من سجنهم بنقب سوره. وما أن رآهم أهل المدينة حتى هجموا نحوهم وألقوا القبض عليهم ثم قتلوهم جميعاً.

بعد القضاء على فتنة بني سليم، انتقل بغا الكبير لإخماد حركة بني مرة المناوئة للخلافة، وقبيل وصوله إليهم فروا من وجهه منتشرين في الصحراء مما جعل جهوده تبوء بالفشل للقضاء عليهم وفرض سلطة الخلافة في وسط شبه الجزيرة العربية وجنوبها.

---

(٥٧) الفخري في الأداب السلطانية ٢٣٦.

(٥٨) المرجع السابق والصفحة ذاتها.

(٥٩) تاريخ الطبري ٩ / ١٢٩ ـ ١٣١. والكامل في التاريخ جـ ٥ / ٢٧٠.

وفي سنة ٢٣٢ هـ/ ٨٤٦ م كلف الواثق قائده «بغا الكبير» بالخروج لغزو بني نمير(٦٠) في اليمامة بعدما كثر عبثهم وفسادهم، فأسر منهم جماعة عاد بها إلى العاصمة سامراء.

ب ـ نكبة الكتاب:

ذات ليلة سأل الواثق ندماءه عن السبب الذي من أجله نكب الرشيد البرامكة فأجابه أحدهم: ان سبب ذلك هو تبذيرهم الأموال في كل اتجاه. ولم يمض، على ذلك أسبوع حتى نكب الواثق بكتابه(٦١) فعذبهم وصادر أموالهم، لاعتقاده أنهم أساؤوا حفظ الأموال التي عهد إليهم حفظها، فالعمال كانوا يجمعون الثروات الكبيرة بسرعة لعدم وجود رقابة عليهم تحاسبهم.

جـ ـ التعصب للمعتزلة:

تعصب الواثق للمعتزلة شأنه في ذلك شأن والده المعتصم وعمه المأمون. فتشدد في القول بخلق القرآن، مما أثار غضب الرأي العام ضده. علماً بأن الواثق كان لبيباً فطيناً فصيحاً شاعراً، يتشبه بعمه المأمون في حركاته وسكناته(٦٢) كما كان أكثر رواية للشعر العربي من المأمون.

وكان على رأس الساخطين على الواثق، بسبب تعصبه للمعتزلة، أحمد بن نصر بن مالك بن الهيثم الخزاعي، الذي أخذ بمبدأ «الأمربالمعروف والنهي عن المنكر» أي أنه أجاز الخروج على الحاكم ان انحرف وجار. وكان أحمد بن نصر الخزامي قد ثار سابقاً على عمه المأمون الذي لم يستطع القضاء عليه لاختفائه. لكن والي بغداد ـ إسحق بن إبراهيم ـ هذه المرة استطاع أن يقبض عليه، ويقدمه للواثق، الذي حاول جاهداً إقناعه على القول بخلق القرآن، في الوقت الذي أبى أحمد بن نصر، وقال: «كلام الله ليس بمخلوق». ولما أصر على كلامه طالب بعض الحاضرين بضرورة قتله. عندها أمسك الواثق بسيفه وضرب عنقه، وهو

---

(٦٠) تاريخ الطبري ٩ / ١٤٦ ـ ١٤٨. والكامل في التاريخ جـ ٥ / ٢٧٦.

(٦١) تاريخ الطبري ٩ / ١٢٥.

(٦٢) الفخري في الآداب السلطانية ٢٣٦.

يقول[٦٣]: «إني احتسب خطئي إلى هذا الكافر الذي يعبد رباً لا نعهده ولا نعرفه بالصفة التي وصفه بها». ثم حمل رأس أحمد بن نصر بعد ذلك إلى بغداد، فنصب بالجانب الشرقي أياماً، والجانب الغربي أياماً. وعندما صلب كتب الواثق ورقة علقت في رأسه نصها: «هذا رأس أحمد بن نصر بن مالك، دعاه عبدالله الإمام هرون (الواثق) إلى القول بخلق القرآن ونفي التشبيه، فأبى إلا المعاندة، فعجله الله إلى ناره، ووكل بالرأس من يحفظه ويصرفه عن القبلة».

٣ ـ سياسته الخارجية:

أهم حدث في سياسة الواثق الخارجية تتمثل في فداء عدد كبير من أسرى المسلمين. ذلك أن الأمبراطور البيزنطي أرسل سنة ٢٣١ هـ/ ٨٤٥ م رسلاً إلى الخليفة الواثق يسألونه: أن يفادي بمن في يده مس أسارى المسلمين. فوافق وانتدب لهذه العملية الخادم «خاقان» بعد أن أعد من أسرى البيزنطيين عدداً كبيراً. وتم تبادل الأسرى فوق جسرين على نهر «اللامس»[٦٤] قرب طرطوس كان قد أقامها كل من العرب والبيزنطيين. فكان المسلمون يرسلون البيزنطيين على جسرهم. ويرسل البيزنطيون المسلم على جسرهم إلى أن تم فداء ٤٦٠٠ أسير كان منهم ٦٠٠ من نساء وصبيان.

والجدير بالذكر في هذه العملية أن أسرى المسلمين كانوا يخضعون إلى امتحان في القول «بخلق القرآن... ولا يفدي منهم من لا يقول بأن القرآن مخلوق».

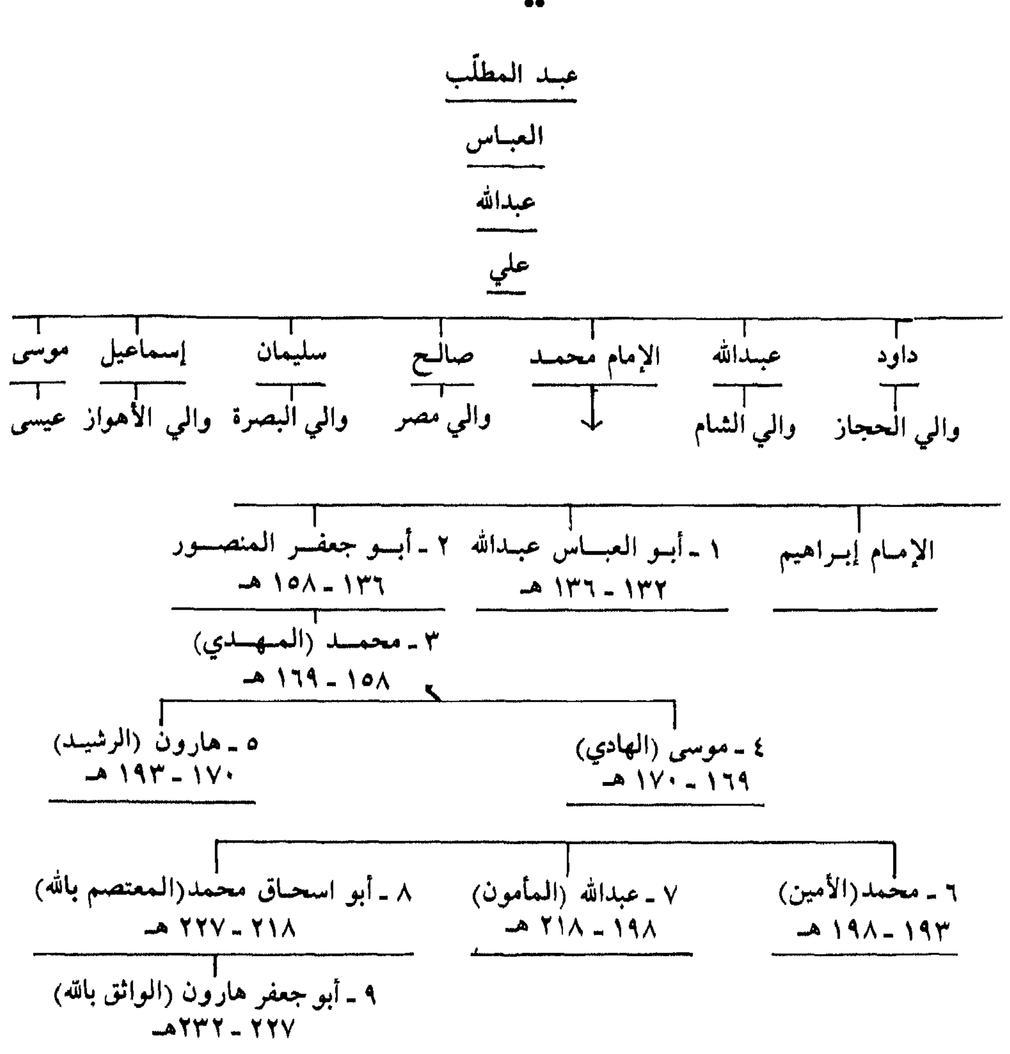
وبوفاة الواثق انتهى العصر العباسي الذهبي ـ العصر العباسي الأول ـ وبدأ عصر آخر في تاريخ هذه الدولة.

---

(٦٣) تاريخ الطبري ٩ / ١٣٥ ـ ١٤٠. والكامل في التاريخ جـ ٥ / ١٧٣. والسيوطي تاريخ الخلفاء ٣٤٠ ـ ٣٤١.

(٦٤) تاريخ الطبري ٩ / ١٤١ ـ ١٤٥. والسيوطي. تاريخ الخلفاء ٣٤١.

خلفاء العصر العباسي الأول: ١٣٢ - ٢٣٢ هـ



الفصل السابع

خلفاء العصر العباسي الثاني

١ ـ ميزات العصر العباسي الثاني:

تمكن الخلفاء العباسيون الأوائل ـ وبخاصة السفاح والمنصور ـ من تذليل جميع المصاعب التي واجهت الدولة العباسية في بداءة نشأتها، وذلك لما أظهروا من صبر وجلد، وتحلوا بالبساطة والتقشف، دون أن يغتروا بما حققوه من مكاسب، ويقنطوا أمام ما واجههم من تحديات ومصاعب، حتى نجحوا في إرساء قواعد بنيان ضخم، فسيح الأرجاء، ثابت العمد والأوتاد.

ولكن حياة البساطة التي نشأ عليها الخلفاء الأوائل لم تستمر مع الخلفاء الذين خلفوهم، لأنهم ولدوا في القصور، وشبوا وسط مظاهر التبجيل، واعتادوا منذ نعومة أظافرهم على حياة الترف والسعة. وهكذا انصرف بعض خلفاء العصر العباسي الأول ـ المتأخرين منهم ـ إلى إقامة مجالس اللهو والشراب والغناء، وانشغلوا بها عن النظر بأنفسهم في أمور الدولة، تاركين هذه الشؤون إلى بعض أعوانهم من كبار الموظفين: وزراء كانوا أو قادة.

وبدأ الإنحلال يدب في الدولة العباسية. فظهرت عوارضه في أطرافها نتيجة للخلل الذي اعترى قلبها. وبالرغم من ذلك فقد استمرت الدولة تعيش مدة من الزمان محتفظة بهيبتها بفضل القوة التي منحها اياها المؤسسون، واستمرت الدولة منطلقة بفضلها حتى ضعفت هذه القوة. فاهتزت صورتها، ودخلت مرحلة جديدة من تاريخها، أعني بها مرحلة العصر العباسي الثاني الذي اتصف بميزات أهمها:

أ ـ سيطرة الأتراك:

اشتدت سيطرة الأتراك على الخلافة العباسية في العصر العباسي الثاني، بعدما ازداد نفوذهم منذ عهد المعتصم. ولم يقتصر هذا النفوذ على عاصمة الخلافة فحسب، بل تعداها إلى الأطراف حينما بدأ الخلفاء العباسيون يمنحون قادتهم الأتراك أقطاع الولايات مقابل مبالغ معينة يدفعونها للخلافة.

وقد رأينا كيف أن المعتصم ابتعد بهم عن بغداد. والإقامة معهم في سامراء ليسلم أهالي بغداد من شرهم، إضافة إلى أن ازدياد نفوذ الأتراك في الدولة العباسية، وسيطرتهم على الخلافة، أثار موجة من الإستياء لدى العصبيات الأخرى التي كان لها، في يوم من الأيام، كلمة مسموعة في تسيير دفة الحكم. فكان استياء العرب، واستياء الفرس، واستياء الخراسانيين. وعبروا عن استيائهم بالثروات التي اندلعت ضد الخلافة العباسية، والتي استمر بعضها خلف قناع التشيع للعلويين علماً أن نفوذ الخراسانيين في العصر العباسي الأول كان قوياً، ومع قوته لم تصل سيطرتهم مطلقاً إلى حد التلاعب بالخلفاء أو عزلهم أو قتلهم، مثلما حدث للخلفاء العباسيين على أيدي الأتراك في العصر العباسي الثاني، بل على العكس. كان الخلفاء العباسيون في العصر السابق على درجة كبيرة من القوة والنفوذ ونفاذ الكلمة جعلتهم يتخلصون من أي رجل من رجالاتهم يشتمون منه خطراً على كيانهم ونفوذهم وخير دليل على ما قلناه، ما لاقاه أبو مسلم الخراساني على يد الخليفة المنصور. وغيره كالبرامكة، والقائد هرثمة بن أعين، والوزير الفضل بن سهل... الخ.

وشعر المعتصم في أواخر أيامه بخطر الأتراك عليه وعلى دولته. فندم ـ حيث لا ينفع الندم ـ على سياسته الخاصة بتشجيعهم. لأنهم كانوا قد أحكموا سيطرتهم على الخلافة، وتغلغلوا في كل مرفق من مرافقها. ودليلنا إلى ما ذهبنا إليه من حكم على تسلط الأتراك، أن قائداً منهم مثل: أيتاخ الذي كان في عهد الخليفة المتوكل مسؤولاً عن الجيش والمغاربة والأتراك والموالي والبريد والحجابة ودار الخلافة فأي شيء من مرافق الدولة وأجهزتها الحساسة بقي ولم يكن له ظل عليه.

وأخيراً لا آخراً فقد كان الخيلفة المعتز[1] لا يغمض له جفن ولا يخلع سلاحه في الليل أو في النهار خوفاً من الأتراك إلى حد اصطناعه المغاربة والفراغنة للتخلص من الأتراك. ولما شعر القواد الأتراك بانتقاص لنفوذهم وأن الخليفة قد يتخلى عنهم، واجهوا الخليفة بإعلان ثورتهم وقبضوا عليه، ثم قتلوه بعد أن مثلوا به[2].

ب ـ إنعدام هيبة الخلافة:

لم تستطع الخلافة العباسية الإحتفاظ بهيبتها في الوقت الذي أضحى فيه الخلفاء العوبة بيد قادتهم الأتراك وشبه محجوز عليهم. فكثير من الخلفاء في العصر العباسي الثاني انتهى أمرهم، اما بالقتل أو بالخلع[3]. وهكذا لم يعد للخلفاء العباسيين في ذلك العصر من الخلافة إلا الإسم والمظهر. في حين كان المتسلطون على الخلافة يجمعون في أيديهم الأمر والنهي. وكان من الطبيعي ألا يحظى الخليفة العباسي بقدر كاف من الإحترام في سائر أطراف دولته، وغدا رمزاً دينياً لا أكثر.

جـ ـ تفكك وحدة الدولة وتمرد الأطراف:

أدى ضعف الدولة العباسية في العصر الثاني إلى عدم احتفاظها بوحدتها وتماسكها، وبالتالي تفككها. إذ استهان الولاة في الأقاليم بالسلطة المركزية في العاصمة، واستقلت بعض الولايات، وقامت فيها أسر حاكمة يتولى أفرادها الحكم عن طريق الوراثة. وإن دانت هذه الدول المستقلة بالتبعية للخلافة العباسية. وإنما كانت تبعية اسمية في معظم الحالات، فقد تتعدى ذكر اسم الخليفة في الخطبة، أو إرسال بعض الأموال إليه. أما ما عدا ذلك، كان حاكم كل دولة يتصرف كما لو كان مستقلاً تماماً في سياسته الداخلية والخارجية. وبلغ الأمر عند بعض الحكام أنهم أصطدموا حربياً بجيوش الخلافة. وحققوا انتصارات عليها[4] مما ثبّت مكانتهم ودعم استقلالهم. وهذا ما يجعلنا ننظر إلى الدولة العباسية لنجدها مفككة

---

(١) العرب والإسلام والخلافة العربية ٢٧١.

(٢) تاريخ الطبري ٩ / ٣٨٩ ـ ٣٩٠.

(٣) العرب والإسلام والخلافة العربية ٢٦٩ ـ ٢٧٢.

(٤) أنظر الفصل التاسع والعاشر من هذا الكتاب.

الأوصال، ليس للسلطة المركزية فيها أي سلطان على الولايات والأطراف.

٢ ـ عصر نفوذ الأتراك:

بدأ العصر العباسي الثاني أو عصر نفوذ الأتراك من سنة ٢٣٢ هـ/ ٨٤٦ م. وفيه ظهر ضعف الخلافة العباسية بوضوح، وأخذت مكانتها تضمحل في نظر الدول المعاصرة مجاورة كانت أو غير مجاورة، إسلامية كانت أو غير إسلامية. ولم يبق في قبضة الخلفاء العباسيين سوى العراق وفارس والأهواز وحتى هذه النواحي طفحت بالإضطرابات والفتن. وآل الأمر إلى أن قبض على زمام الأمور في العاصمة أمير تركي أو ديلمي أطلق عليه اسم أمير الأمراء، أصبح هو الحاكم الفعلي للدولة وبيده الأمر والنهي.

تولى الخلافة في هذا العصر إثنا عشر خليفة هم: المتوكل والمنتصر والمستعين والمعتز والمهتدي والمعتمد والمعتضد والمكتفي والمقتدر والقاهر والمتقي والمستكفي حكموا جميعاً مائة سنة وسنتين. ومن هؤلاء الخلفاء انتهى أربعة خلفاء نهاية هادئة طبيعية، في حين انتهى أمر الثمانية الباقين اما بالقتل أو بالخلع.

١٠ ـ جعفر المتوكل على الله: ٢٣٢ ـ ٢٤٧ هـ/ ٨٤٦ ـ ٨٦١ م.

١ ـ خلافته:

ولي جعفر المتوكل على الله بن المعتصم بن الرشيد الخلافة بعد وفاة أخيه الواثق، واستمر عهده نحواً من خمس عشرة سنة. ومن حسناته أنه أبطل المناقشة في القرآن الكريم وخلقه، وأمر الشيوخ المحدثين بالتحديث وإظهار السنة والجماعة. فكان لهذا الإجراء أثره الطيب في نفوس المسلمين. وأكثر في مجلسه من المضاحك والمهازل والمغاني(٥).

٢ ـ سياسته الداخلية:

أ ـ المتوكل والأتراك:

عمل المتوكل على إضعاف القواد الترك بعدما لمس ازدياد نفوذهم

(٥) مروج الذهب ٤ / ٣ ـ ٤.

واستبدادهم بالأمور واستئثارهم بالأموال. وبدأ بالقائد ايتاخ الذي جمع في قبضته أكثر مناصب الدولة الكبرى[٦]. فقبض عليه وسجنه إلى أن مات في سجنه، وفكر في التخلص من نفوذ الأترك بنقل عاصمته من سامراء ـ التي انشئت لتكون مقراً لغلمان الأتراك وأجنادهم ـ إلى دمشق، وفعلاً انتقل إليها ومعه الدواوين. لكن غلمان الأتراك وأجنادهم أثاروا الشغب ضد عمل المتوكل هذا واتهموه بالتخلص منهم والإستعانة بالعرب عليهم. وما زالوا به حتى أرغموه على العودة إلى سامراء متحججاً بحجة واهية، وهي أن هواء دمشق لم يعجبه[٧].

ب ـ المتوكل والعلويين:

شهد عهد المتوكل عدة اضطرابات في جميع أنحاء الدولة. ولما كان المتوكل يجالس على الغالب جماعة اشتهروا بالنصب وبغض علي بن أبي طالب ـ فكانوا يخوفونه من العلويين، ويشيرون عليه بإبعادهم والإساءة إليهم[٨]. فقد مضى في كراهيته للعلويين حتى أمر في سنة ٢٣٧ هـ/ ٨٥١ م بهدم قبر الحسين بن علي بكربلاء وهدم ما حوله من المنازل والدور وأن يحرث ويبذر ويسقى موضع قبره.

كذلك وشي بأبي الحسن علي الهادي بن محمد الجواد بن علي الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق ـ إمام الأمامية في عهد المتوكل ـ إلى المتوكل الذي استحضره من المدينة إلى سامراء، وأجبره على الإقامة فيها نحواً من عشرين سنة إلى أن توفي المتوكل. وطيلة إقامة أبي الحسن في سامراء لم يسلم من أذى المتوكل وجماعة النصب. وغلب عليه لقب «العسكري» نسبة إلى سامراء المعروفة بالعسكر. هذا ولم يكن أبي الحسن العسكري العلوي الوحيد الذي لحقه الأذى من المتوكل. فيحيى بن عمر بن زيد بن علي بن الحسين قبض عليه وضرب بالمقارع وسجن في بغداد.

---

(٦) انظر مميزات العصر العباسي الثاني في الصفحات السابقة من هذا الفصل.
(٧) مروج الذهب ٤ / ٣٢.
(٨) الفخري في الأداب السلطانية ٢٣٧.

جـ - المتوكل والحركات الانفصالية في الأقاليم:

شهد عهد المتوكل عدة اضطرابات في جميع أنحاء الدولة كما أسلفنا، إلا أن أقواها كان في أرمينيا وأذربيجان. كما قامت في صنعاء باليمن حركة إنفصالية استطاعت أن تستقل بنجد اليمن سنة ٢٤٧ هـ / ٨٦١م، وأسست دولة عرفت بالدولة اليعفرية نسبة إلى مؤسسها «يعفر بن عبد الرحيم» واستمرت هذه الدولة قائمة حتى سنة ٣٨٧ هـ/ ٩٩٧ م.

٣ - سياسته الخارجية:

استمرت العلاقات العدائية بين العباسيين والبيزنطيين. فيقوم العباسيون على عادتهم بغزواتهم الصائفة لبلاد الروم، ويعودون بعد تدمير قراهم وأسر أعداد كبيرة منهم. بينما كان البيزنطيون يغيرون على أطراف الدولة الإسلامية عند «سمياط» والثغور الإسلامية. ومن ذلك فقد أغاروا على دمياط سنة ٢٣٨ هـ/ ٨٥٢ م في مراكب زادت على ثلاثمائة مركب، فدخلوها في غياب حاميتها، وأشعلوا النار في بيوتها وجامعها، وبعد أن خربوها وسبوا عدداً من رجالها ونسائها انصرفوا عائدين إلى بلادهم[٩].

وتواصل الفداء بين المسلمين والبيزنطيين منذ عهد هرون الرشيد، إذ تمت عملية الفداء مرتين. وفي عهد الواثق مرة واحدة، أما في عهد المتوكل تم الفداء للمرة الرابعة عهد الخلفاء العباسيين سنة ٢٤١ هـ/ ٨٥٥ م على نهر اللامس[١٠]، ففودي من المسلمين في سبعة أيام عدد كبير من الرجال والنساء، كما تبادل الطرفان في فداء خامس سنة ٢٤٦ هـ/ ٨٦٠ م[١١].

٤ - ولاية العهد:

تشبه المتوكل بجده هرون الرشيد في ولاية العهد، إذ جعلها لأولاده الثلاثة: المنتصر والمعتز والمؤيد، وذلك سنة ٢٣٥ هـ/ ٨٤٩ م، كما قسم البلاد بينهم.

---

(٩) تاريخ الطبري ٩ / ١٩٣ - ١٩٥. والكامل في التاريخ. جـ ٥ / ٢٩٢.

(١٠) تاريخ الطبري ٩ / ٢٠٢.

(١١) المرجع السابق ٩ / ١٧٥ - ١٨١

«وعقد لكل واحد لواءين: أحدهما اسود وهو لواء العهد، والآخر أبيض وهو لواء العمل». وبسبب محبته لزوجته قبيحة رأى أن يقدم ابنه ـ المعتز ـ منها على أخويه المؤيد والمنتصر. فلم يرض بذلك المنتصر، ودبر مؤامرة مع الأتراك لإغتيال أبيه. ونجحت المؤامرة لأن الأتراك أوجسوا خيفة من نوايا المتوكل تجاههم، والتفوا حول «بغا الصغير» و«باغر التركي»، ونفذوا جميعاً ما اتفقوا عليه مع المنتصر فقتلوا المتوكل في أوائل شوال سنة ٢٤٧ هـ/ ٨٦١ م(١٢).

١١ ـ محمد المنتصر بالله: ٢٤٧ ـ ٢٤٨ هـ/ ٨٦١ ـ ٨٦٢ م.

ما أن نجحت مؤامرة قتل المتوكل التي دبرها الأتراك بالإشتراك مع ابنه محمد المنتصر حتى بويع بالخلافة المنتصر سنة ٢٤٧ هـ/ ٨٦١ م. لكنه لم يبق فيها أكثر من ستة أشهر بسبب وفاته سنة ٢٤٨ هـ/ ٨٦٢ م(١٣).

يبدو أن المنتصر ندم على تعاطفه مع الأتراك ضد أبيه، وتكفيراً لفعلته تلك، أخذ يسبهم، ويردد: «هؤلاء قتلة الخلفاء». وثأرا لأبيه أقدم على قتل الفتح بن خاقان بحجة أنه قاتل المتوكل.

وبالرغم من ميله إلى سفك الدماء(١٤) فقد عامل العلويين معاملة حسنة، وسمح لهم بزيارة قبر الحسين بعد أن كان أبوه قد منعهم من ذلك. وأطلق أوقاف الطالبين وأبطل ملاحقة شيعتهم وإلحاق الأذى بهم، فجعل الناس يحبونه ويميلون إليه مع تخوفهم منه.

١٢ ـ أحمد بن محمد المعتصم المستعين بالله: ٢٤٨ ـ ٢٥٢ هـ/ ٨٦٢ ـ ٨٦٦ م.

بويع أحمد بن محمد المعتصم بن الرشيد المستعين بالله بالخلافة يوم وفاة محمد المنتصر بعد أن أجمع القواد الأتراك على توليته وعدم تولية أحد من أولاد المتوكل خوفاً من الثار لأبيهم منهم. وحينما بايعوه بالخلافة كان له من العمر ثمانٍ وعشرون سنة، ولقب المستعين بالله. وهو لذلك لم يكن له أي نفوذ أمام سيطرة

---

(١٢) الفخري في الأداب السلطانية ٢٣٧ والعرب والاسلام والخلافة العربية ٢٧٠.

(١٣) الفخري في الأداب السلطانية ٢٣٩.

(١٤) المرجع السابق. والصفحة ذاتها.

الأتراك وقادتهم مثل: وصيف وبغا واتامش حتى قال بعض الشعراء:

خليفة في قفص ... بين وصيف وبغا
يقول ما قاله له ... كما تقول الببغا

وفي عهد المستعين بالله، عاود العلويون خروجهم على الحكم العباسي. فبعدما فشل يحيى بن عمر الزيدي في إقناع كبار رجال الدولة في بغداد وسامراء، لجأ إلى الأعراب وأهل الكوفة، فناصروه وتمكن بفضلهم من الإستيلاء على الكوفة والدعوة إلى: الرضا من آل محمد. ثم انضم إليه العامية من أهل بغداد. ومع هذا لم تمض مدة حتى حلت الهزيمة به على أيدي العباسيين، وقتل يحيى بن عمر نفسه[١٥] وحملت رأسه إلى المستعين بسامراء حيث علقت بدار العامة، الأمر الذي أثار غضب الناس، فأرسل الرأس إلى بغداد ليعلق بها لكن تذمر أهلها حال دون ذلك.

لم يكن يحيى بن عمر الوحيد الذي خرج من الزيدية، في خلافة المستعين بالله. فقد خرج الحسن بن زيد بن محمد بنواحي طبرستان واستولى عليها. الأمر الذي أدى إلى استعلاء أمره وازدياد عدد أنصاره فتم له السيطرة على بلاد طبرستان بكاملها. فما كان من الخليفة العباسي المستعين إلا أن طلب إلى قائده التركي «وصيف» توجيه قوة عسكرية إلى همذان لتمنع الحسن بن زيد من تجاوزها. وهكذا نجح الحسن بن زيد بن محمد في تكوين دولة زيدية بطبرستان استمرت نحواً من قرن كامل[١٦] ٢٥٠ - ٣٣٥ هـ/ ٨٦٤ - ٩٦٥ م.

لم يمض وقت طويل حتى دب الخلاف بين زعماء الأتراك على النفوذ. فلم يرض «وصيف» و«بغا» عن استئثار «أتامش» بالسلطة والنفوذ، فدبرا له مؤامرة. ونجحا في قتله سنة ٢٤٩ هـ/ ٨٦٣ م[١٧]. وحتى ينفردان بالسلطة من دون بقية الزعماء الأتراك اتفقا على قتل القائد «باغر» في الوقت الذي كان هو الآخر يدبر

---

(١٥) الكامل في التاريخ ٥ / ٣١٤ - ٣١٥.
(١٦) المرجع السابق ٥ / ٣١٦ - ٣١٧.
(١٧) المرجع السابق ٥ / ٣١٣.

لقتل «بغا» و«وصيف»والخليفة المستعين بالله. وحالفهما الحظ ونجحا أيضاً في قتل «باغر»[١٨]، فهاج أصحابه هياجاً شديداً وهددوا بالإنتقام من قتلته.

فلم يكن من مجال أمام «بغا» و«وصيف»إلا أن صحبا المستعين بالله، وفروا إلى بغداد سنة ٢٥١ هـ/ ٨٦٥ م، وأنزلا الخليفة بدار محمد بن عبدالله بن طاهر[١٩]، ثم لحق بالخليفة فريق من الأتراك أصحاب «باغر» إلى بغداد واعتذروا له عما بدر منهم، وطلبوا منه العودة إلى سامراء، فامتنع عن تلبية رغبتهم عندها انصرفوا غاضبين، واجمعوا على مبايعة ابن عمه المعتز بن المتوكل. وكان الأخير وأخوه المؤيد في الحبس، وأخرجوهما وبايعوا المعتز بالخلافة، وجعلوا لأخيه ولاية العهد.

وبانقسام زعماء الأتراك، انقسمت الدولة العباسية بين: سامراء وبها المعتز الذي ولاه الأتراك أصحاب «باغر» بدلاً من المستعين بالله، وبغداد وفيها المستعين يشد أزره «بغا» و «وصيف»ومن معها. وهكذا عمل محمد بن عبد الله بن طاهر على تحصين بغداد ومنع «المبرة» عن سامراء. ثم كانت الحرب بين الطرفين سنة ٢٥١ هـ/ ٨٦٥م. التي استمرت عدة أشهر تضايق بسببها أهل بغداد[٢٠].

ولما طلب المستعين بالله مساعدة محمد بن عبدالله بن طاهر خذله ومال إلى المعتز، فحلت الهزيمة به وأبعد إلى واسط حيث اختير أحمد بن طولون ليصحبه ويرعى شؤونه. لكن جماعة القائد «باغر» لم يطمئنوا إلى بقاء المستعين بالله على قيد الحياة، فدبروا له مكيدة انتهت بمقتله سنة ٢٥٢ هـ/ ٨٦٦ م[٢١].

١٣ ـ أبو عبدالله محمد المعتز بالله: ٢٥٢ ـ ٢٥٥ هـ/ ٨٦٦ ـ ٨٦٩م.

قال ابن طباطبا[٢٢]: بويع بالخلافة عقيب خلع المستعين.... ولم يكن بسيرته ورأيه وعقله بأس، إلا أن الأتراك كانوا قد استولوا منذ قتل المتوكل على

(١٨) الكامل في التاريخ ٥ / ٣١٨ ـ ٣١٩.
(١٩) المرجع السابق ٥ / ٣١٩ ـ ٣٢٤.
(٢٠) تاريخ الطبري ٩ / ٢٨٣ ـ ٣١٧.
(٢١) تاريخ الطبري ٩ / ٣٤٨ ـ ٣٥٤.
(٢٢) الفخري في الأداب السلطانية ٢٤٣.

المملكة واستضعفوا الخلفاء. كان الخليفة في يدهم كالأسير إن شاؤوا أبقوه، وإن شاؤوا خلعوه، وإن شاؤوا قتلوه».

فقد قضى المعتز قرابة الثلاث سنوات ونصف السنة في الخلافة ٢٥٢ ـ ٢٥٥ هـ/ ٨٦٦ ـ ٨٨٩ م. ولم يكن له فيها أي أمر، لأن الأتراك كانوا أصحاب النفوذ والسلطان، ولا حيلة معهم إلا مراعاة جانبهم حيناً ومحاولة الدس لبعض من يخشى بأسه منهم أحياناً.

ولما كان المغاربة الذين اصطنعهم المعتصم مثلما اصطنع الأتراك يشكلون فريقاً هاماً يحقد على الأتراك لتسلطهم وعلو كلمتهم، فقد تصدى المغاربة للأتراك، وقالوا لهم[٢٣]: «كل يوم تقتلون خليفة وتخلعون آخر وتقتلون وزيراً». فاشتدت الفتنة بين طوائف الجند والخليفة عاجز عن أن يفعل شيئاً في الوقت نفسه الذي احتدمت المنافسات بين زعماء الأتراك أنفسهم.

ولم يسلم المعتز نفسه من طوائف الجند، إذ تآمر عليه جميع الطوائف وذهب الجنود إليه، وقالوا: «أعطنا أرزاقنا». وبما أن بيت المال كان خالياً، أرسل الخليفة المعتز إلى أمه قبيحة ـ كانت ذات ثروة طائلة ـ يسألها أن تعطيه مالاً يستعين به على مطالب الجند. فأنكرت أن يكون عندها شيء من المال. عندها اتفق الجند من أتراك وفراغنة ومغاربة على خلع المعتز. وفي ذلك يقول ابن الأثير[٢٤] «فدخل إليه جماعة منهم، فجروه برجله إلى باب الحجرة، وضربوه بالدبابيس وخرقوا قميصه وأقاموه من الشمس في الدار، فكان يرفع رجلاً ويضع أخرى لشدة الحر، وكان بعضهم يلطمه وهو يتقي بيده. وسلموا المعتز إلى من يعذبه، فمنعه الطعام والشراب ثلاثة أيام، فطلب جرعة من ماء البئر فمنعوه، ثم أدخلوه سرداباً وحصصوا عليه، أي جعلوه في بيت وسدوا بابه، فمات».

١٤ ـ محمد المهتدي بالله: ٢٥٥ ـ ٢٥٦ هـ/ ٨٦٩ ـ ٧٨٠ م.

تولى الخلافة محمد المهتدي بالله بن الواثق، بعد مقتل أخيه المعتز، لكن

---

(٢٣) تاريخ الطبري ٩ / ٣٦٩.

(٢٤) الكامل في التاريخ ٥ / ٣٤١ ـ ٣٤٢.

العامة في بغداد رفضوا مبايعته، وأعلنوا الثورة عليه، فما كان منه إلا أن أغرى بعضهم بالمال فأخمد ثورتهم. كان محمد المهتدي يتشبه بعمر بن عبد العزيز. وفي عهده حرم الغناء والشراب ومنع أصحابه من الظلم والتعدي[٢٥].

واجهت المهتدي مشاكل كثيرة بالرغم من قصر مدة خلافته. ذلك أن الجند ثاروا عليه بسبب استيلاء أمير بغداد على رواتبهم. كما ثار عليه العلويون في طول البلاد الإسلامية وعرضها. ومنهم الحسن بن زيد العلوي الذي ثار بطبرستان[٢٦]. وفي أيامه، ثار صاحب الزنج فهدد الدولة العباسية زهاء أربع عشرة سنة[٢٧]: ٢٥٥ - ٢٧٠ هـ/ ٨٦٦ - ٨٨٠ م وقد كان الزنج يكسحون السّباخ[٢٨] فنجحوا بقيادة علي بن محمد بن أحمد بن عيسى بن زيد بن علي بن أبي طالب في اجتياح أراض واسعة ونهب الأهواز، والبصرة وواسط قبل أن يقضي عليهم الموفق (طلحة) شقيق الخليفة المعتمد على الله ٢٥٦ - ٢٧٩ هـ.

واتخذت ثورة أحمد بن عيسى بن الشيخ الذي كان أبوه والياً على فلسطين والأردن شكل الحركة الإنفصالية عن الخلافة العباسية. إذ لما مات والده تغلب على دمشق وامتنع عن حمل المال إلى بيت المال العباسي، وأخذ يطمع في الإستيلاء على بقية بلاد الشام بل ومصر أيضاً. ولم يستطع الخليفة المهتدي اخضاعه إلا بعد جهد وعن طريق استخدام المكايد.

وبلغت الدولة العباسية، في أيام المهتدي درجة أصبح من الصعب اصلاح أمورها بسيرته الحسنة وأخلاقه الطيبة. الأمر الذي أصبح معه المهتدي ألعوبة في أيدي الأتراك. وصور الطبري ضعف الخلافة العباسية آنذاك بقوله[٢٩]: «رفع

---

(٢٥) الفخري في الآداب السلطانية ٢٤٦.

(٢٦) تاريخ الطبري ٩ / ٢٧١ - ٢٧٦.

(٢٧) مروج الذهب. ٤ / ١٠٨ - والكامل في التاريخ جـ ٥ / ٣٤٦ - ٣٥٠. ولمزيد من التفاصيل يرجى مراجعة كتاب: ثورة الزنج لأحمد علي منشورات دار مكتبة الحياة. بيروت ١٩٦١.

(٢٨) Sourdel, Dominique. L'islam médiéval, presse univeristaire de france PARIS 1979 P 180.

(٢٩) تاريخ الطبري ٩ / ٤٥٦ - ٤٦٩. ومروج الذهب جـ ٤ / ٩٧ والكامل في التاريخ جـ ٥ / ٣٥٥.

المهتدي يديه إلى السماء ، ثم قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه «اللهم إني أبرأ إليك من فعل موسى بن بغا» واخلاله بالثغر وإباحته العدو. فإني قد أعذرت فيما بيني وبينه . اللهم تولى كيد من كايد المسلمين . اللهم إني شاخص بنيتي واختياري إلى حيث نكب المسلمون فيه، ناصراً لهم ودافعاً عنهم. اللهم فآجرني بنيتي إذ عدمت صالح الأعوان. ثم انحدرت دموعه وبكى . . . » ،

ولما اشتد الضيق بالخليفة من استبداد موسى بن بغا الذي التف حوله الجند حاول أن يتخلص منه بالحيلة عن طريق استمالته أحد قواد الجيش المدعو «بكباك» لكن بكباك هذا لم يثق بالمهتدي، واتفق مع موسى بن بغا على عزله وقتله . وفعلاً خلعوه واستمروا يعذبونه حتى مات في سنة ٢٥٦ هـ/ ٨٧٠ م .

الفصل الثامن

خلفاء العصر العباسي الثاني (٢)

١٥ ـ أبو العباس أحمد المعتمد على الله: ٢٥٦ ـ ٢٧٩ هـ/ ٨٧٠ ـ ٨٩٢ م.

بويع أبو العباس أحمد بن المتوكل ـ المعتمد على الله ـ بالخلافة سنة ٢٥٦ هـ/ ٨٧٠ م، وظل بها حتى مات سنة ٢٧٩ هـ/ ٨٩٢ م. وكان طيلة فترة حكمه الطويلة بالقياس إلى حكم من سبقه من الخلفاء في العصر العباسي الثاني، مستضعفاً على حد قول ابن طباطبا[١]: «كان المعتمد مستضعفاً، وكان أخوه الموفق طلحة الناصر هو الغالب على أموره، وكانت دولة المعتمد دولة عجيبة الوضع كان هو وأخوه الموفق كالشريكين في الخلافة، للمعتمد الخطبة والسكة والتسمي بإمرة المؤمنين، ولأخيه طلحة الأمر والنهي وقود العساكر ومحاربة الأعداء ومرابطة الثغور، وترتيب الوزراء والأمراء، وكان المعتمد مشغولاً عن ذلك بلذاته».

وهذا الوضع فرضته الأحداث في زمن المعتمد بعدما اشتدت المنافسة بين زعماء الأتراك، فاتفقوا على أن يتولى أمر الجيش أحد أخوة أمير المؤمنين، وألا يرأسهم أحد منهم ـ الأتراك ـ. فاستدعى الخليفة المعتمد لذلك أخاه أبا أحمد طلحة من مكة على أنه جعل ولاية العهد لإبنه جعفر، ومن بعده لأخيه أبي أحمد طلحة الذي دعاه «الموفق». ومن ثم طلب إليه تدبير أمور البلاد الشرقية. واختص ابنه بتدبير البلاد الغربية[٢]. لكن طلحة ـ الموفق ـ الذي كان أقوى شخصية وأكثر

(١) الفخري في الآداب السلطانية ٢٥٠.

(٢) السيوطي. تاريخ الخلفاء ٣٦٣.

كفاءة من أخيه المعتمد وابنه جعفر، استبد بالأمور كما ذكر ابن طباطبا.

والحق يقال ان المعتمد كان شغوفاً بالطرب واللهو والملاهي ومعاقرة الخمرة، والإستماع إلى الغناء والرقص ومجالسة الندماء[٣]. يُروى عن المعتمد أنه احتاج يوماً إلى ثلاثمائة دينار فمنعت عنه، فقال.

أليس من العجائب أن مثلي ... يرى ما قلّ ممتنعاً عليه
وتؤخذ باسمه الدنيا جميعاً ... وما من ذاك شيء في يديه
إليه تحمل الأموال طرّاً ... ويمنع بعض ما يجبى إليه

وظهرت أحداث هامة في عهد المعتمد على الله، مثل ثورة الزنج، واختفاء الإمام الثاني عشر عند طائفة الإمامية الإثنا عشرية[٢] وتأسيس طائفة الإسماعيلية التي تنتسب إلى إسماعيل بن جعفر الصادق[٥].

١ ـ ثورة الزنج.

الزنج طائفة من العبيد الأفارقة، كلفوا بالأعمال الشاقة دون أن يتقاضوا أجراً سوى قليل من التمر والدقيق يقتاتون به. وسط هذه الأوضاع ظهر رجل يقال له: علي بن محمد بن أحمد بن عيسى بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب[٦]، اشتهر بفصاحته وبلاغته، ونبله. استطاع أن يستميل قلوب العبيد من الزنج بالبصرة ونواحيها حينما قال: بأن ساعة القضاء على الرق والعبودية قد حانت. فاجتمع إليه منهم خلق كثيرون، وناس آخرون من غيرهم، حتى عظم

(٣) مروج الذهب ٤ / ١٣١ ـ ١٣٨.

(٤) طائفة الأمامية الإثنا عشرية يؤمن اتباعها بإمامة: علي بن أبي طالب ـ الحسن بن علي ـ الحسين بن علي ـ محمد الباقر ـ جعفر بن محمد الصادق ـ موسى بن جعفر ـ علي بن موسى الرضا ـ محمد الجواد ـ علي الهادي ـ الحسن العسكري ـ وأخيراً المهدي

(٥) انقسمت الإسماعيلية بعد سنة ٤٨٨ هـ/ ١٠٩٥ م إلى فرقتين: فرقة تقول بإمامة المستعلي بالله ابن الخليفة الفاطمي المستنصر بالله، فعرفت بالمستعلية، وفرقة تطعن في إمامة المستعلي بالله، وتقول بأحقية نزار ـ ابن المستنظر بالله أيضاً ـ، فسميت النزارية. أنظر ذلك في: «الحياة الإجتماعية في مصر القاهرة» للمؤلف ٥٧ ـ ٥٨.

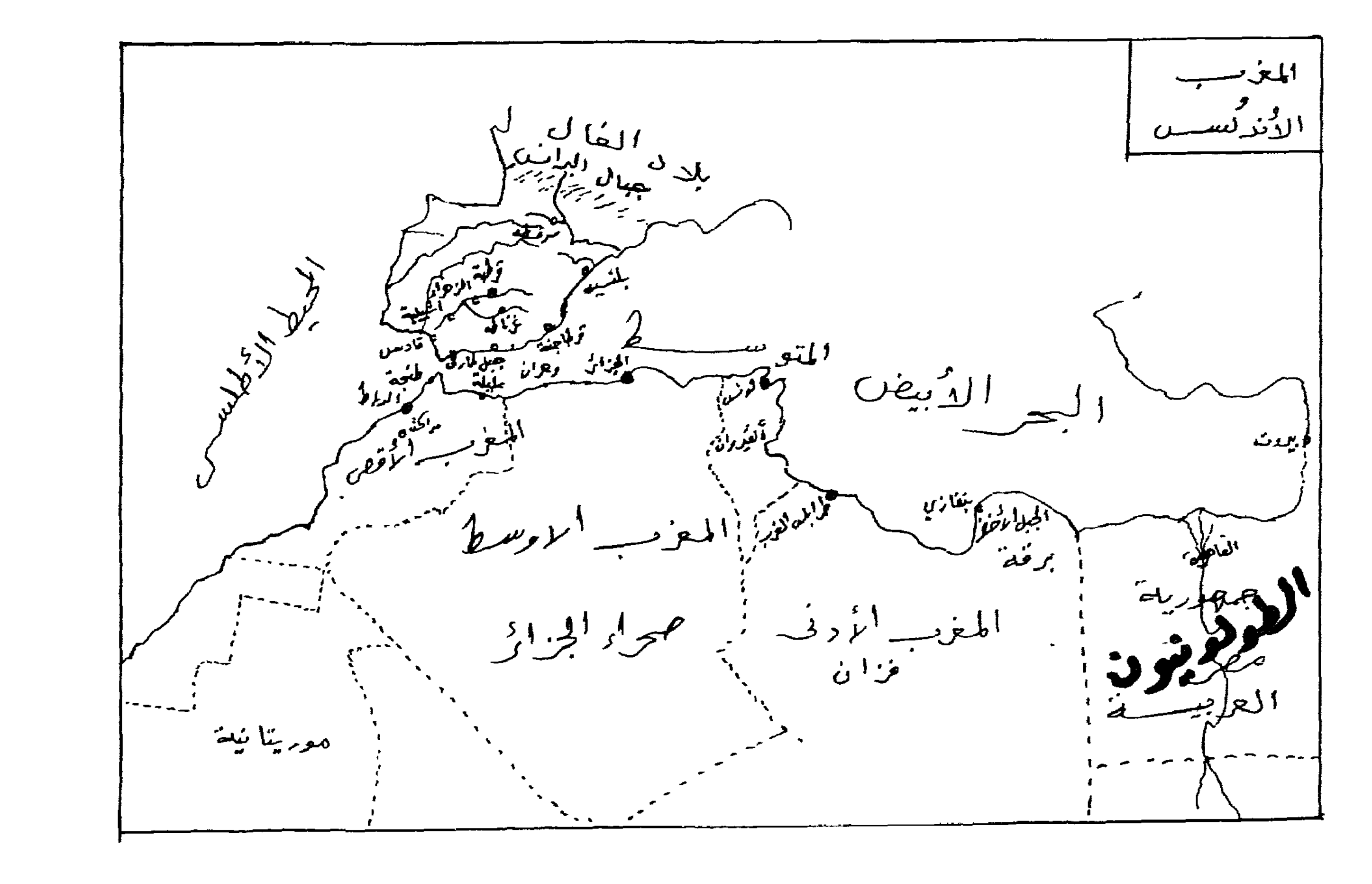
(٦) الفخري في الأداب السلطانية ٢٥٠ والكامل في التاريخ ٥ / ٣٤٦ ـ ٣٥٠.

شأنه وقويت شوكته، وصار له عز بعد فاقة، حينما غزا أصحابه المدن ينهبون ويشيعون الذعر في قلوب الأهالي فأثرى بسببها وعظم حاله ونهيه.

عبثاً حاول الخليفة المعتمد على الله صدهم، بعدما انتشروا في البلاد العراقية والبحرين وهجر، بإرسال الجيوش العباسية بقيادة كبار قادته مثل «موسى ابن بغا»، فتحرز هذه الجيوش انتصارات جزئية، وتقتل بعض أعداد من الزنج، ولكن دون أن تنجح في القضاء على حركتهم. عند ذلك اضطر الخليفة بعدما استفحل أمرهم، وازداد خطرهم، إلى الإستعانة بأخيه الموفق الذي قاد الجيوش العباسية، وخرج لقتالهم سنة ٢٦٧ هـ/ ٨٨١ م، فحاصر مدينتهم التي بنوها وأسموها «المختارة» حتى استولى عليها. واستمر الموفق في قتالهم سنين كثيرة حتى اضطرهم في آخر الأمر إلى الاستسلام بعد أربع عشرة سنة (٢٥٥ - ٢٧٠ هـ/ ٨٦٩ - ٨٨٣ م) قتل فيها بضعة آلاف، كما قتل صاحب الزنج نفسه علي بن محمد بن أحمد بن عيسى بن زيد[٧].

هذه الحرب الطويلة، إلى جانب الأحداث الأخرى، كلفت الخلافة العباسية أموالاً طائلة، وأفرغت بيت المال من محتوياته، في الوقت الذي أثقل فيه العمال الأهالي بالضرائب بالرغم من استبدادهم بالولايات وتلكئهم عن حمل الخراج إلى دار الخلافة. تجاه هذا الأمر لم ير الموفق - شقيق الخليفة - بدأ من الإلتجاء إلى أحمد بن طولون - والي مصر - ليمده بالمال. ولما علم الخليفة المعتمد على الله بذلك، أرسل إلى ابن طولون كتاباً يأمره فيه بضرورة حمل مال مصر إلى دار الخلافة. في الوقت نفسه أرسل كتاباً سرياً إلى ابن طولون يحذره فيه من أخيه الموفق. فسعى الأخير إلى صرفه عن ولاية مصر، ولما لم يتجاوب مع رغبته الخليفة المعتمد عمد إلى عزله عن الثغور الشامية، لكن الخليفة ردها إليه بعد أن اضطربت أحوالها. عندئذ ضيق الموفق الخناق على أخيه الخليفة واستبد بجميع الأمور دونه حتى أحرجه. فحاول المعتمد على الله الهرب إلى مصر بعدما تبادل الرسائل مع أحمد بن طولون، ولكن هذه المحاولة فشلت لوصول أخبارها

(٧) هو علي بن محمد بن أحمد بن علي بن يحيى بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب. ثورة الزنج ٩.



المغرب والأندلس
بلاد الغال
جبال البرانس
المحيط الأطلسي
البحر الأبيض المتوسط
قادس
طنجة
الرباط
مراكش
المغرب الأقصى
جبل طارق
مليلة
وهران
الجزائر
تونس
القيروان
طرابلس الغرب
بنغازي
الجبل الأخضر
برقة
بيروت
القاهرة
المغرب الأوسط
صحراء الجزائر
المغرب الأدنى
فزان
موريتانية
جمهورية مصر العربية

إلى مسامع الموفق[٨] الذي حال بينه وبين ذلك كما سنفصله عند حديثنا على الدولة الطولونية في الفصل الحادي عشر.

٢ ـ اختفاء الإمام محمد بن الحسن العسكري ـ الإمام الثاني عشر ـ .

توفي الإمام أبو محمد الحسن العسكري[٩] ـ علي الهادي بن محمد الجواد ابن علي الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق ـ الإمام الحادي عشر من أئمة الشيعة الإمامية الإثني عشرية في عهد المعتمد على الله سنة ٢٦٠ هـ/ ٨٧٤ م. وكان ابنه محمد في الخـــامســـة من عمره. فأصبح الإمام الثاني عشر عند تلك الطائفة.

دخل محمد بن علي الهادي سرداباً في مدينة سامراء وأمه تنظر إليه، ولكنه لم يعد، ولم يقف له اتباعه على أثر منذ ذلك الحين، أي منذ السنة التي اختفى فيها وهي سنة ٢٦٥ هـ/ ٨٧٩ م. وبحسب عقيدة الإمامية الإثنا عشرية أن محمداً سيظهر ويملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً، لذا سموه الأمام المنتظر وصاحب الزمام والقائم بالأمر والحجة.

٣ ـ تأسيس طائفة الإسماعيلية:

لجأ الأئمة الإسماعيليون إلى الإختفاء، وعمدوا إلى نشر دعوتهم، خوفاً من مطاردة العباسيين لهم، ولم يمض وقت طويل حتى انقسموا إلى فرقتين كلتاهما عملت ضد الدولة العباسية.

الأولى: اتخذت من قرية «السلمية» ـ قرب حمص ـ ، مركزاً لها، ومنها كان الأئمة يوجهون الدعاة الى جميع الأقطار. وكانت هذه الفرقة أكثر اعتدالاً من الثانية، ومنها انبثقت الدعوة الفاطمية.

الثانية: تنسب هذه الفرقة إلى زعيمها حمدان بن الأشعث المعروف بقرمط، لذلك عرفت هذه الفرقة بـ«القرامطة» الذين أقلقوا بال العباسيين في الكوفة والعراق وبادية الشام وغيرها.

---

(٨) تاريخ الطبري ٩ / ٦٢٠ ـ ٦٢١. ومروج الذهب جـ ٤ / ١٢٣.

(٩) مروج الذهب ٤ / ١١٠ والكامل في التاريخ جـ ٥ / ٣٧٣.

هذه الأوضاع أثرت على الدولة العباسية كثيراً في الداخل والخارج، إذ إن البيزنطيين استغلوا فرصة ضعف المسلمين واضطراب أحوالهم، فتحولوا من خط الدفاع إلى الهجوم، لذلك أغاروا سنة ٢٦٣ هـ/ ٨٧٧ م على حصن «لؤلؤة»[١٠]. الذي كان يشكل خطراً عليهم وعلى دولتهم، واستولوا عليه، كما وجهوا غارات عديدة على أطراف بلاد الجزيرة وثغورها.

وفي خضم هذه الظروف توفي الخليفة المعتمد على الله في رجب سنة ٢٧٩ هـ/ ٨٩٢ م ليخلفه ابن أخيه المعتضد بالله.

١٦ ـ المعتضد بالله: ٢٧٩ ـ ٢٨٩ هـ/ ٨٤٢ ـ ٩٠٢ م.

تسلم أبو العباس أحمد بن الموفق الخلافة بعد وفاة المعتمد على الله. وقد وصفه ابن الأثير بأنه كان[١١] «شهماً شجاعاً مقداماً، وكان ذا عزم وفيه شح». لذلك كان شديد الوطأة، قليل الرحمة، حتى إذا غضب على قائد من قواده أمر بإلقائه في حفرة وردم عليه.

عرفت الأوضاع الداخلية للدولة العباسية في عهده بعض الإضطراب بسبب قلق العرب من سيطرة الأتراك. فكان أن عاث بنو شيبان في الجزيرة فساداً، الأمر الذي جعل الخليفة المعتضد يتولى بنفسه حملة لتأديبهم، فنهب أموالهم وقتل منهم عدداً كبيراً. وما أن انتهى من القضاء على بني شيبان في الجزيرة حتى خرج سنة ٢٨١ هـ/ ٨٩٤ م للإستيلاء على قلعة ماردين التي أخذها عنوة حمدان بن حمدون ـ جد الأسرة الحمدانية ـ فكان له ما أراد وهدم القلعة المذكورة بعد أن قبض على حمدان[١٢].

في الوقت نفسه استفحل أمر الخارجي هارون الشاري بأرض الجزيرة. وتغلب على الجيوش الخليفية التي أرسلت لحربه، عندها اختار الخليفة للقضاء عليه حسين بن حمدان ـ مغتصب قلعة ماردين ـ. فقال له حسين: «إن جئت به

(١٠) تاريخ الطبري ٩ / ٥٣٢. وتاريخ ابن خلدون جـ ٣ / ٣٣٧ ـ ٣٣٨.

(١١) الكامل في التاريخ ٦ / ١٠١.

(١٢) تاريخ ابن خلدون ٣ / ٣٤٧.

فلي ثلاث حاجات عند أمير المؤمنين، أحداهما: إطلاق سراح أبي، وحاجتان أذكرهما بعد مجيئي. فوافق المعتضد على ذلك. وذهب حسين بن حمدان إلى الجزيرة وبدأ مطاردة الخارجي هارون الشاري إلى أن تمكن منه. عندئذ خلع عليه المعتضد بالله بعض الهدايا، وأمر بإطلاق سراح أبيه. فكان ذلك بداءة ظهور الأسرة الحمدانية[١٣].

كذلك قام المعتضد برد غارات القرامطة الذين أغاروا من البحرين وسواحل فارس بزعامة أبي سعيد الحسن الجنابي على أقليم البصرة سنة ٢٨٧ هـ/ ٩٠٠ م بعدما حلت بالمنطقة خسائر جسيمة[١٤].

لم تمنع الأحداث المعتضد بالله من التفكير بإصلاح الإدارة ولا سيما نظام الجباية، فهو من أجل ذلك يعمل على تغيير التقويم المتبع للتوفيق بين التقويم الهلالي والتقويم الشمسي.

فمن المعروف أن المسلمين كانوا يستعملون السنة الهلالية لأن عباداتهم ـ ومنها الحج والصوم ـ تسيروفقها.

وبما أن جباية الخراج تكون عند نضوج الغلات والثمار، التي لا يتغير وقتها ويتحدد بالسنة الشمسية.

لذلك كان لا بد من التوفيق بين السنة الخراجية والسنة الهلالية. وهذا التوفيق حصل بعدما رأى المسلمون أن كل ٣٢ سنة شمسية تساوي تقريباً ٣٣سنة هلالية. فعملوا كلما مرت ٣٢ سنة هلالية على إضافة سنة على السنة الخراجية. ففي سنة ٢٤١ الخراجية مثلاً، نسب الخراج إلى سنة ٢٤٢ الهلالية واسقطت سنة ٢٤١ هـ لأن الغلة إنما حان أوانها سنة ٢٤٢ هـ.

وقد كتب المعتضد إلى عماله في العراق والمشرق يطلب إليهم تطبيق هذه الطريقة علماً أن حباية الخراج في مصر كانت تتم وفق الشهور القبطية، وفي الشام وفق الشهور الرومية، وكلاهما ثابت لا يتغير لأنهما يعتمدان نظام السنة الشمسية.

---

(١٣) مروج الذهب ٤ / ١٥٧.

(١٤) تاريخ ابن خلدون ٣ / ٣٥٠.

ولما كان عيد النوروز من الأعياد التي اهتم العباسيون بالإحتفال بها مع الفرس، فقد أمر المعتضد أن يكون النوروز على حساب شهور الروم حتى لا يتقدم موعده ولا يتأخر(١٥).

إشارة أخيرة لا بد لنا من ذكرها، وهي أن المعتضد بالله انتقل من مركز خلافته في سامراء إلى بغداد، فكان ذلك بداءة عهد أفول نجمها وخرابها بعدما بلغت درجة من الحسن والجمال نافست بها بغداد.

وتوفي المعتضد بالله في ربيع الآخر سنة ٢٨٩ هـ/ ٩٠٢م بعد أن ولى الخلافة بعده ابنه أبو محمد الملقب بالمكتفي بالله.

١٧ ـ المكتفي بالله: ٢٨٩ ـ ٢٩٥ هـ/ ٩٠٢ ـ ٩٠٨م.

لم تكد تنتعش الدولة العباسية في عهد المعتمد بالله وأخيه طلحة الناصر ـ الموفق ـ الذي استبد بشؤون الحكم بين ٢٥٦ ـ ٢٧٩ هـ/ ٨٧٠ ـ ٨٩٢م، وابنه المعتضد بالله، حتى بدأت ظواهر الضعف تظهر بظهور المنافسات بين ذوي النفوذ فيها أمثال وزيره القاسم بن وهب وبن بدر ـ قائد جيش المعتضد بالله المستولى على أمره، المطاع في خدمه وغلمانه ـ فتركت أثراً سيئاً في أحوال الخلافة.

شجعت أوضاع الخلافة القرامطة على الفساد، فعاثوا تخريباً في الشام والبحرين والعراق وطريق مكة. وقد انتشروا بزعامة بن زكرويه الملقب بـ«الشيخ» حول بغداد والبصرة، واشتد خطرهم، وكثر فسادهم، حتى أنهم أحرقوا مسجد الرصافة.

كما اشتد خطر القرامطة في الشام بعدما أنزلوا الهزيمة بقوات الطولونيين. وتزعم القرامطة بالشام الحسين بن زكرويه ـ أخو يحيى ـ، فأظهر شامة في وجهه، وزعم أنها آية له، فلقب بـ«ذي الشامة» وسُمي بـ«أمير المؤمنين» بين سنتي ٢٨٩ ـ ٢٩٠ هـ/ ٩٠٢ ـ ٩٠٣م. ولم يسلم من يده صبيان المكاتب لكثرة ما

(١٥) تاريخ الطبري ١٠ / ٣٩. وكان المعتضد بالله قد أمر بترك افتتاح الخراج في النيروز الفارسي، وتأخير ذلك إلى اليوم الحادي عشر من حزيران وسمى ذلك النيروز المعتضدي.

ارتكب من أعمال قتل. فما كان من أهل الشام إلا أن رفعوا شكواهم ضده إلى الخليفة المكتفي بالله الذي عاجل بالتوجه إلى الشام عن طريق الموصل على رأس قوة من رجاله الأشداء الذين طاردوا أبا شامة حتى قبضوا عليه سنة ٢٩٠ هـ/ ٩٠٣ م مع عدد كبير من رجاله[١٦].

عندها هب والد يحيى ذي الشامة ـ وهو زكرويه ـ لإخلاء ابنه وفك أسره. فجمع زكرويه ـ رأس الفتنة ـ طوائف من أعراب البادية، وأغار بهم على «بصرى» و«أذرعات» بالشام، فارتكب كثيراً من أعمال العنف. وفي يوم عيد النحر ـ الأضحى ـ من سنة ٢٩٣ هـ/ ٩٠٦ م، أغار زكرويه ورجاله على الكوفة، عند انصراف الناس من صلاة العيد، فنهبوا وقتلوا كثيراً.

وأغار القرامطة أيضاً سنة ٢٩٤ هـ/ ٩٠٧ م على قوافل الحجاج الخراسانيين والعراقيين العائدين من مكة، فنهبوا أموالهم وأقواتهم وثيابهم[١٧].

أبدى أهل بغداد استياءهم من هذه الأعمال، فأرسلت الجيوش العباسية لمحاربة القرامطة، فتمكنت، بعد قتال طويل، من قتل زعيمهم زكرويه سنة ٢٩٤ هـ/ ٩٠٧ م وفرّ رجاله في أكثر من اتجاه[١٨].

أخذت العلاقات العباسية ـ البيزنطية بين الدولتين طابع المسالمة حيناً والعداء أحياناً في عهد المكتفي بالله.

ففي سنة ٢٩٠ هـ/ ٩٠٣ م وصلت رسل أمبراطور بيزنطية يسألون الخليفة العباسي المفاداة بمن في أيدي المسلمين من الأسرى ومعهم هدايا. فتم الفداء سنة ٢٩٣ هـ/ ٩٠٦ م[١٩]. وكانت جملة من فودي من المسلمين نحو ١٢٠٠ أسير. . .

وكما ذكرنا أعلاه، لم تدم هذه العلاقات الطيبة بين الدولتين، إذ توجه جيش

(١٦) تاريخ الطبري ١٠ / ٩٩. ومروج الذهب جـ ٤، ٤ / ١٩٠.

(١٧) تاريخ الطبري ١٠ / ١٣٠ ـ ١٣٣. والكامل في التاريخ جـ ٦ / ١١٥

(١٨) الكامل في التاريخ ٦ / ١١٦.

(١٩) الكامل في التاريخ ٦ / ١١١

إسلامي سنة ٢٩١ هـ/ ٩٠٤ م من طرسوس لمهاجمة إنطاكية التي كانت تعد من أهم الثغور البيزنطية البحرية. فتمكن المسلمون من فتحها وقتل وأسر عدد كبير من أهلها كما استولوا على ستين مركباً للبيزنطيين.

وتمت مفاداة ثانية في عهد المكتفي بالله سنة ٢٩٥ هـ/ ٩٠٨ م، فبلغ عدد من فودي به من المسلمين ثلاثة آلاف نفس من الرجال والنساء[٢٠].

وتوفي المكتفي بالله في ذي الحجة سنة ٢٩٥ هـ/ ٩٠٨ م، فخلفه أخوه المقتدر بالله.

١٨ - المقتدر بالله: ٢٩٥ - ٣٢٠ هـ/ ٩٠٨ - ٩٣٢ م.

اختير المقتدر بالله، أبو الفضل جعفر بن المعتضد بالله، خليفة وهو في الثالثة عشر من عمره. وبالرغم مما وصفه به ابن طباطبا من أنه كان[٢١] «سمحاً كريماً كثير الإنفاق»، فإنه بقي مغلوباً على أمره طوال مدة خلافته، وحتى أنه خلع مرتين. وفي ذلك يقول ابن طباطبا أيضاً[٢٢] «وأعلم أن دولة المقتدر كانت دولة ذات تخليط كثير لصغر سنه ولاستيلاء أمه ونسائه وخدمه عليه. فكانت دولته تدور أمورها على تدبير النساء والخدم، وهو مشغول بلذاته، فخربت الدنيا في أيامه وخلت بيوت الأموال واختلفت الكلمة فخلع ثم أعيد ثم قتل».

ويبدو أن مقاليد الأمور كانت بيد أمه صاحبة النفوذ القوي، التي كانت تسمى «السيدة». والتي كانت إذا غضبت من أحد الوزراء فإن مصيره كان العزل. وبلغ بها الإستهتار أن عينت قهرمانتها «تومال» على رأس ديوان المظالم. الأمر الذي أدى إلى استخفاف العامة بالدولة.

وتفشت الرشوة في عهد المقتدر، حتى صارت الوزارة تؤخذ بالرشوة، بعدما تدخل، في أمر تعيين الوزراء، الخدم والحاشية والنساء، فتقلدها بعضهم مرتين وثلاثاً. ولم يكن الصالح من الوزراء يبقى مدة طويلة في الوزارة لأن بقاءه لا يتوقف

(٢٠) تاريخ الطبري ١٠ / ١٣٨ والكامل في التاريخ جـ ٦ / ١٢٠.

(٢١) الفخري في الأداب السلطانية ٢٦٠.

(٢٢) المرجع السابق ٢٦٢.

على صلاحيته للعمل بقدر ما يتوقف على رضاء أم الخليفة وقهر مانتها وخدم الدار الذين لا همّ لهم سوى الحصول على المال بالطرق المشروعة وغير المشروعة.

وازداد خطر القرامطة على الدولة العباسية في عهد المقتدر بالله، فعاثوا فساداً ـ تخريباً ونهباً ـ في البلاد.

ـ ففي سنة ٣١١ هـ/٩٢٣ م غزا قرامطة البحرين البصرة بزعامة أبي طاهر سليمان الجنابي[٢٣]، وبعدما دخلوها، نهبوا وقتلوا كثيراً من أهلها. ثم تركوها ليتجهوا إلى طريق الحجاج، فأوقعوا بقافلة منهم، وتركوا معظم الحجاج ليموتوا جوعاً وعطشاً بعد أن أخذوا الجمال والأمول.

ـ وفي سنة ٣١٥ هـ/٩٢٧ م. سار أبو طاهر الجنابي على رأس جماعة من أصحابه القرامطة نحو الكوفة، فدخلوها وأنزلوا الهزيمة بجيش الخلافة العباسية. ثم اتجهوا إلى الأنبار، ومنها إلى أرض الجزيرة، وهم ينشرون القتل والخراب. في كل مكان تصل إليه أقدامهم، لأنهم ينزلون الهزيمة بجيش الخليفة، كلما وصل إليهم[٢٤].

ـ وفي سنة ٣١٧ هـ/٩٢٩ م غزا أبو طاهر بجنده القرامطة مكة المكرمة[٢٥]. فاستباح الحرم، وقتل الحجاج في المسجد، وفي البيت نفسه. كما قلع الحجر الأسود وخلع كسوة الكعبة، وقتل جماعة من الأشراف، ثم ألقى بجثثهم في بئر زمزم. وهكذا لم يرد الحجر الأسود إلى مكانه إلا بعد رجاء وتهديد من جانب المهدي عبيدالله العلوي مؤسس الدولة الفاطمية في شمال أفريقيا.

وكان من الطبيعي أن يشتد خطر البيزنطيين على الدولة العباسية، فأغاروا سنة ٣٠٣ هـ/٩١٥ م على ثغور المسلمين في الجزيرة. ودخلوا إلى حصن منصور وسبوا من فيه دون أن يجدوا من يصدهم.

(٢٣) الكامل في التاريخ جـ ٦ / ١٧٥. وابن كثير، أبو الفداء الحافظ. البداية والنهاية ١١/١٤٧، طبعة ١٩٦٦.

(٢٤) الكامل في التاريخ ٦ / ١٨٦ ـ ١٨٧.

(٢٥) المرجع السابق ٦ / ٢٠٣ ـ ٢٠٤.

وفي سنة ٣٠٥ هـ/٩١٧م وصل رسولان من بيزنطية إلى بغداد يسألان المقتدر بالله طلب المهادنة والفداء، فأجابهم الخليفة إلى طلبهم[٢٦].

ولكن تلك الهدنة لم تدم طويلاً لأن البيزنطيين كتبوا سنة ٣١٣ هـ/٩٢٥م إلى أهل الثغور الإسلامية يأمرونهم بحمل الخراج إليهم، وإلا تعرضوا لهجوم البيزنطيين. وفعلاً، نفذوا تهديدهم بغزو «ملطية» سنة ٣١٤ هـ/٩٢٦م وتخريبها دون أن يهب أحد لنجدة أهلها[٢٧].

وهاجم البيزنطيين في سنة ٣١٤ هـ/٩٢٦م مدينة «دبيل» في أرمينيا واقتحموها بعد قتال بسيط مع حاميتها. وفي سنة ٣١٥ هـ/٩٢٧م ظفر البيزنطيون بسرية من المسلمين خرجت من «طرسوس»[٢٨] إلى بلادهم فأبادوها عن بكرة أبيها.

وخلع المقتدر بالله عن الخلافة وبويع بها عبدالله بن المعتز. فمكث يوماً واحداً في الخلافة لأن المقتدر بالله عاد وانتصر عليه فأخذه وقتله. ولم يعد عبدالله ابن المعتز من الخلفاء لقصر مدة ولايته[٢٩]. ثم خرج مؤنس الخادم أمير الجيوش على الخليفة سنة ٣١٧ هـ/٩٢٩م، وفي سنة ٣٢٠ هـ/٩٣٢م كذلك. وقد انتهى النفور بينهما أخيراً إلى قتال ذهب ضحيته المقتدر بالله وقطع رأسه وحمله إلى مؤنس المظفر في الوقت الذي تركت فيه جثة الخليفة مرمية على قارعة الطريق، ثم بويع بالخلافة بعده أخوه القاهر بالله.

١٩ ـ القاهر بالله: ٣٢٠ ـ ٣٢٢ هـ/٩٣٢ ـ ٩٣٤م.

تولى أبو منصور محمد بن المعتضد الخلافة سنة ٣٢٠ هـ/٩٣٢م، ولقب القاهر بالله. وصفه المؤرخون بأنه كان مهيباً مقداماً على سفك الدماء، أهوج محباً الأموال، رديء السياسة. صادر جماعة من أمهات أولاد المقتدر، كما صادر أم

(٢٦) الكامل في التاريخ ٦ / ١٥٨.
(٢٧) الكامل في التاريخ ٦ / ١٨٥.
(٢٨) الكامل في التاريخ ٦ / ١٨٩ / ١٩٠.
(٢٩) الكامل في التاريخ ٦ / ٢٠٠ ـ ٢٠٣.

المقتدر، وعلقها برجل واحدة منكسة الرأس، وعذبها بمختلف أنواع العذاب من ضرب وإهانة، حتى ماتت بعد أيام قليلة حزناً على ولدها المقتدر بالله وما لحقها من عذاب(٣٠).

تآمرت جماعة الساجية(٣١)، وجماعة الحجرية(٣٢) وأخذتا تدبران لإطاحة القاهر بالله بعد أن علمتا أنه أخذ يقيم المطامير(٣٣) للفتك بزعمائهم. لكن القاهر بالله أحسّ بما أضمر له الساجية والحجرية، فألقى القبض على زعمائهم وقتلهم جميعاً.

أثار هذا الأسلوب القاسي قادة الجند، فاتفقوا على خلعه، وزحفوا إلى داره وهاجموها، وهو بداخلها مخمور، فلم يستطع الهرب. فقبضوا عليه وسملوه حتى سالت عيناه على خديه، وبذلك انتهت مدة خلافته، وظل محبوساً إلى أن مات سنة ٣٣٩ هـ/ ٩٥٠ م في عهد الخليفة الطائع لله ٣٣٤ - ٣٦٤ هـ/ ٩٤٥ - ٩٧٤ م.

٢٠ - الراضي بالله: ٣٢٢ - ٣٢٩ هـ/ ٩٣٤ - ٩٤٠ م.

هو أبو العباس أحمد بن المقتدر بن المعتضد، بويع بالخلافة سنة ٣٢٢ هـ/ ٩٣٤ م. وقد تفشى الفساد في الدولة العباسية، وكثرت الرشاوى للحصول على المناصب بعد تحكم الجند والنساء في تدبير أمور الدولة. ومع هذا كان الراضي بالله كما وصفه ابن طباطبا(٣٤): «شاعراً فصيحاً ترك مآثر للخلفاء العباسيين منها أنه:

آخر خليفة دون له شعر،
وآخر خليفة انفرد بتدبير الملك،
وآخر خليفة خطب على منبر يوم الجمعة،

---

(٣٠) الكامل في التاريخ ٦ / ٢٢٢ - ٢٢٣. والبداية والنهاية ١١ / ١٧٥ - ١٧٦.
(٣١) جماعة الساجية: أتباع يوسف بن أبي الساج أحد قواد المعتمد على الله.
(٣٢) جماعة الحجرية: فرقة من الحرس الخاص في قصور الخلفاء كانوا يقيمون في حجر منفردة. وقيل نسبة إلى حجر المشهورة - بفتح الحاء -.
(٣٣) المطامير: حفر تحت الأرض تعد للسجن والتعذيب.
(٣٤) الفخري في الآداب السلطانية ٢٨٠.

وآخر خليفة جالس الندماء ووصل إليه العلماء.

وآخر خليفة كانت مراتبه وجوائزه وخدمه وحجابه تجري على قواعد الخلفاء المتقدمين.

وخير دليل على ما وصلت إليه الدولة العباسية في أيام الراضي بالله استوزاره ابن مقلة لقاء مبلغ خمسمائة ألف دينار ـ للمرة الثالثة ـ[٣٥]. ولكنه لم يبق في الوزارة طويلاً، إذ ثار عليه الجند، فانتهت فتنتهم بعزله. ثم استوزر الراضي بالله عبد الرحمن بن داود بن الجراح الذي سرعان ما ظهر عجزه هو الآخر عن تصريف شؤون البلاد.

واتخذ الراضي بالله تدبيراً حسناً باستدعائه سنة ٣٢٤ هـ/٩٣٦ م ابن رائق ـ الذي كان والياً على واسط والبصرة ـ وسلمه مقاليد الأمور، وكلفه تدبير أعمال الخراج والصناع وأعمال المعادن في جميع النواحي. ثم لقبه «أمير الأمراء»، وأمر بأن يخطب له على جميع المنابر في الدولة العباسية[٣٦].

هذه الصلاحيات الواسعة، حدّت إلى حد بعيد من نفوذ الوزير، فلم يعد الأخير ينظر في شيء من أمر النواحي ولا الدواوين. ولم يبق له من الوزارة إلا اسمها. حتى أنه حرم من الحضور إلى دار الخلافة إلا في أيام الموكب، وعندئذٍ يحضر ليقف ساكتاً.

إذن دخلت الدولة العباسية في عهد الراضي بالله مرحلة جديدة أطلق عليها «عصر أمرة الأمراء» إذ ان صاحب هذا المنصب ـ أمير الأمراء ـ صار المتصرف في أمور الدولة وأموالها، وهو الذي يخصص للخليفة ما يكفيه من النفقات، فبطلت بيوت الأموال، واستقل العمال في الأطراف، وخلعوا الطاعة للخليفة الذي لم يبق له غير بغداد وأعمالها علماً أن الحكم فيها لأمير الأمراء وليس للخليفة.

نتيجة لهذه السياسة ظهرت منافسة قوية لابن رائق من قبل الأمراء، فزال

---

(٣٥) الفخري في الآداب السلطانية ٢٨٠ ـ ٢٨١. والبداية والنهاية ١١ / ١٨١ ـ ١٨٢ و ١٨٨.

(٣٦) الكامل في التاريخ جـ ٦ / ٢٥٤ ـ ٢٥٥. والبداية والنهاية جـ ١١ / ١٨٤. والسيوطي. تاريخ الخلفاء ٦ / ٢٥٤ ـ ٢٥٥

نفوذه سنة ٣٢٦ هـ/٩٣٨ م بعدما حاربه أبو عبدالله البريدي ـ صاحب الأهواز ـ. كما خرج عليه أحد قواده واسمه «بجكم»[٣٧]. ولم يلبث أن دخل هذا الأخير بغداد سنة ٣٢٧ هـ/٩٣٩ م. وآلت إليه «أمرة الأمراء» زهاء عامين: ٣٢٧ ـ ٣٢٩ هـ/٩٣٨ م ـ ٩٤٠ م في الوقت الذي ساءت أحوال بغداد، حتى أن العامة عاثوا في الأرض فساداً، وانقضّوا على الحمّامات العامة، وأخذوا ثياب من فيها. وكثرت المصادرات، وتفاقم خطر اللصوص الذين تسلحوا لكبس الدور ليلاً. فبلغ من سوء الأحوال أن الراضي بالله عجز عن دفع أرزاق الجند. واستمرت هذه الحالة إلى أن توفي سنة ٣٢٩ هـ/ ٩٤٠ م.

رافق حالة الفوضى والذعر الذي أصاب الناس من شر اللصوص أن اشتدت المنازعات الدينية ببغداد عاصمة الخلافة العباسية، إذ قويت شوكة الحنابلة، وصاروا يكبسون دور القواد والعامة. فإن وجدوا نبيذاً أراقوه. وإن صادفوا مغنية ضربوها وكسروا آلة الغناء[٣٨]، ولم يكتف الحنابلة بهذا المقدار، بل استعانوا بالعميان الذين يأوون إلى المساجد. فكان إذا مرّ بهم شافعي أغروا به العميان فيضربونه بعصيهم حتى يكاد يموت. كذلك لم يركن القرامطة إلى الهدوء وسط الفوضى تلك، فاعترضوا سبيل الحجاج سنة ٣٢٣ هـ/ ٩٣٥ م[٣٩].

٢١ ـ المتقي لله: ٣٢٩ ـ ٣٣٣ هـ/ ٩٤٠ ـ ٩٤٤ م

بويع إبراهيم بن المعتضد ـ المتقي لله ـ بالخلافة «وبجكم» القائد قابض بيديه زمام الأمور في الدولة العباسية. فلم يكن للمتقي من النفوذ إلا إسم الخلافة، ولكن التنافس بين الأمراء أضعف أمير الأمراء «بجكم» بالرغم من انتصاره على البريديين[٤٠] عند واسط بالعراق. ثم تتابعت عليه المصائب حتى انتهى الأمر بقتله على أيدي بعض الأكراد.

وعلى أثر موت «بجكم» دخل أبو الحسن البريدي بغداد في جيش كبير من

(٣٧) البداية والنهاية ١١ / ١٩٨ ـ ١٩٩. والسيوطي. تاريخ الخلفاء ٣٩٢.
(٣٨) الكامل في التاريخ ٦ / ٣٤٨
(٣٩) الكامل في التاريخ ٦ / ٣٤٩..
(٤٠) الكامل في التاريخ ٦ / ٣٧٣.

الأتراك والديلم، واستولى على دار الخلافة بعد أن هرب الخليفة المتقي لله وابنه ومحمد بن رائق إلى الموصل. وقتل البريديون في بغداد من وجدوه في دار الخلافة ثم عمدوا إلى النهب والأذى حتى استاء منهم معظم الناس الذين تنادوا إلى طردهم من بغداد وواسط. وبعد غيبة ثلاثة أشهر وعشرين يوماً عاد الخليفة إلى بغداد سنة ٣٣٠ هـ/٩٤١ م[٤١].

بدأ ظهور الأسرة الحمدانية في أيام خلافة المعتضد بالله العباسي (٢٧٩ ـ ٢٨٩ هـ/٨٩٢ ـ ٩٠٢ م) عندما كلّف الخليفة المعتضد بالله الحسين بن حمدان محاربة الخارجي هارون الشاري بالجزيرة وانتصر عليه ابن حمدان. وفي أيام خلافة المتقي لله لمع نجم بني حمدان في أفق الدولة العباسية عندما خلع الخليفة على الحسن بن عبدالله بن حمدان ولقبه «ناصر الدولة»، كما خلع على أخيه أبي الحسن الحمداني أيضاً ولقبه «سيف الدولة»[٤١]. وقد اتخذ ناصر الدولة ابن حمدان سلسلة إجراءات لإصلاح الأحوال في بغداد. لكن هذه الإجراءات لم تعط النتيجة المتوخاة. بل أن تيار الفساد ازداد وكثرت أعمال اللصوص بالسطو على دور الأغنياء، وارتفعت الأسعار حتى ضاق الناس، ومات العديد منهم جوعاً وانتشرت الأوبئة بعدما تركت الجثث عدة أيام بعد الوفات على الطرقات[٤٣].

على أن نجم الحمدانيين لم يبق على تلألئه في فضاء الدولة العباسية بفضل حسد الحاسدين من جانب بقية الأمراء. وقد تمثل هذا الحسد أو العداء على ثلاثة جبهات:

١ ـ خلاف سيف الدولة الحمداني وتوزون.

٢ ـ استعداد البريديين لمعاودة الهجوم على بغداد مرة ثانية، ووقوع الحرب بينهم وبين أحمد بن بويه على مسافة قريبة من البصرة.

٣ ـ سوء التفاهم بين الخليفة المتقي لله والحمدانيين.

وتفاقم سوء التفاهم هذا حينما أقدم ناصر الدولة بن حمدان على مضايقة

---

(٤١) الكامل في التاريخ ٦ / ٢٨٥ والبداية والنهاية جـ ١١ / ٢٠١ ـ ٢٠٣

(٤٢) الكامل في التاريخ ٦ / ٢٨٤ ـ ٢٨٥ والبداية والنهاية جـ ١١ / ٢٠٣

(٤٣) الكامل في التاريخ ٦ / ٢٨٤ ـ ٢٨٥. والبداية والنهاية جـ ١١ / ٢٠٢.

الخليفة وأهله بمصادرة ضياعه وضياع والدته . فبعد أقل من سنة اضطر الحمدانيون إلى العودة إلى الموصل بعد دخول القائد التركي توزون بغداد سنة ٣٣١ هـ/٩٤٢ م ليتولى إمرة الأمراء(٤٤).

ثم قام توزون بطرد البريديين من واسط بعدما استولوا عليها مجدداً لكنه اضطر إلى مصالحتهم والتفرغ لمحاربة الحمدانيين الذين لجأ الخليفة المتقي لله إلى طلب مساعدتهم بعدما ضيق عليه الخناق توزون فهرب إلى تكريت. وفيها انتصر توزون على الخليفة والحمدانيين. وتابع فلولهم حتى الموصل. فاضطروا إلى مغادرتها، وصولاً إلى نصيبين ثم الرقة. والتقى الخليفة في الرقة محمد بن طغج الأخشيد ـ صاحب الدولة الأخشيدية في مصر ـ وقد أتى ليعرض مساعدته على الخليفة. لكن الخليفة اغتر بوعود توزون بحمايته وفضّل العودة من الرقة إلى بغداد على الذهاب إلى مصر(٤٥).

لكن وعود توزون بحماية الخليفة وحلفه الإيمان الغليظة بذلك ما كانت إلا كلاماً معسولاً ووعوداً كاذبة، لأنه أراد الإستئثار بكامل السلطات وحرمان الخليفة من كل نفوذ. وتحقيقاً لمآربه عمل على مصالحة البريديين، ثم عقد صلحاً مع ناصر الدولة ابن حمدان ليتفرغ لأمر الخليفة المتقي لله . ولما أحس الخليفة بما يدبره توزون اتصل سراً ببني بويه الذين وصلوا إلى واسط، ودعاهم للقدوم إلى بغداد، مما أغضب القائد التركي توزون فقبض على الخليفة سنة ٣٣٣ هـ/٩٤٤ م، وخلعه من الخلافة وأقام عبدالله بن المكتفي بالله (٢٨٩ ـ ٢٩٥ هـ/٩٠٢ ـ ٩٠٧ م) خليفة مكانه ولقبه المستكفي بالله. أما المتقي لله فقد سمل عينيه ووضعه في السجن إلى أن مات(٤٦).

---

(٤٤) الكامل في التاريخ ٦ / ٢٩١.

(٤٥) الكامل في التاريخ جـ ٦ / ٢٩٢ والبداية والنهاية جـ ١١ / ٢٠٧ ـ ٢٠٨ وتاريخ ابن خلدون ٣ / ٤١٢ ـ ٤١٣.

(٤٦) الفخري في الآداب السلطانية ٢٨٤. والكامل في التاريخ جـ ٦/٣٠١م والبداية والنهاية ١١ / ٢١٠



الفصل التاسع

خلفاء العصر العباسي الثالث

١ - الخلافة العباسية وسلطان آل بويه:

يرجع نسب البويهيين إلى زعيم فارسي اسمه بويه. عاش في إقليم الديلم إلى الجنوب الغربي من بحر قزوين. وقد بدأ ظهورهم على مسرح الأحداث، عندما دخل علي بن بويه وأخواه الحسن وأحمد في خدمة الأمير مرداويج بن زيار صاحب بلاد جرجان وطبرستان وقزوين وزنجان والكرج.

ولي مرداويج علي بن بويه بلاد الكرج[1]، ثم ما لبث ابن بويه أن ضم إليه همذان وأصفهان وغيرهما من الأقاليم في بلاد فارس الأمر الذي جعل الأمير مرداويج يخافه. فقرر طرده من بلاد الكرج، وأرسل جيشاً كبيراً لطرده منها. فتنقل علي بن بويه حوالى سنة ٣٢٢ هـ/ ٩٣٤ م بين أصبهان واصطخر وشيراز. وأخيراً رأى ابن بويه أن من مصلحته أن يسترضي الأمير مرداويج بإقامة الخطبة له، وتقديم الهدايا الثمينة، كما أرسل أخاه الحسن ليكون رهينة عند مرداويج[2]. فلاقى هذا الأسلوب استحساناً لدى الأخير فأضاف إليه أرجان بعد أن ثبته على بلاد الكرج.

وسارت الرياح وفق ما يشتهي علي بن بويه، فكان أن قتل مرداويج سنة ٣٢٣ هـ/ ٩٣٥ م بيد جنوده الأتراك الذين تمردوا عليه بزعامة «بجكم» و «توزون». وبعد مقتل مرداويج فرّ الحسن بن بويه الذي كان رهينة عنده، وسار إلى أخيه

(١) الفخري في الآداب السلطانية ٢٧٨. والكامل في التاريخ جـ ٦ / ٢٣٢.
(٢) الكامل في التاريخ ٦ / ٢٤٦.

علي بن بويه بفارس، عندئذٍ استقوى علي بن بويه بأخويه، فأرسل أخاه الحسن ـ الأوسط ـ إلى بلاد الجبل، فاستولى عليها. كما بعث أخاه أحمد ـ الأصغر ـ إلى أهواز والعراق للإستيلاء عليهما، مستغلاً ضعف الخليفة العباسي، وقد اضطربت أمور خلافته بسبب اشتداد التنافس بين الأمراء حول منصب «أمرة الأمراء». فما كان من قواد بغداد إلّا أن بعثوا إلى أحمد بن بويه ـ وهو عند واسط بالعراق ـ يطلبون إليه المجيء إليهم. فجاء بغداد تلبية لطلبهم في جمادى الأولى سنة ٣٣٤ هـ/ ٩٤٥ م[٣].

فاستقبله الخليفة العباسي ـ المستكفي بالله ـ واحتفى به، وأعطاه «إمارة الأمراء»، وعقد له لواء، ولقبه «معز الدولة»، ولقب أخاه الأوسط «ركن الدولة» وأخاه الأكبر «عماد الدولة». وأمر أن تضرب ألقابهم على الدينار والدرهم[٤].

يعد هذا التاريخ بداءة مرحلة جديدة في تاريخ الدولة العباسية، أصبح فيها الخليفة مجرد زعيم ديني لا أمر له ولا نهي ولا وزير، إنما له كاتب يدير إقطاعاته لا أكثر. في حين غدا بنو بويه سلاطين مطلقي التصرّف في العراق، والخلفاء تحت سيطرتهم ووصايتهم. ولم يقف بنو بويه عند هذا الحد من النفوذ والتسلط، بل تعدوا على أشخاص الخلفاء انتقصوا من حقوقهم. كل ذلك لأن بني بويه كانوا شيعة زيدية، وان باعتقادهم لا حق لبني العباس في الخلافة، وانهم اغتصبوها من أصحابها الحقيقيين من أبناء البيت العلوي. فمن هنا راجت الفكرة التي تقول: بأن معز الدولة ـ أحمد ـ فكر في أن يزيل الخلافة من بني العباس ويوليها علوياً لو لم ينهه أحد أصحابه عن ذلك بقوله:[٥] «إنك اليوم مع خليفة تعتقد أنت وأصحابك أنه ليس من أهل الخلافة، ولو أمرتم بقتله لقتلوه مستحلين دمه، ومتى أجلست بعض العلويين خليفة كان معك من تعتقد أنت وأصحابك صحة خلافته، فلو أمرهم بقتلك لفعلوا». وعندئذٍ أعرض معز الدولة ـ أحمد ـ عن عزل

---

(٣) الكامل في التاريخ ٦ / ٣١٤.

(٤) الفخري في الأداب السلطانية. ٢٨٧. الكامل في التاريخ ٦ / ٣١٤ البداية والنهاية. ١١ / ٢١٢ وتاريخ ابن خلدون جـ ٣ / ٤٢٠.

(٥) الكامل في التاريخ ٦ / ٣١٥. والبداية والنهاية جـ ١١ / ٢١٢ ـ ٢١٣.

المستكفي، وأبقى اسم الخلافة لبني العباس، وانفرد هـو بالسلطان الفعلي في الدولة.

وقد تولى الخلافة العباسية، والسلطة والنفوذ بيد سلاطين آل بويه من سنة ٣٣٤ ـ ٤٤٧ هـ / ٩٤٥ ـ ١٠٥٥ م، خمسة خلفاء هم: المستكفي والمطيع والطائع والقادر والقائم. وارتبط تاريخ الدولة العباسية في ذلك الدور بسلاطين آل بويه أكثر من ارتباطه بالخلفاء العباسيين.

٢ ـ خلفاء العصر العباسي الثالث

٢٢ ـ المستكفي بالله: ٣٣٣ ـ ٣٣٤ هـ / ٩٤٤ ـ ٩٤٦ م.

أشرنا سابقاً إلى أن الخليفة المستكفي بالله استقبل أحمد بن بويه، واحتفى به، ولقبه معز الدولة. فكان أن بايع ابن بويه الخليفة، وحلف كل منهما لصاحبه، هذا بالخلافة وذاك بالسلطة.

وفي أحد الأيام ركب معز الدولة إلى دار الخلافة وسلم على المستكفي، وقبل الأرض بين يديه، وأمر المستكفي فطرح كرسي، فجلس عليه معز الدولة، ثم تقدم إلى المستكفي رجلان من الديلم بمواطأة معز الدولة فمدا أيديهما نحوه، فظن الخليفة انهما يريدان تقبيل يديه، فمد يده. فجذباه ونكساه من السرير ووضعا عمامته في عنقه، وسحباه إلى دار معز الدولة، فاعتقل بها، وخلع من الخلافة، ولم يزل في دار السلطنة معتقلاً حتى وفاته(٦).

٢٣ ـ المطيع لله: ٣٣٤ ـ ٣٦٣ هـ / ٩٤٦ ـ ٩٧٤ م.

بويع المطيع لله أبو القاسم الفضل بن المقتدر بن المعتضد ـ ابن عم المستكفي ـ بالخلافة سنة ٣٣٤ هـ / ٩٤٦ م، وطالت خلافته حتى بلغت أكثر من ٢٩ سنة وبالرغم من طول مدة خلافته، لم يكن له نفوذ فيها. وإنما كانت الكلمة الأولى والأخيرة في الدولة العباسية للسلاطين من آل بويه وهم:

---

(٦) الفخري في الأدب السلطانية. ٢٨٧. والكامل في التاريخ. جـ ٦ / ٣١٥. والبداية والنهاية ١١ / ٢١٢.

ـ معز الدولة: ٣٣٤ ـ ٣٥٦ هـ /٩٤٦ ـ ٩٦٧ م.

ـ عز الدولة بختيار: ٣٥٦ ـ ٣٦٧ هـ /٩٦٧ ـ ٩٧٧ م منها ٧ سنوات في خلافة المطيع والباقي في خلافة الطائع لله (٣٦٣ ـ ٣٨١ هـ /٩٧٤ ـ ٩٩١ م).

ومن أهم الأحداث التي واجهت المطيع لله:

١ ـ الحرب بين الحمدانيين والبويهيين:

تنازع كل من ناصر الدولة بن حمدان ومعز الدولة بن بويه السلطان في خلافة المطيع لله، إذ كان كل طرف منهما يريد الإغارة على ما بيد الآخر. ففي السنة الأولى من استلام معز الدولة بن بويه ـ أحمد ـ السلطة في بغداد هاجمها ناصر الدولة بن حمدان واستولى على الجانب الشرقي منها، لكن معز الدولة تمكن من إنزال الهزيمة بخصمه وإلحاق الأذى بالناس من جراء النهب والقتل الذي مارسه الديلم(٧).

وسار معز الدولة سنة ٣٣٧ هـ /٩٤٩ م إلى الموصل للإستيلاء عليها رداً على مهاجمة ناصر الدولة لبغداد، فتركها ابن حمدان إلى نصيبين. عندئذٍ دخل ابن بويه الموصل(٨)، وأسرف في ظلم أهلها. لكنه صالح ناصر الدولة بن حمدان مضطراً بعدما أعلمه أخوه ركن الدولة ـ حسن بن بويه ـ أن الجيوش السامانية هاجمت جرجان والري بقصد الإستيلاء عليهما حتى يتفرغ لمساعدة أخيه في رد هجمات السامانيين عن مملكته. إلا أن ناصر الدولة بن حمدان استغل فرصة انشغال معز الدولة في مساعدة أخيه، وسير أحد أولاده على رأس قوة من مقاتليه للإستيلاء على بغداد لكنه مني بالفشل.

فصمم معز الدولة على رد غدر ناصر الدولة والإنتقام بالهجوم على الموصل سنة ٣٤٧ هـ /٩٥٨ م والإستيلاء عليها. ولولا مساعدة أخيه سيف الدولة بن حمدان ـ صاحب حلب ـ مقابل ألفي ألف درهم (مليوني درهم) لم يتمكن ناصر الدولة من استعادة الموصل من البويهيين(٩).

(٧) الكامل في التاريخ ٦ / ٣١٦ والبداية والنهاية. جـ ١١ / ٢١٣.

(٨) الكامل في التاريخ ٦ / ٣٢٩. والبداية والنهاية جـ ١١ / ٢٢٠.

(٩) الكامل في التاريخ ٦ / ٣٥٣ ـ ٣٥٤. والبداية والنهاية جـ ١١ / ٢٣٣.

٢ ـ محاولة العمال والقرامطة الإستقلال بمقاطعاتهم:

كان ضعف الخلفاء العباسيين عاملاً مشجعاً للعمال على الإستقلال بمقاطعاتهم في العصر العباسي الثالث، إذا أراد أبو القاسم البريدي الإستقلال بالبصرة وقطع خراجها عن العاصمة بغداد. فما كان من معز الدولة إلا أن سار إليه سنة ٣٣٦ هـ /٩٤٨ م واستولى على البصرة(١٠). فهرب البريدي إلى هجر ـ البحرين ـ مركز تجمع القرامطة، وبدأ يحرض القرامطة لاسترداد البصرة الذين وافقوا على طلبه أخيراً وأتوا سنة ٣٤١ هـ /٩٥٣ م ومعهم أمير عمان من البحر. لكن مقاومة أهل البصرة أفشلت خطة البريدي ومن معه من القرامطة وأبعدتهم عنها.

٣ ـ عمران بن شاهين يؤسس له دولة مستقلة فوق أرض البطيحة:

قام أحد الجباة، وهو عمران بن شاهين بجباية الأموال والهرب بها إلى البطيحة(١١)، فراراً من معز الدولة البويهي، وتحصن عمران هناك. فقويت سلطته بعد أن التف حوله جماعة من الصيادين واللصوص، وأقام فوق أرض البطيحة دولة داخل الدولة العباسية. استمرت أربعين سنة: ٣٢٩ ـ ٣٦٩ هـ /٩٤٠ ـ ٩٧٩ م، لم يستطع البويهيون إخضاعها إذ ان الهزيمة كانت تحل بجنودهم في كل مرة يهاجمون بها البطائح.

٤ ـ أزمة الغلاء وتفشي الوباء:

في غمرة الحروب المتواصلة التي اضطر معز الدولة بن بويه أن يخوضها للحفاظ على سلطانه في الدولة العباسية، ، لجأ إلى زيادة جباية الأموال من الناس للوفاء بإرزاق جنوده. كما أغرى كبار قواده وأصحابه بمنحهم إقطاع القرى ليحصلوا على دخلها. كما أن محاباة معز الدولة لجنوده من الأتراك والتوسع في منحهم الإقطاعات أثارت حقد الديلم وحسدهم(١٢) مما أدى إلى منافرة بين

---

(١٠) الكامل في التاريخ ٦ / ٣٢٥ ـ ٣٢٦. والبداية والنهاية جـ ١١ / ٣١٩.

(١١) تاريخ ابن خلدون٣ / ٤٢٣ ـ ٤٢٤و ٤٢٥ و ٤٣٥. والبطيحة أرض واسعة بين واسط والبصرة تكثر فيها المستنقعات وترتفع فوقها الآجام والقصب.

(١٢) الكامل في التاريخ ٦ / ٣١٧. وتاريخ ابن خلدون. جـ٣ / ٤٢١ ـ ٤٢٢.

الطرفين. كل هذه الأعمال، وتلك الفتن كانت السبب الرئيس في اشتداد أزمة الغلاء وتفشي الوباء وكثرة الوفيات في بغداد، حتى هجرها كثير من أهلها وبيعت الدور والعقارات بالخبز كما أن الصراعات بين الأتراك والديلم أخافت التجار على أموالهم وأنفسهم، فانعدم النشاط التجاري، واضطربت الحياة الإقتصادية في بغداد في خلافة المطيع لله وقت اشتداد الخلاف المذهبي بين الشيعة والسنة.

وإزاء تلك الحالة نصح مقدم الأتراك حاجب معز الدولة ـ سبكتكين ـ الخليفة العباسي المطيع لله أن يعتزل، ويبايع ولده الطائع. فعمل بالنصيحة، وخلع نفسه من الخلافة في ذي القعدة سنة ٣٦٣ هـ / ٩٧٤ م[١٣].

٢٤ ـ الطائع لله: ٣٦٣ ـ ٣٨١ هـ / ٩٧٤ ـ ٩٩١ م.

بويع الطائع لله عبد الكريم أبو بكر بالخلافة بعد اعتزال والده المطيع لله. فاستمرت خلافته مدة ١٧ سنة وثمانية أشهر، تعاقب، فيها على النفوذ خمسة من سلاطين بني بويه وهم:

ـ عز الدولة بختيار بن معز الدولة الذي امتد عهده حتى سنة ٣٦٧ هـ /٩٧٨ م.

ـ عضد الدولة فناخسرو بن ركن الدولة حسن بن بويه ٣٦٧ ـ ٣٧٢ هـ /٩٧٨ ـ ٩٨٢ م.

صمصام الدولة أبو كاليجار المرزبان بن عضد الدولة ٣٧٢ ـ ٣٧٦ هـ /٩٨٢ ـ ٩٨٦ م.

ـ شرف الدولة أبو الفوارس شيرزيل بن عضد الدولة ٣٧٦ ـ ٣٧٩ هـ /٩٨٦ ـ ٩٨٩ م.

ـ بهاء الدولة أبو نصر فيروز بن عضد الدولة الذي امتد سلطانه إلى أيام القادر بالله من: ٣٧٩ ـ ٤٠٣ هـ /٩٨٩ ـ ١٠١٢ م منها في عهد الطائع لله: ٣٧٩ ـ ٣٨١ هـ /٩٨٩ ـ ٩٩١ م.

(١٣) الفخري في الآداب السلطانية ٢٨٩.

ازدادت حالة البلاد سوءاً في أيام خلافة الطائع لله. واشتد تيار الفتنة بين السنة والشيعة، فسفكت دماء كثيرة، وأحرقت الكرخ، وتعطلت أحوال الناس. وفي الوقت نفسه أيدت السنّة من العامة سبكتكين لكراهيتهم لبني بويه(١٤)، وما كانوا عليه من تشيّع متطرف.

في وسط هذه الأزمة كتب بختيار إلى عمه ركن الدولة بأصبهان، وإلى ابن عمه عضد الدولة طالباً مساعدتهما ضد الأتراك. فجهز إليه ركن الدولة جيشاً، في حين طمع عضد الدولة في حكم العراق، فخرج لذلك بنفسه قاصداً بغداد، وتمكن من التغلب على الأتراك سنة ٣٦٤ هـ / ٩٧٤ م، ثم أخذ يعد العدة ليحل محل بختيار. وأخيراً كان له ما أراد عندما ظهر عجز بختيار عن دفع أموال الجند الثائرين عليه والمطالبين بالأموال(١٥). فأسرع عضد الدولة إلى عزله وحل محله ابن عمه في بغداد سنة ٣٦٧ هـ /٩٧٧ م. لكن العلاقة بين الخليفة الطائع لله وعضد الدولة، لم تلبث أن ساءت، لأن الأخير حذف اسم الخليفة من الخطبة، وأمر بأن يخطب له على منابر بغداد، إضافة إلى ضرب الطبول على بابه ثلاث نوبات (نوب مفردها نوبة).

حاول بهاء الدولة أن يستميل إليه قلوب الجند عن طريق منحهم الأموال، فلما قلّت عنده الأموال، أطمعه البعض في أموال الخليفة الطائع لله، وحسّن له القبض عليه. فقبض على الخليفة وهو يصيح ويستغيث فلا يلتفت إليه أحد، وكان ذلك سنة ٣٨١ هـ / ٩٩١ م(١٦).

٢٥ ـ القادر بالله: ٣٨١ ـ ٤٢٢ هـ / ٩٧٤ ـ ١٠٣١ م.

بويع القادر بالله أبو العباس أحمد بن إسحق بن المقتدر بن المعتضد بالله بالخلافة سنة ٣٨١ هـ / ٩٧٤ م. ومكث فيها مدة طويلة ـ ٤١ سنة ـ إلى أن توفي

---

(١٤) تاريخ ابن خلدون ٣ / ٤٢٥ ـ ٤٢٨.

(١٥) تاريخ ابن خلدون ٣ / ٤٢٩.

(١٦) الكامل في التاريخ ٧ / ١٤٧ ـ ١٤٨. وإن الذي أشـار على بهاء الدولة، وأطمعه في أموال الخليفة الطائع لله، هو أبو الحسن بن المعلم.

سنة ٤٢٢ هـ /١٠٣١ م. وفي عهده ولي السلطنة بالعراق أربعة سلاطين من آل بويه هم:

- بهاء الدولة أبو نصر بن عضد الدولة: ٣٧٩ - ٤٠٣ هـ / ٩٨٩ - ١٠١٢.

- سلطان الدولة أبو شجاع بن بهاء الدولة: ٤٠٣ - ٤١١ هـ /١٠١٢ - ١٠٢٠ م.

- شرف الدولة أبو علي بن بهاء الدولة: ٤١١ - ٤١٦ هـ / ١٠٢٠ - ١٠٢٥ م.

- جلال الدولة أبو طاهر بن بهاء الدولة: ٤١٦ - ٤٣٥ هـ / ١٠٢٥ - ١٠٤٣ م.

وقد كانت العلاقة طيبة بين بهاء الدولة والخليفة العباسي القادر بالله إذ تزوج الخليفة من سكينة(١٧) ابنة بهاء الدولة بن عضد الدولة سنة ٣٨٣ هـ /٩٩٣ م على صداق بلغ مائة ألف دينار.

وشعرت الخلافة العباسية بالخطر في عهد القادر بالله، عندما أقام قرواش بن المقلد - أمير بني عقيل وصاحب السيادة في الموصل والأنبار والمدائن والكوفة - الخطبة للخليفة الفاطمي في مصر الحاكم بأمر الله(١٨) (٣٨٦ - ٤١١ هـ /٩٩٦ - ١٠٢٠ م) فشكا أبو جعفر عبدالله - القائم بأمر الله فيما بعد - ابن الخليفة القادر بالله لبهاء الدولة الأمر، طالباً إليه إعادة الأوضاع إلى ما كانت عليه. فأرسل الأخير جيشاً اضطر قرواش إلى إعادة الخطبة(١٩) للخليفة العباسي بالرغم من أن البويهيين كانوا متمسكين بالمذهب الشيعي، ويتطلعون من وقت إلى آخر إلى الخليفة الفاطمي.

٢٦ - القائم بأمر الله: ٤٢٢ - ٤٦٧ هـ /١٠٣١ - ١٠٧٥ م.

استلم أبو جعفر عبدالله القائم بأمر الله بن القادر بالله الخلافة بعد وفاة أبيه

(١٧) الفخري في الآداب السلطانية ٢٩١. والبداية والنهاية ١١ / ٣١٢

(١٨) أحياناً كثيرة كان الخلاف بين السنة والشيعة في بغداد يؤدي إلى هتاف الشيعة بـ: «يا حاكم يا منصور» عندما تنشب الفتن بينهما.

(١٩) الكامل في التاريخ ٧ / ٢١٤ - ٢٣٤. وتاريخ ابن خلدون ٣ / ٤٤٢.

سنة ٤٢٢ هـ/١٠٣١ م. فوصلت الدولة العباسية في عهده إلى أقصى درجات الإنحلال والتدهور. فغدت بغداد العاصمة مسرحاً للشغب والمنازعات المذهبية والعنصرية بين مختلف عناصر الجند من عرب وديلم وترك. إضافة إلى المنازعات والحروب بين البويهيين أنفسهم. وتعاقب على السلطة البويهية في بغداد ثلاثة سلاطين هم:

ـ جلال الدولة أبو طاهر بن بهاء الدولة الذي امتد سلطانه من خلافة القادر إلى خلافة القائم: في عهد القادر: ٤١٦ ـ ٤٢٢ هـ/١٠٢٥ ـ ١٠٣١ م.

وفي عهد القائم: ٤٢٢ ـ ٤٣٥ هـ/١٠٣١ ـ ١٠٤٣ م.

ـ محيي الدين أبو بكر كاليجار المرزبان بن سلطان الدولة: ٤٣٥ ـ ٤٤٠ هـ١٠٤٣ ـ ١٠٤٨ م.

ـ الملك الرحيم أبو نصر خسرو فيروز بن محيي الدين المرزبان: ٤٤٠ ـ ٤٧٧ هـ/١٠٤٣ ـ ١٠٤٨ م.

في عهد القائم بأمر الله، أخذ البويهيون يتقربون من الفاطميين الشيعة للضغط على العباسيين، حتى لا يرتمي الخلفاء العباسيون في أحضان السلاجقة السنيين. ومما لا شك فيه أن الحروب الكثيرة التي قامت بين البويهيين أدت إلى ضعفهم، وبالتالي مهدت الطريق أمام سيطرة السلاجقة على بغداد.

وفي هذا الوقت قام أبو الحارث أرسلان المعروف بالبساسيري ـ غلام تركي ـ بثورة ضد الخلافة العباسية[٢٠]. وكاتب الخليفة الفاطمي المستنصر بالله ٤٢٧ ـ ٤٨٧ هـ/١٠٣٥ ـ ١٠٩٤ م بمصر ليدخل في طاعته ويخطب باسمه على منابر بغداد.

تجاه ذلك رأى الخليفة العباسي القائم بأمر الله أن عليه الإلتجاء إلى السلاجقة السنيين للقضاء على البساسيري والبويهيين. فكتب إلى السلطان طغرلبك طالباً نجدته، فكانت هذه هي الفرصة التي انتظرها طغرلبك بفارغ الصبر، وأسرع في السير إلى بغداد متظاهراً أنه يريد الحج ومن ثم التوجه إلى الشام ومصر

(٢٠) البداية والنهاية ١٢ / ٦٦.

لإزالة الخليفة المستنصر بالله. ومن جهته الخليفة القائم بأمر الله أمر بـالخطبـة لطغرلبك في جوامع بغداد مفصحاً عن نواياه.

وهكذا تمت الخطبة للسلجوقي طغرلبك في يوم الجمعة ٢٢ محـرم سنة ٤٤٧ هـ /١٠٥٥ م(٢١)، ثم دخلها بعد ثلاثة أيام ليقبض على الملك الرحيم آخر سلاطين بني بويه، ويضع الخلافة العبـاسية تحت سيـطرة جديـدة، هي سيطرة السلاجقة السنيين.

(٢١) تاريخ ابن خلدون ٣ / ٤٥٩.

قائمة بأسماء خلفاء العصر العباسي الثاني والثالث

خلفاء العصر العباسي الثاني	**٢٣٣ ـ ٣٣٣ هـ**
١٠ ـ المتوكل على الله جعفر بن المعتصم بن الرشيد	٢٣٣ ـ ٢٤٧ هـ
١١ ـ المنتصر بالله محمد بن المتوكل بن المعتصم	٢٤٧ ـ ٢٤٨ هـ
١٢ ـ المستعين بالله أحمد بن المعتصم	٢٤٨ ـ ٢٥٢ هـ
١٣ ـ المعتز بالله محمد بن المتوكل بن المعتصم	٢٥٢ ـ ٢٥٥ هـ
١٤ ـ المهتدي بالله محمد بن الواثق بن المعتصم	٢٥٥ ـ ٢٥٦ هـ
١٥ ـ المعتمد على الله أحمد بن المتوكل بن المعتصم	٢٥٦ ـ ٢٧٩ هـ
١٦ ـ المعتضد بالله أحمد بن الموفق طلحة بن المتوكل	٢٧٩ ـ ٢٨٩ هـ
١٧ ـ المكتفي بالله علي بن المعتضد بن الموفق	٢٨٩ ـ ٢٩٥ هـ
١٨ ـ المقتدر بالله جعفر بن المعتضد بن الموفق	٢٩٥ ـ ٣٢٠ هـ(١)
١٩ ـ القاهر بالله محمد بن المعتضد بن الموفق	٣٢٠ ـ ٣٢٢ هـ
٢٠ ـ الراضي بالله محمد بن المقتدر بن المعتضد	٣٢٢ ـ ٣٢٩ هـ
٢١ ـ المتقي بالله إبراهيم بن المقتدر بن المعتضد	٣٢٩ ـ ٣٣٣ هـ
خلفاء العصر العباسي الثالث:	**٣٣٣ ـ ٤٦٧ هـ**
٢٢ ـ المستكفي بالله عبدالله بن المكتفي بن المعتضد	٣٣٣ ـ ٣٣٤ هـ
٢٣ ـ المطيع لله الفضل بن المقتدر بن المعتضد	٣٣٤ ـ ٣٦٣ هـ
٢٤ ـ الطائع لله عبد الكريم بن المطيع بن المقتدر	٣٦٣ ـ ٣٨١
٢٥ ـ القادر بالله أحمد بن إسحاق بن المقتدر	٣٨١ ـ ٤٢٢ هـ
٢٦ ـ القائم بأمر الله عبدالله بن القادر	٤٢٢ ـ ٤٦٧ هـ

(١) خلع المقتدر بالله وبويع بالخلافة عبدالله المعتز، فمكث يوماً واحداً في الخلافة ثم استظهر المقتدر عليه، فأخذه وقتله. لذلك لم يعد عبدالله بن المعتز في الخلفاء لقصر الزمان ـ المدة ـ الذي تولى فيه.

الفصل العاشر

الدول المستقلة في المشرق الاسلامي

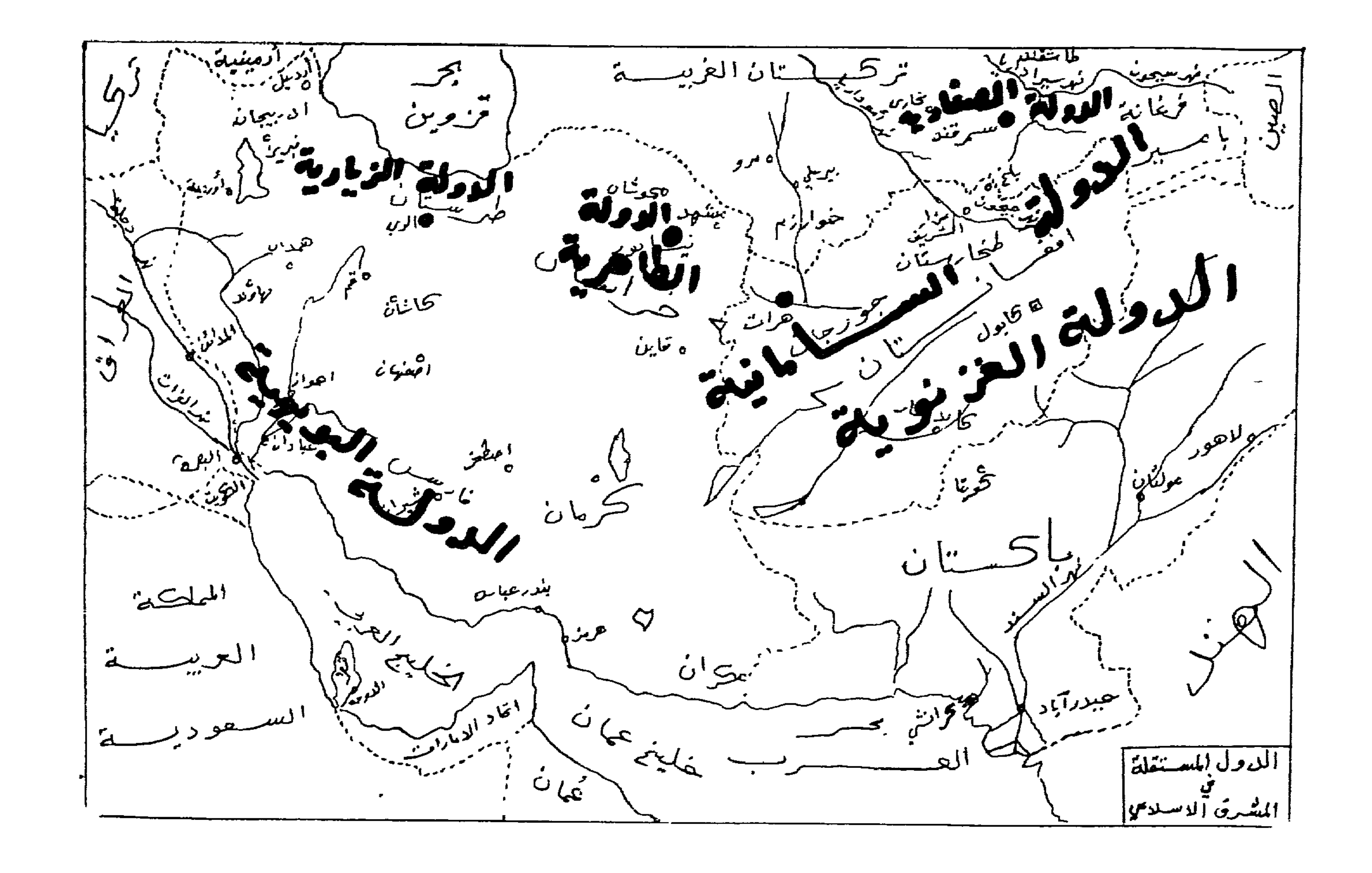
١ ـ الدولة الطاهرية: ٢٠٥ ـ ٢٥٩ هـ / ٨٢٠ ـ ٨٧٢ م.

تنسب الدولة الطاهرية إلى طاهر بن الحسين أحد قواد الخليفة المأمون وقد كافأه الخليفة بعد انتصاره في عدة معارك بخراسان وبغداد ضد الخليفة الأمين، فولاه خراسان سنة ٢٠٥ هـ / ٨٢٠ م، ثم أضاف إليه أعمال المشرق الإسلامي بكامله. اتخذ طاهر بن الحسين نيسابور ـ في خراسان ـ قاعدة له. وهكذا نشأت أول إمارة شبه مستقلة في الدولة العباسية لاستمرار الحكم في أولاده وأحفاده حتى انتهت الدولة الطاهرية سنة ٢٥٩ هـ /٨٧٢ م في عهد أميرها محمد بن طاهر(١).

وتتابع على حكم خراسان من الأسرة الطاهرية الفارسية الأصل: طاهربن الحسين، ثم عبدالله بن طاهر بن الحسين، ثم أحفاده ومنهم: طاهر بن عبدالله بن طاهر بن الحسين وأخيراً محمد بن طاهر بن عبدالله بن طاهر. وقد أظهر الطاهريون ولاءهم الكامل للخلافة العباسية بقضائهم على الثورات التي قامت في وجه العباسيين، وبخاصة منها العلوية، وبالرغم من أن للطاهريين ميول علوية. فكان هذا الولاء موضع ثقة الخلفاء العباسيين الذين وقفوا إلى جانب الطاهريين في نزاعهم مع الصفّاريين، ثم جعلوا لهم شرطة بغداد بعد زوال إمارتهم في خراسان(٢)، فاستمرتْ في أيديهم حتى سنة ٣٠١ هـ /٩١٣ م.

(١) تاريخ ابن خلدون ٣ / ٣٠٩.

(٢) الكامل في التاريخ ٦ / ١٤٣. والبداية والنهاية. جـ ١١ / ١١٩.


الدول المستقلة في المشرق الإسلامي
الدولة الزيارية
الدولة الطاهرية
الدولة الصفارية
الدولة السامانية
الدولة الغزنوية
الدولة البويهية
بحر قزوين
تركستان الغربية
الصين
الهند
باكستان
كرمان
مكران
المملكة العربية السعودية
الخليج العربي
خليج عمان
بحر العرب
عمان
اتحاد الامارات
العراق
تركيا
أرمينية
أذربيجان
همدان
كاشان
أصفهان
اصطخر
شيراز
بندرعباس
هرمز
كابول
هرات
مرو
خوارزم
سمرقند
بخارى
فرغانة
لاهور
مولتان
حيدرآباد
كراتشي
نهر السند
بغداد
البصرة
الكويت
الري
تبريز
نيسابور
قاين
غزنة

٢ ـ الدولة الصفارية: ٢٥٤ ـ ٢٩٠ هـ / ٨٦٧ ـ ٩٠٣ م.

تنسب هذه الدولة إلى يعقوب بن الليث الصفار. والصفّار لقب أطلق على يعقوب بن الليث وأخيه عمرو لاشتغالهما منذ حداثة سنهما في صناعة الصفر ـ النحاس واشترك يعقوب وأخوه عمرو مع المتطوعين لقتال الخارجين على الدولة العباسية في إقليم سجستان بجنوب خراسان. وسرعان ما بدأ اسم يعقوب ينتشر منذ سنة ٢٣٧ هـ / ٨٥١ م عندما صار زعيماً لفرقة المتطوعة. وقوي نفوذه، وغلب على سجستان والمناطق المجاورة. ثم اصطدم بالدولة الطاهرية واحتلت جيوشه عاصمتها نيسابور سنة ٢٥٩ هـ / ٨٧٢ م[٣] مخالفاً أوامر الخلافة العباسية بعدم التعرض للطاهريين، مدعياً إنه إنما لبى رغبة أهل خراسان لاستخلاصها من بني الطاهر.

أدركت الخلافة العباسية خطورة القوة الصفارية، فأرسل الموفق ـ شقيق الخليفة المعتمد على الله: ٢٥٦ ـ ٢٧٩ هـ / ٨٦٩ ـ ٨٩٢ م. يقول له[٤]: إن أمير المؤمنين لا يقر يعقوب على ما فعل، وأنه يأمره بالإنصراف إلى العمل الذي ولاه إياه، وإنه لم يكن له إلا ما للمخالفين.

لكن يعقوب بن الليث الصفار لم يأبه لقول الموفق وتحدى الخليفة العباسي المعتز بالله الذي لم يقو على مقاومته[٥]، حينما احتل فارس، وبدأ بإعداد العدة للتوجه نحو العراق.

وتنفيذاً لمخططاته اتجه إلى الأهواز، ووجه كتاباً إلى الخليفة[٦]: «يسأله ولاية خراسان وبلاد فارس، وما كان مضموناً إلى طاهر بن الحسين الخزاعي من الكور. وشرطتي بغداد وسرمن رأى، وأن يعقد له على كرمان وسجستان والسند».

وأخيراً استجاب الموفق أخو الخليفة المعتمد لطلبات يعقوب بن الليث

---

(٣) مروج الذهب ٤ / ١١٢. وتاريخ ابن خلدون حـ ٣ / ٣٠٩.

(٤) الكامل في التاريخ ٥ / ٣٤١.

(٥) الفخري في الآداب السلطانية ٢٤٣.

(٦) الكامل في التاريخ ٥ / ٣٦٨ ـ ٣٦٩.

الصفار جميعها، على أن أطماع يعقوب لم تقف عند حد، إذ أخذ يحارب الولاة العباسيين، فاستولى سنة ٢٦٣ هـ /٨٧٦ م على جند نيسابور، ثم أخذ الأهواز من صاحب الزنج بعد حروب طويلة بينهما.

ولما توفي يعقوب بن الليث الصفّار سنة ٢٦٥ هـ /٨٧٧ م، أمر الموفق أخاه عمرو بن الليث الصفّار على خراسان وأصبهان وسجستان والسند وكرمان، فضلاً عن الشرطة ببغداد. ولما طلب عمرو الصفّار من الخليفة المعتمد على الله أن يعهد إليه بولاية ما وراء النهر التي في أيدي السامانيين، ساءت العلاقة بينه وبين الخليفة الذي أعلن بدوره عزل عمرو بن الليث عن البلاد التي ولاه إياها، وقلّد محمد بن طاهر بلاد خراسان فأناب الأخير عنه فيها رافع بن هرثمة(٧).

وبدأ المعتضد بالله: ٢٧٩ ـ ٢٨٩ هـ /٨٩٢ ـ ٩٠٢ م خلافته بعزل رافع بن هرثمة عن خراسان وإعادتها إلى عمرو بن الليث الصفّار الذي أصرّ على طلب ولاية بلاد ما وراء النهر ـ التي كانت بيد إسماعيل بن أحمد الساماني ـ فكانت هذه الفرصة المناسبة للقضاء على الدولة الصفارية، فأجابه الخليفة إلى طلبه هذا ليضرب الإثنين ببعضهما. وقد انتهت الحرب بينهما بهزيمة عمرو بن الليث الصفار وأسره، فتولى حكم الدولة الصفارية بعد عمرو حفيده طاهر بن محمد سنة ٢٨٨ هـ /٨٩٤ م. لكنه لم يستطع مقاومة أعدائه السامانيين والدولة العباسية وبخاصة بعدما استبد بالسلطة سبك السبكري غلام عمرو بن الليث، حتى انتهى الأمر أخيراً بسقوط الدولة الصفارية بعد أقل من خمس وثلاثين سنة.

٣ ـ الدولة السامانية: ٢٦١ ـ ٣٨١ هـ /٨٧٤ ـ ٩٩١ م.

١ ـ نشأتها:

قامت الدولة السامانية في بعض الولايات بإقليم ما وراء النهر. ويرجع نسب السامانيين إلى إحدى الأسر الفارسية العريقة التي كانت تدين بالزراد شتية. ثم أسلم جدهم سامان خدَه بمساعدة أسد بن عبدالله القشري ـ والي الأمويين على

(٧) الكامل في التاريخ ٦ / ٣٨ ـ ٣٩.

(٨) الكامل في التاريخ ٦ / ٣.

خراسان ـ فسمى ابنه أسداً تيمنا به. وبرز أمر السامانيين في أيام الخليفة المأمون الذي ولى أولاد أسد الأربعة سنة ٢٠٤ هـ / ٨١٩ م:

ـ نوح بن أسد سمرقند.
ـ أحمد بن أسد فرغانة.
ـ يحيى بن أسد الشاش.
ـ الياس بن أسد هرات ـ أشروسنة ـ.

ولما تولى طاهر بن الحسين بلاد خراسان، أقرهم على ما بأيديهم. لذلك كان التعاون يجمع ما بين السامانيين والطاهريين على حماية الثغر الشرقي. وعندما قام النزاع بين الطاهريين والصفاريين وقف السامانيون إلى جانب الطاهريين. ولما انتهى النزاع باستيلاء الصفّاريين على إقليم خراسان. أقرّ الخليفة العباسي المعتمد على الله: ٢٥٦ ـ ٢٧٩ هـ / ٨٧٠ ـ ٨٩٢ م، نصر بن أحمد الساماني على إقليم بلاد ما وراء النهر منفصلاً عن خراسان، تقديراً لإخلاصهم للخلافة، وذلك سنة ٢٦١ هـ / ٨٧٤ م، فاتخذ من مدينة بخارى عاصمة له[٩].

وخلف نصر بن أحمد الساماني أخوه إسماعيل بن أحمد الذي أنزل بعمرو بن الليث الصفاري الهزيمة وأسره. ثم ضم إسماعيل الساماني أراضي الدولة الصفارية في خراسان وسجستان إلى مملكته، كما ضمّ إقليم طبرستان بعد أن انتصر على واليها محمد بن زيد العلوي.

٢ ـ علاقتها بالخلافة العباسية:

تمكنت الدولة السامانية من الإستمرار مدة أطول من غيرها ـ ١٢٨ سنة ـ بفضل علاقتها الحسنة بالخلافة العباسية، فحرصوا على التودد إلى الخلفاء العباسيين والتمسك بطاعتهم. ولم يوجهوا أطماعهم نحو داخل الدولة إلا بالقدر الذي يخدم الخلافة في حربها مع أعدائها، أو بالقدر الذي يخدمها داخلياً عند ضعفها وقيام الفتن الداخلية. وهكذا ظلت الجيوش السامانية تحارب في الري وكرمان وقزوين ونهاوند وهمذان حتى كان العصر البويهي، فتزوج نوح بن نصر

(٩) الكامل في التاريخ ٦ / ٥٠٣.

الساماني بابنة عضد الدولة البويهي في سبيل علاقات ودية بين الدولتين.

٣ ـ النهضة العلمية والأدبية في العصر الساماني:

شهد العصر الساماني نهضة علمية وأدبية ضخمة بفضل تشجيع ملوكها للعلماء وحرصهم على جمع الكتب الثمينة احياء للغة الفارسية وترجمة الكتب العربية إليها. فكانت العاصمة «بخارى» مركزاً من أهم المراكز العلمية الإسلامية، حيث عاش عدد كبير من العلماء والأدباء والشعراء أمثال: الشاعر الفارسي الرودكي، والطبيب أبو بكر محمد بن زكريا الرازي الذي ألف كتاباً في الطب أسماه «المنصوري» أهداه إلى أبي صالح منصور بن إسحق الساماني كعربون للصداقة بينهما. والطبيب الفيلسوف ابن سينا الذي اتصل بالسامانيين منذ حداثة سنه، وعالج الأمير نوح بن نصر الساماني. أما الأدباء فقد نبغ منهم: الجيهاني وأبو بكر الخوارزمي وبديع الزمان الهمذاني، والشاعر محمد بن موسى الحدادي البلخي والشاعر الدقيقي الذي أهدى نوح بن نصر الساماني «منظومة» في ألف بيت عن تاريخ الفرس القديم، ثم أبو القاسم الفردوسي الذي وضع ملحمة شعرية فارسية اشتهرت باسم «الشاهنامة» أرخ فيها أخبار الملوك الفرس القدماء.

ثمة ظاهرة أخرى امتاز بها السامانيون وهي: اعتمادهم على المماليك الترك الذين خضعوا لسياسة تربوية خاصة شرحها الوزير نظام الملك الطوسي[١٠] في كتابه سياسة نامة ـ سياسة الملوك ـ ومن أبرز سماتها:

ـ يرقى المملوك تدريجاً بناء على خدمته، وليس اعتماداً على المحسوبية أو الجاه.

ـ يخدم المملوك عاماً وهو راجل، فيسير مرتدياً قباء من القطن يسمى زنداجي[١١].

---

(١٠) كان نظام الملك وزيراً للسلاجقة في عهد السلطان ملكشاه، وقد كتب كتابه «سياسة نامة» سنة ٤٨٤ هـ/ ١٠٩١ م باللغة الفارسية على شكل نصائح لسلاطين السلاجقة مستشهداً في كلامه بما كان متبعاً في عهد الدولة السامانية وقد قتل نظام الملك على يد بعض غلاة الإسماعيلية في سنة ٤٨٥ هـ/ ١٠٩٢ م.

(١١) زنداجي: نسبة إلى مدينة «زندنة» شمالي بخاري التي اشتهرت بالملابس القطنية.

ويعاقب أشد العقاب إذا شوهد يركب الخيل في هذا العام.

- يقدم الحاجب للمملوك، بعد العام الأول، حصاناً تركياً دون سرج.

- يمنح المملوك، في العام الخامس، سرجاً ولجاماً مزيناً بنجوم من المعدن وسروالاً من القطن والحرير، وبعض الأسلحة.

- يمنح المملوك، في العام السادس، ملابس أفخر من الملابس السابقة.

- يمنح المملوك، في العام السابع، خباء ذا طنب واحد وستة عشر ونداً، كما يمنح ثلاثة من الرقيق ليقوموا بخدمته.

- عندئذٍ يلقب المملوك بـ «عريف الدار»، فيضع على رأسه طاقية من الجوخ الأسود الموشاة بالفضة. كما يرتدي قباء حريرياً كنجوياً(١٢).

- يأخذ المملوك بعد ذلك في الترقي عاماً بعد عام، فتزداد حاشيته تدريجياً إلى أن يصل إلى مرتبة صاحب الخيل فحاجب الحجّاب.

يعطى لقب «أمير»، أو يولى على ولاية من الولايات، أو يرقى إلى قيادة فرقة من الفرق العسكرية، وذلك عند النضوج أو في سن الخامسة والثلاثين.

وقد سار وفق هذا النظام التربوي للمماليك السامانيين، عدد كبير من الدول الإسلامية أمثال: السلاجقة الأتراك والأيوبيون الذين نقلوه إلى مصر والشام. فنشأ عنه قيام دولة المماليك.

٤ - نهاية الدولة السامانية:

لكن الدولة السامانية لم يكتب لها أن تعيش طويلاً بعد نزاعها بين سنتي ٣٥٦ - ٣٦١ هـ /٩٦٧ - ٩٧١ م مع البويهيين بسبب النزاع بين أفراد الأسرة السامانية على الحكم، إضافة إلى تمرد بعض القادة، واستقلال عمال الأطراف عنهم واستعانة هؤلاء ببني بويه:

أ - النزاع بين أفراد الأسرة السامانية على الحكم.

(١٢) كنجوي: نسبة إلى مدينة «كنجة» في إقليم شيروان على ساحل بحر قزوين - بجمهورية أذربيجان اليوم -.

ب ـ تمرد بعض القادة واستقلال عمال الأطراف عنهم، واستعانة هؤلاء ببني بويه.

جـ ـ تدخل النساء والوزراء في شؤون الحكم بسبب صغر سن بعض الأمراء.

فانتهت الدولة السامانية بعد مائة وسبعين عاماً على أيدي الغزنويين من جهة خراسان، وخانات الترك من جهة بلاد ما وراء النهر وذلك في سنة ٣٨٩ هـ / ٩٩٩ م.

٤ ـ الدولة الغزنوية: ٣٥١ ـ ٥٨٢ هـ /٩٦٢ ـ ١١٦٣ م.

١ ـ قيام الدولة الغزنوية:

أسس الدولة الغزنوية أحد المماليك السامانيين المدعو «البتكين» الذي ولاه السامانيون منطقة خراسان. ثم ولاية «غزنة» في جبال سليماني شمال الهند. فأسس هناك الدولة الغزنوية سنة ٣٥١ هـ /٩٦٢ م التابعة اسماً للسامانيين. أما المؤسس الحقيقي هو مملوكه زوج ابنته المدعو «ناصر الدين سبكتكين»[١٣] الذي استولى على بعض المواقع الجبلية، ونجح في إخماد الثورات في بلاد ما وراء النهر، فكافأه نوح بن منصور الساماني سنة ٣٨٤ هـ /٩٩٤ م بتوليته على ما كان بأيدي حميه في بلاد الأفغان الحالية. فأثار بذلك مخاوف ملوك الهند المجاورين ومنهم «جيبال راجا لاهور» في شمال غرب الهند. دارت الحروب الطويلة بين سبكتكين وبين جيبال انتهت بانتصار الأول وأسره الثاني سنة ٣٦٩ هـ / ٩٧٩ م. ثم أطلق سراحه بعدما تعهد جيبال بدفع الجزية[١٤]

وصلت الدولة الغزنوية إلى أوجها في عهد ابنه محمود ٣٨٨ ـ ٤٢١ هـ /٩٩٨ ـ ١٠٣٠ م. الذي غزا الهند أكثر من اثنتي عشرة مرة بدافع الجهاد الديني والرغبة في نشر الإسلام. فاستطاع أن يضم إليه إقليم البنجاب وقاعدته مدينة لاهور التي صارت نواة الدولة الباكستانية الإسلامية فيما بعد. ثم

---

(١٣) الكامل في التاريخ ٧ / ٨٦. والبداية والنهاية جـ ١١ / ٢٨٧.

(١٤) الكامل في التاريخ ٧ / ١٩٦.

طمع محمود الغزنوي بملك السامانيين، فأنزل بهم الهزيمة في مرو سنة ٣٨٩ هـ / ٩٩٩ م، وأزال ملكهم من خراسان(١٥). وتلقب بلقب السلطان بعد أن كان يلقب بلقب الأمير، ثم استغل فرصة ضعف الدولة البويهية وضمّ إليه ما كان بأيدي بني بويه في الري وبلاد الجبل.

٢ ـ النهضة الأدبية والعلمية أيام الغزنويين.

شجع الغزنويون ـ وخاصة السلطان محمود ـ الأدب والعلم الذي التف حوله كثير من العلماء والأدباء نذكر منهم على سبيل المثال: الأديب أبو القاسم أحمد بن حسن الميمندي، والشاعر أبو الفتح البستي، والشاعر الإيراني الفردوسي الذي نال جائزة محمود الغزنوي على ملحمته الخالدة «الشهنامة». والمؤرخ أبو نصر محمد بن عبد الجبار العتبي (ت ٤٠٩ هـ /١٠١٨ م) الذي كتب تاريخ السلطان محمود باللغة العربية وسماه «تاريخ المنيني»(١٦)، كذلك عاش في كنف الغزنويين العالم المؤرخ أبو الريحان البيروني الخوارزمي (ت ٤٤٠ هـ /١٠٤٨ م) الذي نقل تراث الهند في الفلسفة والرياضيات والإلهيات، كما وضع كتاباً أسماه «القانون المسعودي» قدمه للسلطان مسعود بن محمود. ويبحث هذا الكتاب في الرياضيات والفلك والفلسفة بالهند، إضافة إلى الأمم والإختلاف في الشهور والسنين. وأخيراً المؤرخ الفارسي أبو الفضل محمد بن حسين البيهقي (٤٧٠ هـ /١٠٧٧ م) الذي كتب بالفارسية تاريخاً للسلطان مسعود ووالده محمود عرف بـ «تاريخ البيهقي»(١٧).

٣ ـ نهاية الدولة الغزنوية:

بلغت الدولة الغزنوية في أيام محود الغزنوي أعلى شأن لها بسبب علاقته الحسنة بالدولة العباسية حتى لقبه الخليفة القادر بالله: ٣٨١ ـ ٤٢٢ هـ /٩٩١ ـ ١٠٣١ م بلقب «يمين الدولة، وأمين الملة» وسك النقود

(١٥) الكامل في التاريخ ٧/ ١٩٦.

(١٦) طبع العتبي في القاهرة سنة ١٢٨٦ هـ/ ١٨٦٩ م في جزءين وبه شرح أحمد المنيني (ت ١٢٧٢ هـ/ ١٨٥٥ م) المسمى الفتح الوهبي على تاريخ أبي نصر العتبي.

(١٧) تاريخ البيهقي نقله إلى العربية يحيى الخشاب، ونشرته مطبعة الأنجلو المصرية سنة ١٩٥٦.

باسمه تحمل هذه الألقاب أما بعد وفاته فقد اضطربت أحوال دولته نتيجة للخلاف الذي نشأ بين ولديه:

- مسعود بن محمود بن سبكتكين: ٤٢١ - ٤٣٢ هـ / ١٠٣٠ - ١٠٤٠ م.

- مودود بن محمود بن سبكتكين: ٤٣٢ - ٤٤١ هـ / ١٠٤٠ - ١٠٤٩ م.

لكن حركة الفتوح استمرت طيلة عهود خلفائه إلى أن ضعفت على أيدي السلاجقة الذين ظهروا في خراسان، وتمكنوا من إنزال الهزيمة بالغزنويين سنة ٤٣١ هـ / ١٠٣٩ م مما جعل النفوذ الغزنوي ينحسر تدريجياً عن خراسان. ثم سقطت نهائياً على أيدي الغوريين الذين أقاموا دولة لأنفسهم ذات طابع هندي خالص، وتواصل نشر الإسلام في الهند حتى سقطت على أيدي المغول.

٥ - الدولة البويهية: ٣٣٤ - ٤٤٧ هـ / ٩٤٥ - ١٠٥٥ م.

١ - قيام الدولة البويهية:

يرجع أصل البويهيين إلى رجل فارسي يدعى «بويه» من إقليم الديلم في جنوب غرب بحر قزوين[١٨]. وقد قامت دولتهم على أكتاف أولاد «بويه» الثلاثة: علي - عماد الدولة - والحسن - ركن الدولة - وأحمد - معز الدولة. اشتغلوا جميعاً في خدمة القائد برداويج بن زيار الديلمي الذي استقل بمنطقة طبرستان والديلم.

وعلى أثر مقتل مرداويج على يد جنوده سنة ٣٢٤ هـ / ٩٣٥ م، سيطر علي - عماد الدولة - على مدينة شيراز وجعلها مقراً لحكمه الذي كان يمتد على كامل إقليم الكرج بين همذان وأصفهان، واحتل أخوه الحسن - ركن الدولة - بلاد الجبال واستقل بها، أما أحمد فقد احتل بلاد كرمان والأهواز - خوزستان - فأشرف بذلك على العراق.

٢ - علاقة البويهيين بالخلافة العباسية:

تدهورت الأحوال السياسية والإقتصادية في العراق بسبب تنافس وتنازع

---

(١٨) الفخري في الأداب السلطانية ٢٧٧.

الأمراء الأتراك على السلطة، وعجزهم عن دفع رواتب الجند، وحفظ الأمن في البلاد. هذا الأمر جعل العراقيين يتطلعون إلى أحمد بن بويه ليخلصهم من ظلم الأتراك واستبدادهم فطلبوا إليه المجيء واعدين بالمآزرة والتأييد.

فاستغل أحمد بن بويه هذه الفرصة، وزحف بجيوشه نحو بغداد واحتلها سنة ٣٣٤ هـ/٩٤٥م [١٩]، فاستقبله المستكفي بالله: ٣٣٣ - ٣٣٤هـ/ ٩٤٤ - ٩٤٥م استقبال الأمراء وسلم عليه أحمد بن بويه وقبل الأرض بين يديه[٢٠]، والخليفة المستكفي بالله هو الذي لقبهم بألقابهم.

وهكذا حل البويهيون الفرس، محل الأتراك في حكم فارس والعراق، فنعمت الخلافة العباسية بشيء من الإستقرار، في ظل السيطرة البويهية، وطالت مدد حكم الخلفاء، وإن كان الخليفة العباسي قد ظل رمزاً لا حول له ولا قوة. ذلك أن الخلفاء العباسيين كان قد اعتراهم الضعف وتدهور نفوذهم فعلاً مثل وقوع الخلافة تحت سيطرة بني بويه، فلم يكن في وسع هؤلاء الاخيرين وقف عجلة التطور الذي مرت به الخلافة العباسية. وليس كما ادعى بعض المؤرخين بأن البويهيين[٢١] أذلوا الخلفاء العباسيين بسبب مذهبهم الشيعي. وليس أدل على ذلك من كونهم شيعة لم يعاملوا أهل السنة معاملة سيئة، بل أظهروا تسامحاً كبيراً، وصار الخليفة العباسي خليفة للسنة والشيعة على حد سواء وقد وصف لنا المؤرخ المعاصر أحمد مسكويه (ت ٤٢١ هـ/ ١٠٣٠) مقابلة عضد الدولة البويهي للخليفة الطائع لله العباسي سنة ٣٦٩ هـ / ٩٧٩ م[٢٢].

---

(١٩) الفخري في الآداب السلطانية ٢٨٧.

(٢٠) الكامل في التاريخ ٦ / ٣١٤. والبداية والنهاية جـ ١١ / ٢١٢.

(٢١) كان بنو بويه شيعة على المذهب الزيدي، وهو المذهب الذي انتشر في إقليم الديلم جنوبي بحر قزوين على يد الحسن بن علي الزيدي الملقب بالأطروش (ت ٣٠٥ هـ/ ٩١٧ م). ويرجع الزيديون الخلافة إلى زيد بن علي زين العابدين بن الحسين بن أبي طالب، ثم إلى ولده يحيى بن زيد، وهم لا ينكرون إمامة أبي بكر وعمر بن الخطاب مع قولهم بأن علياً أفضل منهما، أي أنهم يجيزون إمامة المفضول مع وجود الأفضل، على عكس الفرق الشيعية الأخرى كالإسماعيلية والإثني عشرية. وعلى هذا الأساس كانوا أقرب الفرق الشيعية إلى السنة، وبالتالي في إظهار ولائهم للخلفاء العباسيين.

(٢٢) مسكويه تجارب الأمم ٢ / ٤١٧. نشر إمدروز، القاهرة ١٩١٤م.

٣ ـ الأعمال العمرانية والإصلاحية البويهية :

ساهم البويهيون في تقدم وازدهاربلادالعراق وفارس التي خضعت لحكمهم وبخاصة في عهد عضد الدولة بن الحسن بن بويه: ٣٣٨ ـ ٣٧٢ هـ / ٩٤٩ ـ ٩٨٢ م. الذي وصلت الدولة البويهية في عهده إلى أوج عزها ومجدها، إذ نجح هذا الملك في التفوق على إخوته وأبناء عمومته وتوحيد فارس والعراق تحت سلطته. كما وطّد علاقته بالخليفة العباسي الطائع لله: ٣٦٣ ـ٣٨١هـ/٩٧٣ ـ ٩٩١م إذ تزوج الخليفة الطائع ابنته، وتزوج هو ابنة الخليفة.

وبالرغم من ذلك فقد حرص عضد الدولة البويهي على توثيق الروابط بينه وبين الخليفة الفاطمي العزيز بالله في مصر. وقد أشار ابن تغري بردى إلى الرسائل الودية المتبادلة بين العاهلين في سنة ٣٦٩ هـ / ٩٧٩ م(٢٣). وإن الملك البويهي اعترف في خطابه للعزيز بإمامة الفاطميين، وبفضل أهل البيت مظهراً طاعته ومحبته له، ورد العزيز بالله على عضد الدولة برسالة كلها شكر وتقدير وامتنان للملك البويهي. والجدير ذكره في هذا المجال هو أن رسالة الخليفة الفاطمي قرئت في حضرة الخليفة العباسي، كما أرسلت رسالة عضد الدولة إلى مصر بعلم الخليفة. فإن دلّ على شيء إنما يدل على مدى ضعف الخلفاء العباسيين زمن سيطرة البويهيين.

وتمكن عضد الدولة البويهي خلال فترة حكمه الطويلة ـ ٣٥ سنة ـ أن يضمن للدولة العباسية استقراراً وازدهاراً بفضل المشاريع العمرانية التي قام بها مثل: «السد العظيم» الذي شيده عند مدينة شيراز بفارس، وعرف باسم «باندي أمير» أي «سد الأمير»، وسد السهيلة «بالقرب من بلدة النهروان في العراق».

ومن أعماله العمرانية أيضاً «المشهد العظيم» الذي شيده على قبر الإمام علي بن أبي طالب بمدينة النجف، والمارستان العضدي الذي بناه في بغداد لعلاج المرضى(٢٤).

(٢٣) ابو المحاسن، ابن تعري بروى النجوم الزاهرة ٤ / ١٢٤ ـ ١٢٥.

(٢٤) أبو شجاع الروذارور، ذيل كتاب تجارب الأمم لمكسويه ٣ / ٦٩، نشر أمد رور. وابن حلكان وفيات الأعيان ٤ / ٥٤ ـ ٥٥.

كما اهتم عضد الدولة بترميم بغداد وإعادة بناء ما تهدم من مساجدها وأسواقها. ووزع الأموال على الأئمة والمؤذنين والعلماء والقراء والغرباء والضعفاء الذين يأوون إلى المساجد. وأنشأ الحدائق والمنتزهات. وأمر بتنظيف مجاري الأنهار وبناء الجسور وحفر الترع والأخاديد، وأصلح الطرقات وبخاصة طريق العراق ـ مكة ـ وأذن لوزيره النصراني نصر بن هارون في بناء وترميم الكنائس والأديرة وإطلاق الأموال لفقرائهم(٢٥)

٤ ـ الحياة العلمية والأدبية:

ازدهرت الحياة العلمية والأدبية في عهد بني بويه ازدهاراً كبيراً، ذلك أن عضد الدولة. أمر بتوزيع الجرايات على الفقهاء والمحدثين والمتكلمين والمفسرين والنحاة والشعراء والنسابين والأطباء والحسّاب والمهندسين(٢٦). كما بالغ في إكرام العلماء والإنعام عليهم ،احتى تضاعفت في أيامه المصنفات الرائعة في مختلف العلوم. فمنها كتاب الحجة في القراءات السبع لأبي علي الحسن بن أحمد الفارسي النحوي(٢٧)، والكنّاش العضدي في الطب لعلي بن العباس المجوسي(٢٨)، وكتاب التاجي في أخبار بني بويه لأبي إسحق إبراهيم الصابي الذي لم يجد في تاريخ الديالمة من المفاخر والأمجاد ما يرضي كبرياء بني بويه، فعمد إلى التلفيق واصطناع الأخبار المزيفة ليرضي عضد الدولة، وكان هذا من أسباب غضب السلطان عضد الدولة عليه، فيما بعد وسجنه. وكتاب الإيضاح في النحو الذي صنفه له الشيخ أبو علي الفارسي النحوي. وعمل له العالم الفلكي أبو الحسين بن عمر الرازي كرة تمثل السماء بما فيها من أجرام ونجوم.

وعمل الوزراء في دولة بني بويه على تشجيع الحركة العلمية في البلاد. ومن هؤلاء الوزراء: أبو الفضل بن العميد (ت ٣٦٠ هـ / ٩٧٠ م) من مدينة «قم»

---

(٢٥) الكامل في التاريخ ٧ / ١٠٠ ـ ١٠١.

(٢٦) الكامل في التاريخ ٧ / ١٠١ وتجارب الأمم. جـ ٣ / ٤٠٥ ـ ٤٠٦.

(٢٧) أبو علي الحسن بن أحمد بن عبد الغفار الفارسي النحوي توفي ببغداد سنة ٣٧٦ هـ/ ٩٨٦ م وقد حاوز التسعين، وكان معتزلياً ابن الوردي: تتمة المختصر في أخبار البشر ٤٦١

(٢٨) جمال الدين القفطي. تاريخ الحكماء ٢٢٢ ـ ٤٤٠.

الفارسية. وزر ابن العميد للملك ركن الدولة صاحب الري وهمذان وأصفهان، فأشرف على تربية وتعليم ولده عضد الدولة الذي لقبه الأخير بالأستاذ الرئيس[٢٩]. ووصف ابن خلكان الوزير بقوله:[٣٠] «كان أبو الفضل بن العميد متوسعاً في علوم الفلسفة.. وكان يسمى الجاحظ الثاني، وهو الذي قيل فيه: بدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد».

وقد قصده المتنبي ومدحه ببعض قصائده، ومنها قصيدته التي هنأه فيها بعيد النوروز والتي يصفه فيها بأنه عربي اللسان فارسي الأعياد. عربي لسانه فلسفي رأية فارسية أعياده[٣١].

والوزير الصاحب بن عباد[٣٢] الذي ترك رسائل منشورة[٣٣]، وكذلك له كتاب في الأعياد وفضائل النوروز. وقد مدحه شعراء العرب والأعاجم بحسب قوله هو نفسه[٣٤]: «مدحت والعلم عند الله بمائة ألف قصيدة شعر عربية وفارسية».

٥ ـ نهاية الدولة البويهية:

أدت الخلافات والإنقسامات والحروب المتعددة بين أفراد البيت البويهي إلى ضعف الدولة البويهية حتى صار الخلفاء العباسيون قادرين على التدخل في السياسة ومناوأة النفوذ البويهي الشيعي والفاطمي. فمن ذلك أن الخليفة العباسي القادر بالله ٣٨١ ـ ٤٢٢ هـ /٩٩١ ـ ١٠٣١ م أمر في سنة ٣٨٢ هـ /٩٩٢ م بوقف النواح والبكاء في بغداد في يوم عاشوراء، كما رفض تعيين رجل شيعي اختاره البويهيون لشغل منصب قاضي بغداد، واضطر البويهيون إلى الرضوخ، واكتفوا بتعيين قاض خاص للشيعة سموه «النقيب» أو «نقيب الهاشميين».

---

(٢٩) تجارب الأمم ٢ / ٢٨١ ـ ٢٨٢.

(٣٠) وفيات الأعيان ٢ / ٥٧. وتاريخ الإسلام السياسي جـ ٣ / ٤٥٨.

(٣١) الثعالبي. ينيمة الدهر ٣ / ١٥٥.

(٣٢) كان الصاحب بن عباد من اتباع ابن العميد، الصاحب إسماعيل بن عباد والذي خلفه في الوزارة بعد ذلك (ت: ٣٨٥ هـ/ ٩٩٥ م)، وهو فارسي لقب بالصاحب لأنه كان يصحب ابن العميد.

(٣٣) نشرت رسائل الصاحب بن عباد في القاهرة سنة ١٩٤٧ م بعناية: عبد الوهاب عزام وشوقي ضيف.

(٣٤) ياقوت. معجم الأدباء ٦ / ١٦٨.

وأخيراً فعلت مظاهر العداء فعلها. فقام الشيعة في بغداد بمظاهرة مسلحة سنة ٣٩٨ هـ /١٠٠٧ م طالبوا فيها بإقامة الدعوة للخليفة الفاطمي في مصر الحاكم بأمر الله. وصاروا ينادونه في الشوارع: يا حاكم يا منصور. . . فاضطر الخليفة القادر بالله أن يحاربهم بفرقة من حرسه تمكنت من إنهاء ثورتهم بعد هزيمتهم. وتكررت هذه العملية مع قرواش بن المقلد صاحب الموصل الذي تمرد على طاعة الخليفة القادر بالله سنة ٤٠١ هـ / ١٠١٠ م. ونشر الدعوة الفاطمية في الموصل والمدائن والأنبار والكوفة، ودعا للخليفة الحاكم بأمر الله على منابر تلك البلاد. فوجه إليه الخليفة العباسي جيشاً قضى على حركته.

أحس الخليفة العباسي أن الدولة الفاطمية هي وراء تلك الحركات سواء البويهية أو حركة قرواش بن المقلد. فلجأ إضافة إلى قوة السلاح إلى سلاح للتشهير بسمعة الفاطميين والطعن في نسبهم بجميع أنحاء العالم الإسلامي. وأصدر سنة ٤٠٢ هـ /١٠١١ م محضراً رسمياً موقعاً من كبار الفقهاء والقضاة وبعض زعماء الشيعة مثل نقيب الأشراف والشاعر العلوي المشهور الشريف الرضي بن موسى الكاظم[٣٥] (ت ٤٠٦ هـ /١٠١٥ م). وقد جاء في المحضر: «. . والفاطميون منسوبون إلى ديصان بن سعيد الخرمي إخوان الكافرين. . أدعياء خوارج، لا نسب لهم في ولد علي بن أبي طالب وأن هذا الناجم بمصر سلفه كفار فساق فجار زنادقة. . . الخ. .»[٣٦]. وتكررت هذه المطاعن في عهد خلفه وابنه الخليفة القائم بأمر الله: ٤٢٢ - ٤٦٧ هـ /١٠٣١ - ١٠٧٤ م.

وانتهت الدولة البويهية على يد الأتراك السلاجقة عندما دخل زعيمهم طغرلبك مدينة بغداد سنة ٤٤٧ هـ /١٠٥٥ م، الذي قضى على آخر ملوك البويهيين «الملك الرحيم»[٣٧].

(٣٥) إتعاظ الحنفا في أخبار الفاطميين الخلفاء ١ / ٣٨ - ٣٩.

(٣٦) النجوم الزاهرة ٢ / ٢٢٩ - ٢٣٠.

(٣٧) الكامل في التاريخ ٨ / ٦٢ البداية والنهاية ١٢ / ٦٦ وتاريخ ابن خلدون ٣ / ٤٥٩ - ٤٦٠.

٦ ـ الدولة الزيارية.

قامت الدولة الزيارية في جرجان وطبرستان. وهي تنسب إلى أول ملوكها مرداويج بن زيار. وكانت على عداء مع البويهيين.

يعود ظهور هذه الدولة إلى الحركات الإستقلالية التي قامت في إقليم طبرستان بعدما كثرت المعارضة العلوية للخلافة العباسية، الأمر الذي اضطر هذه المعارضة الشيعية إلى الفرار نحو المناطق البعيدة من البلاد الإسلامية، فأسسوا دولاً لهم فيها. ومن هذه المناطق النائية، كان إقليم طبرستان ـ جنوبي بحر قزوين ـ الذي بقي خاضعاً للخلافة العباسية تحت حكم طاهر بن حسين ومن جاء بعده.

ولما جاء يحيى بن عبدالله العلوي بعد موقعة «فخ» إلى بلاد الديلم، انتشر مذهب الزيدية بين أهل طبرستان. فصارت تلك البلاد مأوى للشيعة الفارين من وجه الخلافة العباسية. وقد تحالف أهل طبرستان مع الديلم وأعلنوا الثورة ضد الخلافة العباسية عندما اختاروا الحسن بن زيد العلوي ليرأس ثورتهم. فقامت الدولة العلوية التي عرفت باسم «الدولة الطبرية الزيدية». احتل الحسن بن زيد مدينة «آمل» قاعدة طبرستان. فجمع تحت طاعته أهل طبرستان والكثير من الديلم. وقد عاشت هذه الدولة أكثر من نصف قرن ٢٥٥ ـ ٣١٦هـ/ ٨٦٩ ـ ٩٢٨م[٣٨].

لكن العلاقة الحسنة بين الزيدية ـ العلوية ـ وبين الديلم سرعان ما ساءت، فعمد الديلم إلى إنشاء دولة خاصة بأنفسهم. ومن هذه الدول كانت الدولة التي أسسها مرداويج بن زيار سنة ٣١٦هـ/٩٢٨م[٣٩]. وقد تمكنت هذه الدولة الزيارية في مد خط الهجرة الديلمية نحو الجنوب. فاستولت على أصفهان والري ونهاوند وهمذان. وبالرغم من كونها دولة شيعية المذهب. فقد عملت على توطيد علاقتها بالخلافة العباسية، ورضيت التقليد من الخليفة العباسي. وفكر الزياريون في إقامة

(٣٨) الكامل في التاريخ ٦ / ١٤٦. والبداية والنهاية ١١ / ١٥.

(٣٩) الكامل في التاريخ ٦ / ١٩٨. والبداية والنهاية ١١ / ١٥٧ ـ ١٥٨.

دولة فارسية تقوم على إحياء التقاليد والعادات الساسانية. كما أنهم مهدوا الطريق أمام بني بويه الذين شجعوا بدورهم على الهجرة الديلمية إلى قلب العالم الإسلامي، لأن الدولة البويهية تفرّعت من الدولة الزيارية.

وعرفت الدولة الزيارية نهضة فكرية حمل لواءها الأمير قابوس بن وشكمير، الذي كان والياً على جرجان وطبرستان، وبعث إليه الخليفة الطائع لله العباسي العهد، فمنحه لقب «شمس المعالي». وبالرغم من أن الأمير قابوس عرف عنه الاسراف والقتل وسفك الدماء، إلا أنه شجّع العلماء والأدباء(٤٠) تنمية لثقافته الواسعة وقد توفي سنة ٤٠٣ هـ/١٠١٢ م.

---

(٤٠) الكامل في التاريخ ٧ / ٢٦٦ والبداية والنهاية ١١ / ٣٤٨.



الفصل الحادي عشر

الدول المستقلة في شمال افريقيا

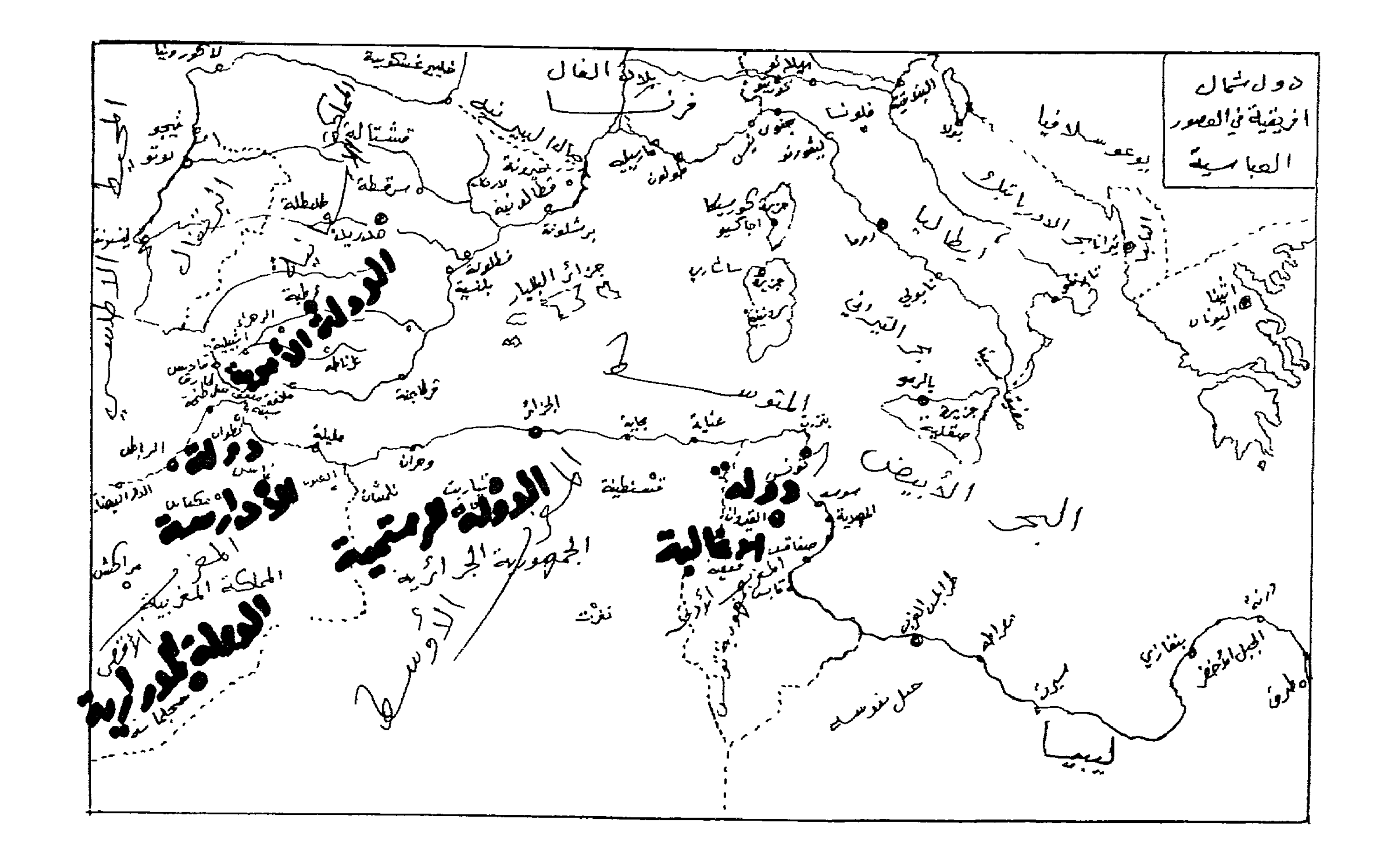
تمّ فتح شمال أفريقية، وتأسيس مدينة القيروان على يد القائد العربي عقبة بن نافع في منتصف القرن الأول الهجري: ٥٠ هـ / ٦٧٠ م، فصارت آنذاك مركزاً للعروبة والإسلام. ومنها انتشرت جهود العرب لتعريب شمال أفريقية ومتابعة الفتح، ونشر الإسلام بين البربر. وقد نجح العرب في ذلك.

لكن البربر ضاقوا بالحكم العربي الذي لم يسوّ بين المسلمين العرب ومن أسلم من البربر إذ كانت السيادة العربية تمارس على البربر، الأمر الذي جعل هؤلاء يتبرمون ويثيرون الفتن والقلاقل ويتقبلون المذاهب التي تدعو للخروج على الدولة مثل مذهب الخوارج.

اختار العلويون منطقة شمال أفريقية لنشر مبادئهم مستغلين:

- بعدها عن مركز الخلافة العباسية.
- غضب البربر ونقمتهم على العباسيين.

فأخذوا يروجون مبادئهم بين سكانها من البربر الذين استجابوا لها يحدوهم إلى تقبلها رغبتهم في الإستقلال عن الدولة العباسية. فقامت دول مستقلة عن الخلافة العباسية، كان السبب الرئيس وراء قيامها طمع الولاة، ورغبتهم في الإستقلال ومن أهم هذه الدول المستقلة في شمال أفريقية: الدولة المدرارية، الدولة الرستمية، دولة الأغالبة، دولة الأدارسة، الدولة الفاطمية.


دول شمال افريقية في العصور العباسية
الدولة الأموية
دولة الأدارسة
الدولة الرستمية
دولة الأغالبة
الدولة السجلماسية
البحر الأبيض المتوسط
المحيط الاطلسي
بلاد الغال
فرنسا
ايطاليا
يوغوسلافيا
ليبيا
الجمهورية الجزائرية
المملكة المغربية
تونس
جزر البليار
جزيرة كورسيكا
جزيرة صقلية
قشتالة
قرطبة
اشبيلية
غرناطة
طليطلة
سرقسطة
برشلونة
بلنسية
قرطاجنة
طنجة
سبتة
مليلة
وهران
الجزائر
بجاية
عنابة
قسنطينة
تاهرت
تلمسان
فاس
مكناس
مراكش
سجلماسة
القيروان
المهدية
سوسة
صفاقس
قابس
بنزرت
طرابلس
مصراته
بنغازي
الجبل الأخضر
جبل نفوسة
روما
نابولي
باليرمو
جنوى
أثينا
اليونان

١ ـ الدولة المدرارية: ١٤٠ ـ ٣٤٩ هـ /٧٥٧ ـ ٩٦٠ م.

تعد الدولة المدرارية دولة خارجية صفرية[١] ـ نسبة إلى زياد بن محمد الأصفر ـ. كانت عاصمتها مدينة «سجلماسة» في جنوب المغرب الأقصى، وقد انقرضت وقام مكانها مدينة «الريساني» في منطقة تافيلات اليوم. وثمة ملاحظة أن الصفرية والإباضية من أكثر المذاهب الخارجية انتشاراً في المغرب عقب الفتح العربي، وإنهما من أكثر مذاهب الخوارج تسامحاً واعتدالاً مع مخالفيهم في الرأي إذا ما قورنوا بفرق الأزارقة والحروريين في المشرق لأن الصفرية والإباضية لم ترضيا إباحة دماء المسلمين، أو جواز سبي النساء والذرية. وذهبا إلى أبعد من ذلك، إذ لا يريان قتال أحد من الناس سوى جيش السلطان.

أسس الدولة المدرارية سوداني أسود اللون يسمى عيسى بن يزيد المكناسي الذي بنى العاصمة سجلماسة وغرس النخيل في أراضيها حيث بقيت منطقة تافيلات من أهم مراكز إنتاج التمور حتى اليوم. ولم يمض وقت طويل حتى قامت معارضة قوية ضد عيسى بن يزيد المكناسي لأنه آثر جمع الأموال لنفسه. وتزعم هذه المعارضة رجل يدعى أبو الخطاب الصفري تمكن وأصحابه من القبض على عيسى بن يزيد وشد وثاقه إلى جذع شجرة في الجبل بعد أن طلوه بالعسل، وتركوه حتى قتله البعوض والنحل والنمل. متهمينه بالسرقة ـ سرقة أموال الدولة المدرارية الصفرية ـ.

تولى بعد عيسى بن يزيد المكناسي أبو الخطاب الصفري رئاسة الدولة المدرارية، وقد جعل الأخير مدير شؤونها أبو القاسم بن واسول[٢]. ولما توفي أبو الخطاب تولى مقاليد الحكم مكانه أبو القاسم بن واسول وتلقب بالمدرار. فعُرِفَت الدولة، فيما بعد باسم «الدولة المدرارية» أو «دولة بني واسول» لأنه المؤسس الحقيقي لهذه الدولة التي استمر حكمها في يد أبنائه من بعده إلى أن

---

(١) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الثالث الخاص بالمغرب ١٤٦ نشر أحمد مختار العبادي وإبراهيم الكتاني

(٢) أبو القاسم بن واسول هو حداد من ربض قرطبة، كان قد صنع سلاحاً جديداً أعجب أبا الخطاب، فقربه منه.

قضى عليها نهائياً قائد الفاطميين «جوهر الصقلي» سنة ٣٤٩ هـ / ٩٦٠ م.

٢ ـ الدولة الرستمية: ١٤٤ ـ ٢٩٦ هـ / ٧٦١ ـ ٩٠٨ م.

هذه الدولة أباضية[٣] خارجية أيضاً. أسسها عبد الرحمن بن رستم من أصل فارسي. وكانت قاعدتها مدينة «تاهرت» قرب مدينة تياريت الحديثة في مقاطعة وهران غرب الجزائر ـ سابقاً المغرب الأوسط ـ.

ازدهرت مدينة تاهرت على عهد بني رستم حتى صارت ملتقى للتجار والعلماء والطلبة من جميع أنحاء العالم الإسلامي مما أكسبها شهرة عالمية لدرجة أنها سميت بالعراق الصغير تشبيهاً لها ببلاد العراق التي تضج بمختلف الأجناس والملل والنحل آنذاك.

تحالف عبد الرحمن بن رستم مع دولة بني واسول أو المدرارية الخارجية في سجلماسة ـ جنوب المغرب ـ لتقوية دولته. ونتج عن هذا التحالف مصاهرة تمت بزواج أروى بنت عبد الرحمن بن رستم من المنتصر بن اليسع بن مدرار ملك جنوب المغرب وقد أنجب المنتصر من أروى ولداً ذكراً سماه «ميمونا» حكم بعده.

وبعد وفاة عبد الرحمن بن رستم سنة ١٦٨ هـ / ٧٨٤ م ترك الأمر شورى في سبعة أشخاص من بينهم ابنه عبد الوهاب الذي مالت الأغلبية إلى مبايعته وسلمت عليه بالخلافة، في الوقت الذي بقي فيه المعارضون لخلافته على موقفهم فسموا بالنكار أو النكرية.

بقيت الدولة الرستمية قائمة في المغرب الأوسط وعلى علاقة طيبة مع الأمويين في الأندلس إلى أن قضى عليها الفاطميون سنة ٢٩٦ هـ / ٩٠٩ م، إلا أن مذهب الخوارج الأباضية بقي معتنقوه يؤلفون قوة معارضة الدولة الفاطمية، حتى أن الخوارج الأباضية لعبت دوراً أساسياً ضد الإستعمار الفرنسي في الجزائر.

٣ ـ دولة الأدارسة: ١٧٢ ـ ٣٦٣ هـ / ٧٨٨ ـ ٩٧٣ م

١ ـ قيام دولة الأدارسة:

سبق أن ذكرنا في الفصل الرابع من هذه الدراسة ـ كيف ثار الحسين بن علي

(٣) الأباضية، تنسب إلى عبدالله بن أباض المري بعارس.

ابن الحسين في المدينة سنة ١٦٩ هـ /٧٨٥ م في عهد الخليفة الهادي العباسي. وكيف انتهت هذه الثورة بموقعه فخ التي قتل فيها الحسين وجماعة كبيرة من أهل بيته، في حين فرّ إدريس بن عبدالله نحو المغرب الأقصى، كما فرّ أخوه يحيى بن عبدالله إلى الديلم في خراسان[٤].

وكما ذكرنا في بداية هذا الفصل أيضاً، وجد البربر في إدريس بن عبدالله الزعيم الروحي والسياسي الذي يلتفون حوله في ظل الإسلام لمناوأة الخلافة العباسية وتحقيق أمانيهم في الإستقلال من ناحية أخرى. فاستغل إدريس هذه الأوضاع السائدة في المغرب، إضافة إلى بعد تلك المناطق عن الخلافة العباسية، في تأسيس دولة مستقلة استمرت قائمة حتى سنة ٣٧٥ هـ /٩٨٥ م. وساعد على بقائها هذه المدة الطويلة إحاطتها بدولتين معاديتين للخلافة العباسية في المشرق، هما الخلافة الأموية في الأندلس والخلافة الفاطمية في شمال أفريقية.

٢ ـ الأدارسة والخلافة العباسية:

لجأ هارون الرشيد إلى إجراءات وقائية لحماية أطراف دولته ولا سيما في المغرب بعدما كثرت الحركات الإستقلالية المعادية للعباسيين، وذلك بأن عهد إلى إبراهيم بن الأغلب بولاية تونس دولة الأغالبة حاجزاً دون أطماع الأدارسة بالتوسع. وفي الوقت نفسه لجأ إلى التخلص من إدريس بن عبدالله بدس السم له سنة ١٧٧ هـ /٧٩٣ م وقتله.

على أن مقتل إدريس بن عبدالله لم يضع نهاية دولة الادارسة كما ظن الرشيد ولم يقف النشاط العلوي في المغرب. وكان لإدريس أمة حامل انتظر أتباعه حتى ولدت ذكراً أسموه إدريس أيضاً والتفوا حوله. يعد إدريس بن إدريس بن عبدالله - إدريس الثاني - المؤسس الحقيقي لدولة الأدارسة، بوضعه قواعدها، وتثبيته أركانها، وبنائه مدينة «فاس» سنة ١٩٢ هـ /٨٠٨ م[٥]. لتكون عاصمة دولته وجعله خطط وجهود إبراهيم بن الأغلب الرامية إلى زرع بذور الفتنة والخلافة بين الأدارسة والبربر تبوء بالفشل.

(٤) تاريخ الطبري ٨ / ١٩٨ ـ ٢٠٠، والكامل في التاريخ ٥ / ٧٦ و٩٠.

(٥) معجم البلدان ٤ / ٢٣٠.

٣ ـ نهاية دولة الأدارسة:

تعاقب على حكم دولة الأدارسة ثمانية. كان أعظمهم يحيى الرابع بن إدريس بن عمر ٢٩٢ ـ ٣١٠ هـ / ٩٠٥ ـ ٩٢٢ م الذي امتد سلطانه على المغرب الأقصى بأكمله. وفي عهده ظهر الفاطميون بشمال أفريقية ومدوا نفوذهم إلى بلاد الأدارسة. واعترف هؤلاء الأخيرون بنوع من التبعة لهم، لأن الأدارسة وجدوا أنفسهم بين نارين: نار الأمويين في الأندلس، ونار الفاطميين في المغرب الأوسط. فالأمويون أخذوا يتطلعون نحو شمال أفريقية، فمدوا نفوذهم فعلاً إلى تلك الأنحاء في عهد عبد الرحمن الناصر، الأمر الذي جعل الأدارسة ينكمشون إلى الريف. وأكثر من ذلك، اضطروا أخيراً إلى خلع الفاطميين ودخلوا في طاعة عبد الرحمن الناصر الأموي. تجاه ذلك الموقف الذي وقفه الأدارسة أرسل عبيدالله المهدي الجيش الفاطمي لإعادة بسط نفوذه عليهم من جديد. فكان أن انتقلوا إلى بلاد الريف، تلاحقهم نظرات المتغلب على كامل بلاد المغرب، سواء من الشيعة الفاطميين أو من المروانيين في الأندلس.

وقد أسهم الأدارسة في خدمة المسلمين عن طريق تثبيت البربر على الإسلام. فكان ظهور دولة الأدارسة مقدمة لظهور دولة المرابطين الذين كمّلوا ما بدأه الأدارسة في تثبيت إسلام البربر ونشر الإسلام في غرب أفريقيا في عهدهم.

٤ ـ دولة الأغالبة:

ذكرنا في الفصل الخامس من هذا الكتاب، أن الرشيد لجأ إلى إقامة وتأييد دولة الأغالبة في تونس لتكون حاجزاً بين الدولة العباسية ودولة الأدارسة. وتحقيقاً لذلك عهد إلى إبراهيم بن الأغلب بولاية أفريقية مقابل شرطين[٦]:

أولهما: أن يوفر إبراهيم بن الأغلب لبيت المال الإعانة التي كانت ترسلها مصر إلى أفريقية ومقدارها مائة ألف دينار سنوياً.

ثانيهما: أن يرسل إلى الخلافة العباسية إضافة إلى ذلك، أربعين ألف دينار سنوياً.

---

(٦) الكامل في التاريخ ٥ / ١٠٤.

ان دلّ هذا الإجراء على شيء إنما يدل على اعترافه باستقلال أفريقية استقلالاً ذاتياً تحت حكم ابن الأغلب. وقد يبعث هذا الإستقلال شيئاً من الإرتياح للخلافة العباسية، ويخفف عن كاهلها أعباء الدفاع عن ولاية أفريقية البعيدة التي كانت تتعرض لهجمات الروم من البحر، ليتولى الدفاع عنها بدلاً من العباسيين الأغالبة، فضلاً عن وقوف الآخرين سداً حاجزاً في وجه أطماع الأدارسة وأخطارهم المرتقبة.

ونجح إبراهيم بن الأغلب في إقرار الأمن بتلك البلاد، فقضى على الثورات التي قامت في تلك الأنحاء، وتوفير أمن الخلافة من ناحية الأدارسة بعقده اتفاقاً معهم يقضي بعدم الإعتداء كل منهما على الآخر. واتخذ إبراهيم مدينة القيروان مركزاً لولايته، ثم ما لبث أن بنى في سنة ١٨٥ هـ /٨٠١ م عاصمة جديدة له فوق اطلال «القصر القديم» على بعد ثلاثة أميال إلى الجنوب من القيروان، وأسماها «العباسية»[٧] تعبيراً عن ولائه للعباسيين.

ركن المسلمون في شمال أفريقيا إلى الدفاع بعد أن كان زمام المبادرة في أيديهم عهد خلافة الأمويين، لانشغال الولاة العباسيين الأوائل بإخماد الثورات واستغلال الروم الفرصة لتغزوا أساطيلهم السواحل الأفريقية من قواعد صقلية ومالطا. وما كاد الأغالبة يوطدون نفوذهم في ولاية أفريقية حتى تحولوا من الدفاع إلى الهجوم. ونجحوا في إنشاء قوة بحرية كبيرة استطاعوا بواسطتها رد هجمات الأساطيل الرومية على الساحل الإفريقي، ثم غزو شواطىء صقلية ومالطا وجنوب إيطاليا حيث أقاموا مراكز دائمة لهم.

وتكررت الغزوات في عهد الأمير زيادة الله الأول بن إبراهيم الأغلب ٢٠١ ـ ٢٢٣ هـ /٨١٦ ـ ٨٣٨ م، فقد أرسل حملة إلى جزيرة صقلية بقيادة القاضي أسد بن الفرات فقيه القيروان، وبصحبته أشراف أفريقية من العرب والجند والبربر الأندلسيين، وأهل العلم والبصائر. واستمر الغزو إلى صقلية من سنة ٢١٢ هـ /٨٢٧ م إلى سنة ٢٦٤ هـ /٨٧٧ م حتى تمّ فتح تلك الجزيرة التي

(٧) معجم البلدان ٤ / ٧٥.

استمرت تحت حكم المسلمين إلى أن استردها النورمان سنة ٤٨٥ هـ /١٠٩٢ م».

فالأغالبة الذين عملوا على إقرار الأمن، والقضاء على الثورات في الداخل وحماية البلادومواصلة حركة الجهاد في الخارج. تعرضت دولتهم للإنحلال ولم تعد تقوى على القيام برسالتها. وفي عهد زيادة الله الثالث ٢٩٠ ـ ٢٩٦ هـ /٩٠٣ ـ ٩٠٩ م. آخر أمراء الأغالبة ببلاد المغرب ـ صار الفاطميون أصحاب السلطان في جميع المناطق الواقعة إلى الغرب من القيروان. وما كاد يسمع زيادة الله الثالث بدخول أبي عبيدالله الشيعي مدينة رقادة وفرار أهلها سنة ٢٩٦ هـ /٩٠٩ م، حتى حمل ثروته وركب فرسه وتقلد سيفه وخرج من مدينة رقادة ومعه أعيان دولته متجهاً إلى طرابلس. فزالت بذلك دولة الأغالبة سنة ٢٩٦ هـ /٩٠٩ م[٨].

عرف عصر الأغالبة ازدهاراً حضارياً، إذ انتعشت الحياة الإقتصادية في أفريقية، بعد أن استقر الأمن في البلاد، وأمّن التجار على أموالهم وبضائعهم وأرواحهم[٩] وانتشر العمران، واخضرت مساحات واسعة من الأراضي بزرعها بالزيتون والنخيل والقمح. وارتفعت صناعة النسيج والأسلحة والسفن والزجاج. وفي حقل العمران أضاف الأغالبة على جامع القيروان الذي اختطه عقبة بن نافع سنة ٥٠ هـ /٦٧٠ م إضافات كبيرة. كما جعلوا من جامع الزيتونة بتونس الذي أسسه ابن الحجاب سنة ١١٤ هـ /٧٣٢ م. جامعاً عظيماً حتى غدا جامعة إسلامية ضخمة.

٥ ـ الدولة الفاطمية: ٢٨٨ ـ ٣٥٨ هـ /٩٠١ ـ ٩٦٩ م

دأب الخلفاء العباسيون على مطاردة العلويين أينما وجدوا. لذلك قاموا بثورات متعددة من وقت لآخر تعبيراً عن شعورهم بالإستياء، إلا أن هذه الثورات كانت تبوء بالفشل، الأمر الذي جعل العلويين وشيعتهم يلتجئون إلى أطراف الدولة

(٨) الكامل في التاريخ ٦ / ١٢٩ ـ ١٣٢.
(٩) الكامل في التاريخ ٦ / ٥.

البعيدة مثل طبرستان واليمن والمغرب أو إلى مناطق العـزلة والجبـال في فارس ومرتفعات الشام.

ومن هذه المراكز التي ذكرت حاولوا بث دعوتهم وترسيخ عقيدتهم وتثبيت أنفسهم. ونتيجة لهذه الجهود نجحوا في إقامة بعض الدول على حساب الدولة العباسية. وأشهر هذه الدول وأقواها وأطولها عمراً كانت الدولة الفاطمية في شمال أفريقية، ثم في مصر والشام.

وأول ما ظهرت الدولة الفاطمية في المغرب، وذلك عندما ذهب أبو عبدالله الشيعي(١٠) إلى المغرب في أواخر القرن الثالث الهجري سنة ٢٨٨ هـ/٩٠١ م لنشر الدعوة الفاطمية في تلك البلاد. ونجح أبو عبدالله الشيعي في جذب الأنصار إليه طوال ثلاث سنوات ٢٨٨ ـ ٢٩١ هـ/٩٠١ ـ ٩٠٣ م، حتى غدا ذا جند عظيم وسلاح كثير ومال وفير. عندها أرسل إلى سلمة ـ مركز الدعوة الإسلامية ـ يدعو عبيدالله المهدي للحضور إلى أفريقية، وفي الوقت نفسه بدأ مرحلة جهاد حربي طويل ٢٩١ ـ ٢٩٧ هـ/٩٠٣ ـ ٩٠٩ م انتهى بالإستيلاء على القيروان ـ عاصمـة الأغالبة.

وبالرغم من أن عبيدالله المهدي كان حذراً في سلوك الطريق إلى المغرب لم ينـج من مطاردة العباسيين له. فقد وقع في قبضتهم على يد اليسع بن مدرار أمير سجلماسة، ووضعه في السجن. فما كان من أبي عبـدالله لما علم بـإلقاء القبض على المهدي، إلا أن سار على رأس قوة كبيرة من أتباعه قاصداً سجلماسة ليخلصه من سجنه. وفي طريقه إلى جنوب المغرب الأقصى مرّ بالمغرب الأوسط ـ الجـزائـر ـ وقضى على الـدولـة الـرستميـة واحتـل عـاصمتهـا تـاهـرت سنـة ٢٩٦ هـ/٩٠٨ م. ثم تابع طريقه إلى رقادة التي بادر أهلها إلى الهرب بعد ما

---

(١٠) هو أبو عبدالله الحسين بن أحمد بن زكريا، أصله من الكوفة، ويعرف بـ«المعلم» لأنه كان يعلم الناس مذهب الإمامية الباطنية ذهب إلى اليمن وكانت مركزاً هاماً للدعوة الشيعية لقربها من الحجاز مجمع الحجاج. وهناك اتصل بداعي الشيعة فيها واسمه ابن حوشب، فأخذ يحضر مجالسه ويستفيد من عمله ويمتثل لأمره. ويروي ابن الأثير أن ابن حوشب وثق به فأرسله إلى المغرب ليكمل رسالة أبي سفيان والحلواني. الكامل في التاريخ ٦ / ١٢٧.

سبقهم اليها زيادة الله، فدخلها يوم السبت أول رجب سنة ٢٩٦ هـ /٩٠٨ م، فنزل ببعض قصورها وفرق دورها على كتامة[11] لأنه لم يبق أحد من أهلها فيها. وأقيمت الخطبة في يوم الجمعة في القيروان ورقادة[12] دون أن يذكر الخطباء أحداً، وأمر بضرب السكة وأن لا ينقش عليها إسم، ولكنه جعل مكان الإسم من وجه: «بلغت حجة الله»، ومن الوجه الآخر: «تفرق أعداء الله». ونقش على السلاح: «عدة في سبيل الله». ووسم الخيل على أفخاذها: «الملك لله»، وأقام على ما كان عليه من لبس الدون الخشن والقليل من الطعام الغليظ[13].

ولما استتبت الأمور لأبي عبدالله في رقادة وسائر بلاد أفريقيا سار في رمضان من السنة نفسها إلى سجلماسة التي بادر أميرها اليسع بن مدرار وأصحابه بالفرار منها ليلاً. فدخلها أبو عبدالله ومن معه وأطلقوا سراح عبيدالله المهدي من سجنه. وبعيد إقامة قصيرة بسجلماسة - ٤٠ يوماً - رجع إلى القيروان فوصل إلى رقادة أواخر ربيع الآخر من سنة ٢٩٧ هـ /٩٠٩ م وقد زال ملك بني الأغلب، وملك بني مدرار الذين منهم اليسع، وملك بني رستم من تاهـرت.

وفي رقادة نزل بقصر من قصورها عبيدالله المهدي الذي أمر خطباء الجمعة بذكر اسمه في الخطبة، وتلقب بـ «المهدي أمير المؤمنين» ووزع أعمال أفريقية ودواوينها على رؤساء قبيلة كتامة. وجبى الأموال، واستقرت الأحوال ودانت له أهل البلاد[14].

وهكذا أقامت الخلافة الفاطمية في المغرب، وتعاقب خلفاؤها في شمال أفريقية: المهدي ٢٩٧/٣٢٢ هـ / والقائم ٣٢٢ - ٣٣٤ هـ، فالمنصور ٣٣٤ - ٣٤١ هـ، فالمعز لدين الله الفاطمي الذي في أيامه فتح جوهر الصقلي مصر واتخذوها مقراً لهم. وتنقل الفاطميون بين عواصم عدة، فاتخذوا أولاً القيروان ثم بنى المهدي عاصمة جديدة أسماها «المهدية» سنة ٣٠٥ هـ /٩١٧ م، بينما بنى المنصور مدينة «المنصورة» سنة ٣٣٧ هـ /٩٤٨ م ليتخذها حاضرة له.

(١١) كتامة: إحدى قبائل البربر الكبرى التي كانت تعيش بمنطقة قسطنطينة، شرقي الجزائر
(١٢) الكامل في التاريخ ٦ / ٢٣٢.
(١٣) المرجع نفسه والصفحة ذاتها.
(١٤) الكامل في التاريخ ٦ / ٢٣٣.

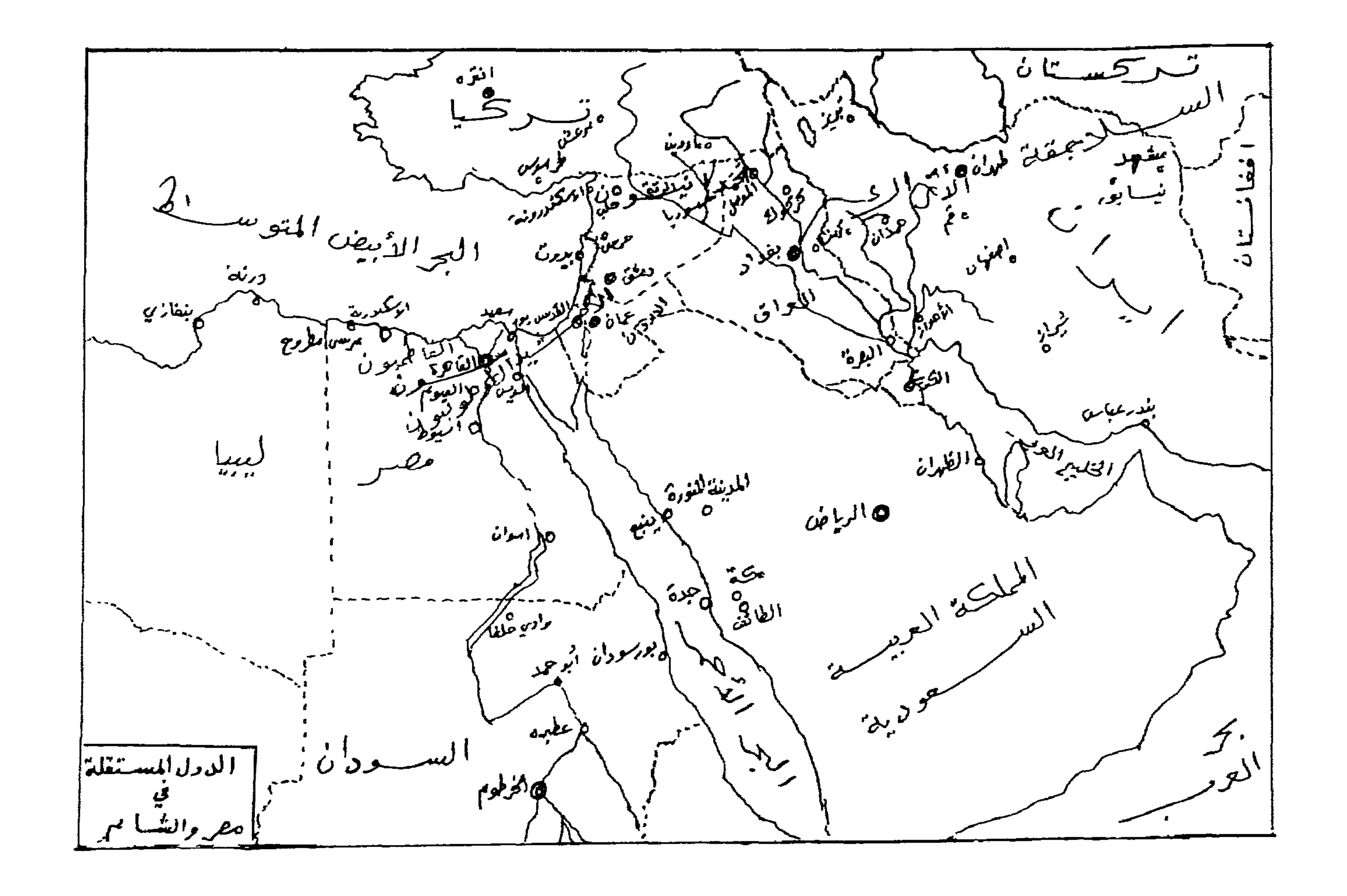
الفصل الثاني عشر

الدول المستقلة في مصر والشام

بالرغم من قرب مصر والشام من قلب الخلافة العباسية، فقد تعرضت هذه الأقاليم إلى نفس الظواهر التي تعرضت لها أقاليم الدولة العباسية في المشرق والمغرب. وتفسير ذلك، أن عامل القرب أو البعد من مركز الخلافة لم يكن وحده هو المتحكم في قوة أو ضعف الروابط التي ربطت الأطراف بالقلب. بل أن هناك عوامل أخرى أسهمت في تكييف تلك الروابط والعلاقات منها: قوة قلب الدولة نفسه، وقدرته على الإحساس بما يجري في الأطراف وإشعار هذه الأطراف بسيطرته عليها.

فكلما كان الخليفة العباسي في بغداد قوياً، مرهوب الجانب، مسموع الكلمة، يأتمر بأمره جيش قوي يدين بالولاء والطاعة له، كان إسم الخليفة وحده يستثير معنى الإحترام في نفوس رعاياه في المشرق والمغرب. أما في الوقت الذي غدا فيه الخليفة العباسي العوبة في أيدي قادة الجيش وأمرائه، يلهون به كيفما يشاؤون، ويعزلونه متى يريدون، ويختارون من يرون ليحل محله... هذه هي صورة الوضع في العاصمة التي ستنعكس على «مختلف الولايات، قربت من العاصمة بغداد أو بعدت عنها. وما دام أن قلب الدولة لا يحس بما يجري في أطرافها. وإذا أحسّ فهو إحساس من لا حول له ولا قوة.

هذه الظواهر للخلافة العباسية، إضافة إلى الظروف الخاصة بمصر والشام، تشجع الولاة في كل منهما على الإستقلال عن الخلافة العباسية، في عصر انتشرت فيه الحركات الإنفصالية في أكثر من منطقة من مناطق الدولة العباسية.



الدول المستقلة
في
مصر والشام
البحر الأبيض المتوسط
تركيا
تركستان
أفغانستان
ليبيا
مصر
السودان
العراق
المملكة العربية السعودية
بحر العرب
البحر الأحمر
أنقرة
بنغازي
درنة
الإسكندرية
القاهرة
أسوان
وادي حلفا
الخرطوم
بورسودان
بيروت
دمشق
عمان
بغداد
البصرة
الكويت
الرياض
المدينة المنورة
ينبع
جدة
مكة
الطائف
الظهران
بندر عباس
الخليج العربي
أصفهان
شيراز
همدان
قم
طهران
مشهد
نيسابور
الأهواز

فبلاد الشام بطبيعتها وجغرافيتها وأقاليمها المتباينة ما بين ساحلية وجبلية وصحراوية صارت مأوى وملاذاً لكثير من المذاهب والحركات والجماعات الناقمة على الدولة العباسية. فضلاً عن هذا أن أهل الشام لم ينسوا بعد أن بلادهم عاشت أياماً حلوة عندما كانت قلب العالم الإسلامي في العصر الأموي، تتجمع في خزائنها أموال الولايات الشرقية والغربية. وهم وقد رأوا العراق يعج بالموالي من فرس وأتراك. آلمهم هذا، وتحسروا على ما أصابهم وأصاب العرب بوجه خاص.

أما بالنسبة إلى مصر الغنية بثروتها الطبيعية الضخمة كانت تغري أي حاكم على الإستقلال بها. ما دامت توفر له الإمكانات المادية والبشرية الكبيرة التي تمكنه من إعداد الجيوش في وجه أي محاولة من جانب السلطة المركزية في بغداد أو سامراء، لزحزحته من مكانه. وإذا علمنا بأن من يستقل بمصر يطمئن على كيانه وقدرته الدفاعية، ندرك العوامل المشجعة على الإستقلال بمصر عن جسم الخلافة العباسية.

لذا قامت على أرض الشام دولة لها مكانتها التاريخية، هي الدولة الحمدانية كما توالت على أرض الشام ومصر دول عدة منها: الدولة الطولونية والدولة الأخشيدية.... الخ.

١ ـ الدولة الحمدانية: ٢٩٢ ـ ٣٩٢ هـ / ٩٠٥ ـ ١٠٠٢ م

ظهر الحمدانيون على مسرح أحداث الخلافة العباسية في الوقت الذي بدأ فيه تصارع الأتراك على سلطة أمير الأمراء في بغداد، ومداخلات الدول المستقلة في مصر ممثلة بالطولونيين ثم الأخشيديين والفاطميين. وجاء ظهورهم في عهد الخليفة المعتضد الذي استعان بالحسين بن حمدان للقضاء على الخارجي هرون الشاري فجاء به أسيراً إلى الخليفة. ثم لم تلبث شهرتهم أن شاعت في أوساط الناس بعد أن استعانت بهم الخلافة ـ بوصفهم قوة عربية ـ لإعادة التوازن ضد طغيان الأتراك من جهة، وللقضاء على أعداء الخلافة والخارجين عليها من جهة ثانية. لذلك كافأ الخليفة المقتدر بالله الحمدانيين فقلد أبا الهيجاء عبدالله بن حمدان الموصل وما يليها سنة ٢٩٢ هـ / ٩٠٥ م، كما ولى أخاه إبراهيم ديار ربيعة في سنة ٣٠٧ هـ / ٩١٩ م، وأخاه سعيداً نهاوند سنة ٣١٢ هـ / ٩٢٤ م.

وتكررت الإستعانة بالحمدانيين لإعادة الأمور إلى مجراها الطبيعي في بغداد بعدما خرج البريديون على الخليفة المتقي لله. فاضطر إلى الفرار نحو الموصل هرباً من البريديين الذين عاثوا فساداً في بغداد. فلبى الحسين بن حمدان طلب الخليفة بمساعدته ضدهم، وكلف أخاه علياً مساندة الخليفة. فكافأ الخليفة المتقي لله الحسين بن حمدان بلقب «ناصر الدولة» وعلى أخيه علي بلقب «سيف الدولة» وذلك سنة ٣٣٠ هـ / ٩٤١ م[١].

رأى سيف الدولة الحمداني ـ علي ـ أن الفرصة مؤاتية وسط الفوضى التي تسود العراق، وسار إلى حلب فملكها سنة ٣٣٣ هـ / ٩٤٤ م وهرب واليها الأخشيدي يانس المؤنسي إلى مصر. عندها أرسل الأخشيد جيشاً بقيادة كافور بطرد سيف الدولة الحمداني من حلب. انتصر عليه الأخير عند الرستن علي العاصي، وطمع في مد سيطرته حتى دمشق[٢]. لكنه لم يقو على ذلك لأن الأخشيد جاء بنفسه على رأس قوة كبيرة من جيشه وتصدى له. ثم انتهى القتال بينهما بالصلح والإتفاق على أن يأخذ سيف الدولة حلب وما يليها من بلاد الشام شمالاً ليكون الأخير حاجزاً يقي بواسطته الأخشيديين هجمات الروم البيزنطيين الذين انتهزوا فرصة ضعف الدولة العباسية، وأخذوا يغيرون من وقت لآخر على أطرافها.

وما أن سمع سيف الدولة الحمداني بوفاة الأخشيد سنة ٣٣٤ هـ / ٩٤٥ م، وقيام كافور بالوصاية على ابنه أبي الحسن علي، حتى نقض الإتفاق بين الطرفين. وهجم على دمشق واستولى عليها[٣]. لكن كافور أسرع بالمجيء إليها وأنزل به هزيمة اتفق بعدها الإثنان على العودة إل العمل بالإتفاق القديم بين الأخشيد وسيف الدولة الحمداني. ثم وجه سيف الدولة اهتمامه إلى غزو بلاد الروم حتى غزاها نحواً من أربعين غزوة شملت زبطرة وعرقة وملطية، انتصر في غالبيتها. مما

---

(١) الكامل في التاريخ ٦ / ١٨٤ ـ ٢٨٥ والبداية والنهاية ١١ / ٢٠٢

(٢) الكامل في التاريخ ٦ / ٣١٢.

(٣) الكامل في التاريخ ٦ / ٣١٨ والبداية والنهاية. ١١ / ٢١٣ ـ ٢١٤.

حدا بالشعراء للإشادة بانتصاراته وشجاعته، وبخاصة المتنبي الذي قال فيه أحسن شعره.

وهكذا أرسى سيف الدولة الحمداني دعائم دولته في حلب. فاستقطب بلاطه مشاهير العلماء والأدباء والشعراء أمثال المتنبي وأبي الفتح عثمان النحوي. وقد أجزل سيف الدولة العطاء للشعراء بسبب محبته للشعر وإجادته نظمه، وبادله الشعراء شعراً حسناً وفنا جيداً. كما اشتهر جماعة من أهل بيته كأبي فراس الحمداني - ابن عمه - في نظم الشعر، وهو حينما وقع في أسر الروم في إحدى غزواته، كتب أحسن شعره وهو في الأسر متأسياً، شاكياً، عاتباً، طالباً، من سيف الدولة بحلب أن يفديه، لأنه نشأ في رعايته. ومن ذلك قول أبي فراس مخاطباً سيف الدولة[٤]:

ولا تقعدن علي، وقد سيم فديتي ... فلست عن الفعل الكريم بمقعد
فكم لك عندي من أياد وأنعم ... رفعت بها قدري وأكثرت حسدي

هذا وقد اجتمع في بلاط سيف الدولة أشهر اللغويين والنحويين في زمانه مثل أبي علي الفارسي وابن خالويه، وابن جني، فضلاً عن الفيلسوف الكبير الفارابي الذي كتب في الطب والمنطق والإلهيات والسياسة والرياضة والكيمياء والموسيقى. أما الطبيب عيسى بن الرقي فقد قال عنه ابن أبي اصيبعة في كتابه «طبقات الأطباء» «أن سيف الدولة كان يعطي عطاء لكل عمل، وكان عيسى الرقي يأخذ أربعة أرزاق: رزقاً بسبب الطب، ورزقاً بسبب ترجمة الكتب من السرياني إلى العربي، ورزقين بسبب علمين آخرين[٥]».

على أن الدولة الحمدانية سرعان ما تعرضت للضعف بعد وفاة سيف الدولة بحلب في شهر صفر سنة ٣٥٦ هـ /٩٦٧ م. ذلك أن ابنه سعد الدولة[٦]:

(٤) أبو فراس الحمداني - الديوان. ٨٣ - ٨٤ من قصيدة بعنوان «متى تخلف الأيام مثلي». منشورات دار صادر - بيروت.

(٥) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء ٢ / ٧٩ منشورات مكتبة الثقافة بيروت ١٩٨١ م.

(٦) الكامل في التاريخ ٧ / ١٥١ - ١٥٣.

٣٥٦ ـ ٣٨١ هـ / وحفيده سعيد الدولة: ٣٨١ ـ ٣٩٢ هـ / ٩٩١ ـ ١٠٠٢ م لم يستطعا فرض الأمن والقضاء على الثورات الداخلية التي كثرت في عهديهما، إضافة إلى أن الروم البيزنطيين عادوا إلى تهديدهم في الوقت الذي تطلع فيه الفاطميون إلى استرداد حلب إلى نفوذهم. ولم يمض القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي حتى اضطر الحمدانيون إلى الإعتراف بالخلافة الفاطمية مما أدى إلى زوال حكمهم على أيدي الفاطميين. ولكن بالرغم من قصر عمرها فقد قامت بدور عظيم في مجال السياسة والجهاد والحضارة يسترعي الإنتباه.

٢ ـ الدولة الطولونية: ٢٥٤ ـ ٢٩٢ هـ /٨٦٨ ـ ٩٠٥ م

أولى الخلفاء العباسيون مصر والشام اهتماماً كبيراً نظراً إلى كونهما حلقة وصل بين مغرب الدولة ومشرقها. فتولى حكمها إدارياً نائب الخليفة وولي عهده باعتبارهما وحدة إدارية واحدة. على أن مقر إقامته كان اما بدمشق في الشام، أو بالعسكر في مصر.

وفي أواخر العصر العباسي الأول، وبالتحديد منذ خلافة المأمون، حقق نواب الخليفة مكتسبات كثيرة منها:

- حق الإقامة في بغداد بصفة مستمرة.
- حق الخطبة لهم على المنابر.
- حق كتابة أسمائهم على السكة ـ النقود. .

وبعد أن سيطر الأتراك على النفوذ في العصر العباسي الثاني، أصبح الولاة منهم. لكن عز عليهم أن يبتعدوا عن بغداد أو سامراء، لذلك أنابوا عنهم رجالاً يصرفون أمورها باسمهم. الأمر الذي جعل نواب الولاة ـ مع الأيام ـ ينتهزون فرصة انشغال الولاة بما كان يجري داخل عاصمة الخلافة، من منافسات ومنازعات على السلطة ـ مثلاً: أمرة الأمراء ـ ، فضلاً عن ضعف الخلفاء أنفسهم، وعدم قدرتهم على فرض الولاء التام، فينزعون إلى الإستقلال عن الخلافة العباسية.

وولي مصر منذ عهد المعتصم بالله أحد أمراء الأتراك المدعو[٧] «بايكباك»

(٧) كانت لباكباك من ولاية مصر الصلاة والحاضرة في حين كان على الإسكندرية إسحق بن دينار وعلى=

على أن بـايكبـاك ـ شـأنـه شـأن سـائـر ولاة ذلـك العصـر ـ أنـاب عنـه سنـة ٢٥٤ هـ /٨٦٨ م ابن زوجته أحمد بن طولون[٨]، إلا أنه قتل بعد مدة قصيرة، وحل محله في ولاية مصر أمير تركي اسمه «باركياروق» كانت تربطه بأحمـد بن طولون روابط مودة أسرع إلى الزواج من ابنة الوالي الجديد تمتيناً للروابط وضماناً لبقائه في الولاية. فكان له ما أراد، إذ أقره «باركياروق» على ولاية مصر بكاملها قائلاً في الكتاب[٩]: تسلم من نفسك إلى نفسك «فانسحب من مصـر صاحب خراجها أحمد بن المدبـر إلى الشام سنـة ٢٥٧ هـ / ٨٧٠ م ليتقلد خراج دمشق وفلسطين والأردن.

فأحمد بن طولون مؤسس الدولة الطولونية تركي الأصل ـ والده أحد مماليك المأمون ـ نشأ في بغداد نشأة عسكرية، ونال قسطاً وافراً من التـربية الإسـلامية وحصل محصلة فقهية غنية في بغداد وطرسوس كان لها الأثر الكبير في أخلاقه وسياسته بابتعاده عن العبث والظلم والجشع في جمـع الأموال. واتخـذ لنفسه سياسة ذكية استهدفت الإستقلال بمصر كلها ليجعل منها دولة يحكمها هو وأولاده من بعده، على أن تربطها بالخلافة روابط شكلية منها:

ـ الدعاء للخليفة في خطبة الجمعة.
ـ نقش اسم الخليفة على السكة ـ النقود.
ـ إرسال جزء من الخراج ـ ضريبة على الأراضي ـ إلى الخليفة.

وأول ما يفكر فيه مؤسس الدولة إيجاد حاضرة لدولته. اما باتخاذه مدينـة قديمة أو ببنائه عاصمة جديدة. كان أن أنشأ أحمد بن طولون مدينة القطائع[١٠] سنة ٢٥٦ هـ / ٨٧٠ م فوق جبل «يشكر» بين مدينة الفسطاط وتلال جبل المقطم عند مكان قلعة مصر اليوم لتكون عاصمة له. وبنى فيها قصراً فخماً ترك أمامه

= برقة أحمد بن عيسى الصعيدي، وعلى القضاء بكار بن قتيبة، وعلى البريد شقير الخادم، وعلى خراج مصر بكاملها أحمد بن المدبر.

(٨) تزوجت أمه بعد وفاة والده من الأمير «بكباك».

(٩) الكامل في التاريخ ٥ / ٣٣٩. النجوم الزاهرة جـ ٣ / ٥ ـ ٧.

(١٠) النجوم الزهرة ٣ / ١٤ ـ ١٧. والخطط المقريزية. ١ / ٣١٥.

ميداناً واسعاً يستعرض فيه الجيوش. وأحاط بالقصر ثكنات جنوده وحاشيته، جاعلاً لكل فئة من جنوده قطعة ـ وحدة ـ خاصة بها. فجاء اسم العاصمة جامعاً لها «القطائع». وابتنى بها، إلى جانب قصره، مسجده الذي انتهى منه سنة ٢٦٥ هـ /٨٧٩ م، وهو لا يزال إلى الآن على حالته الأصلية باستثناء المئذنة التي أعيد بناؤها سنة ٦٩٦ هـ /١٢٩٦ م. كما بنى بيمارستانا لمعالجة المرضى على اختلاف حالاتهم، والحق بالبيمارستان صيدلية لإعطاء الأدوية اللازمة مجاناً.

ولم يلبث «باركيا روق» هو الآخر أن توفي سنة ٢٥٨ هـ /٨٧٢ م. فأصبح أحمد بن طولون يحكم مصر من قبل الخلافة مباشرة، بيده إدارتها وماليتها وقضاؤها وجيشها عندها أظهر أحمد بن طولون اهتمامه الكبير في القضاء على الفتن الداخلية وبنوع خاص تلك التي أشعل نارها الخوارج والعلويون. كما أحكم رقابته على الموظفين وخاصة موظفي ديوان الخراج. فحصل على زيادة في الدخل دون اللجوء إلى إرهاق الأهالي، كما كان يفعل أحمد بن المدبر في السابق. ثم استغل هذا الدخل الكبير في العناية بالمشاريع العمرانية، فربط البلاد بشبكة من الجسور، وحفر الترع ووطد الأمن، ورعى التجارة.

وكل هذه الأمور لم يقو على تحقيقها لو لم يبادر إلى إنشاء جيش كبير عدداً وعدة لتوطيد مركزه من جهة والدفاع عن البلاد ضد أي خطر خارجي من جهة ثانية، فضلاً عن توطيد الأمن داخل البلاد من جهة ثالثة. لذا أكثر أحمد بن طولون من شراء الرقيق حتى وصل عددهم في عهده إلى أربعة وعشرين ألف غلام تركي وأربعين ألف أسود، وسبعة آلاف مرتزق.

لكن سيطرة طلحة الموفق على أخيه الخليفة المعتمد على الله في حاضرة الخلافة أقلق بال أحمد بن طولون ولا سيما عندما طلب الموفق منه مساعدة مالية ولم يقدمها له. فأقدم الأخير على عزله عن مصر وتوليه «ماجور التركي» مكانه. وواجه أحمد بن طولون الموقف بشجاعة إذ أقدم على إظهار طاعته للخلافة بإرساله رسالة إلى الخليفة المعتمد سنة ٢٦٨ هـ /٨٨٢ م يحرِّضه فيها على المجيء إلى مصر، ويعده بالحماية، ويحرضه على جشع واستبداد أخيه الموفق، في الوقت الذي امتدت دولته من العراق شرقاً إلى برقة غرباً ومن آسيا الصغرى شمالاً إلى

النوبة جنوباً. لكن الموفق علم بمؤامرة ابن طولون في محاولته نقل الخليفة والخلافة إلى مصر وأفشلها، إلا أنه لم يتمكن من محاربته لانشغاله في القضاء على ثورة الزنج، مكتفياً بتدبير المكائد والمؤامرات ضده، الأمر الذي جعل أحمد بن طولون يتبع السياسة نفسها تجاه الموفق، ويصدر أوامره بلعن الموفق على منابر مصر والشام، وحسّن علاقته بالدولة الأموية في الأندلس وسهّل أمور رعاياها في بلاده.

ثم توفي أحمد بن طولون سنة ٢٧٠ هـ /٨٨٣ م قبل إنهاء الخلاف بينه وبين الموفق. فأسرع الأخير إلى الإغارة على الشام للقضاء على الدولة الطولونية لاعتقاده أن خمارويه الذي خلف أباه في حكم الطولونيين لم يكن رجل حرب لميله إلى حياة السلم والرخاء. فاستولى الموفق العباسي على الشام حتى الحدود المصرية. لكن خمارويه أفشل خطته ورده على أعقابه حينما قام على رأس قوة كبيرة من جيشه يساعده في القيادة القائد «سعد الأيسر» واستعادا سيطرة الطولونيين على البلاد الشامية حتى الموصل والجزيرة الفراتية. وانتزع من الخلافة العباسية اعترافاً له بحكم مصر ـ هو وأولاده ـ لمدة ثلاثين سنة عند عقد معاهدة صلح سنة ٢٧٣ هـ /٨٨٦ م[١١]. بينه وبين الخليفة العباسي المعتمد وولي عهده الموفق على أن يكف خمارويه عن لعن الموفق على منابر مصر والشام والدعاء له مع الخليفة المعتمد على الله العباسي.

وارتاح خمارويه من المضايقات بموت الموفق العباسي سنة ٢٧٨ هـ /٨٩١ م. وموت أخيه الخليفة المعتمد على الله سنة ٢٧٩ هـ /٨٩٢ م. فدعم سلطانه في مصر والشام، وشدّ روابط علاقاته بالخلافة العباسية ترسيخاً لسلطانه عندما تزوج الخليفة العباسي المعتضد بالله من ابنته أسماء[١٢] ـ الملقبة قطر الندى ـ سنة ٢٨١ هـ /٨٩٤ م بعدما بنى خمارويه القصور والإستراحات[١٣]

(١١) النجوم الزاهرة ٣ / ٥٠ ـ ٥١.

(١٢) النجوم الزاهرة ٣ / ٥٢ ـ ٥٣.

(١٣) النجوم الزاهرة ٣ / ٦١ ـ ٦٢.

على جانبي الطريق إلى بغداد كي تتمتع قطر الندى أثناء سيرها إلى بغداد بكل وسائل الراحة، فتشعر كأنها لم تفارق قصر أبيها.

انصرف خمارويه، بعد ذلك، إلى الإهتمام بالشؤون العمرانية. فحوّل الميدان الذي خصصه والده لعرض الجند إلى بستان تأنق في تنسيقه وغرسه بمختلف أنواع الأشجار والأزهار ونافورات المياه. كما خصص قسماً منه لإقامة حديقة للحيوانات والطيور المختلفة. وأخيراً ابتنى له وسط هذا البستان قصراً فخماً سماه «دار الذهب» لطلاء جدرانه بالذهب والنقوش والرسوم المذهبة[١٤].

وبموت خمارويه سنة ٢٨٢ هـ / ٨٩٥ م اضطربت أحوال الطولونيين عندما خلفه ابنه «أبو العساكر جيش» الذي اتبع سياسة غاشمة قادت قواد جيشه إلى الخروج عليه، فخلعوه وسجنوه وولوا أخيه الأصغر «هرون» مكانه. وهكذا صار أمراء البيت الطولوني ألعوبة في أيدي الجند.

وفي سنة ٢٩٠ هـ /٩٠٣م ظهر القرامطة بالشام فأرسل الطولونيون جيشاً لطردهم منها، لكن هذا الجيش مني بالهزيمة مما أضعف من هيبة الدولة الطولونية. ولما تأكدت الخلافة العباسية من ضعف الطولونيين وانحلال أمرهم جددت رغبتها في استعادة مصر من أيديهم قبل أن تقع في أيدي القرامطة أو الفاطميين. فأرسلت سنة ٢٩٢ هـ /٩٠٥م جيشاً بقيادة محمد بن سليمان الكاتب. كما طلبت من قائد الأسطول في الثغور الشامية بالتوجه إلى مصر ومساعدة قائدها الكاتب، لاستعادة مصر إلى سيطرة العباسيين المباشرة.

لم يقو الأسطول الطولوني على الصمود أمام الأسطول العباسي، وكذلك الجيش البري أمام زحف جيش محمد بن سليمان الكاتب الذي تمكن من اختراق صفوف الطولونيين والدخول إلى مدينة القطائع سنة ٢٩٢ هـ /٩٠٥م وتدميرها تدميراً شبه كامل[١٥]. وبذلك زالت الدولة الطولونية بعد أن تمتعت بالإستقلال الذاتي مدة أربعين سنة تقريباً، وعادت مصر إلى حكم العباسيين.

---

(١٤) النجوم الزاهرة ٤ / ٥٢ ـ ٥٧.

(١٥) الكامل في التاريخ ٦ / ١٠٩ ـ ١١٠ والنجوم الزاهرة ٣ / ١٣٥ ـ ١٤٠.

٣ ـ الدولة الأخشيدية: ٣٢٣ ـ ٣٥٨ هـ / ٩٣٥ ـ ٩٦٩ م

لم تستقر الأوضاع في مصر أكثر من ربع قرن بسبب اضطراب الخلافة العباسية وعدم استقرار الأمور في عاصمتها بغداد. فانعكست آثار هذه الأوضاع على مصر وسائر الأقاليم العباسية آنذاك. وقد زادت الحالة الداخلية في مصرسوءاً بسبب الحملات الفاطمية من وقت لآخر بغية الإستيلاء عليها.

في وسط هذه الظروف ظهر محمد بن طغج الملقب بالأخشيد. وهذا اللقب من ألقاب ملوك فرغانة في بلاد ما وراء النهر. وقد دخل جده «جف» في خدمة الخليفة العباسي المعتصم. ثم ابنه الواثق فأخيه المتوكل بسامراء. وعمل أبوه في جيش أحمد بن طولون بنواحي طرسوس من أعمال دمشق، كما دخل محمد في عداد الحملة التي جاءت إلى مصر تحت قيادة «تكين» التركي. فأظهر براعة حسنة في قتال الحملة الفاطمية التي هاجمت مصر سنة ٣٠٢ هـ / ٩١٤ م بقيادة حباسة بن يوسف الكتامي. وظل محمد بن طغج يرتقي إلى أن ناب عن القائد التركي «تكين»(١٦) في عدة ولايات. ثم استقوى بعد أن صاهر الفضل بن جعفر صاحب الكلمة في بغداد عندئذٍ.

وأخيراً تحققت آمال محمد بن طغج لما أحست الخلافة العباسية بحاجتها إلى رجل قوي يقر الأمن في مصر لاضطراب أحوالها بسبب مطامع القواد من جهة واستبداد محمد بن علي الماذرائي صاحب الخراج في مصر من ناحية أخرى، فولاه الخليفة العباسي الراضي بالله ٣٢٢ ـ ٣٢٩ هـ / ٩٣٤ ـ ٩٤٠ م على مصر سنة ٣٢٣ هـ / ٩٣٥ م بعد تصديه للحملة الفاطمية(١٧) سنة ٣٢١ ـ ٣٢٤ هـ / ٩٣٣ ـ ٩٣٦ م. ومنحه لقب «الأخشيد»، فدعي له على منابر مصر والشام سنة ٣٢٧ هـ / ٩٣٨ م. بهذا اللقب. فتأسست ثاني دولة مستقلة في مصر أيام العباسيين.

وقلد الأخشيد محمد بن طغج الطولونيين في جميع أعمالهم وبخاصة من

---

(١٦) النجوم الزاهرة ٣ / ٢٥٠ ـ ٢٥٤.

(١٧) الكامل في التاريخ ٦ ـ ٢٣٨. والنجوم الزاهرة ٣ / ٢٣٧.

الناحية السياسية والتاريخية. وحاكاهم في بلاطه ومواكبه وتصرفاته. وحرص على إنشاء جيش قوي اعتمد عليه في توطيد مركزه والدفاع عن البلاد. وسرعان ما افتضح أمره ونواياه في العمل من أجل السيطرة على الشام. الأمر الذي أغضب الخليفة عليه. وقلد محمد بن رائق مصر. ومن جانبه الأخشيد رد على تكليف ابن رائق أعمال مصر بإلغاء الخطبة للخليفة العباسي. حتى قيل انه أمر بذكر الخليفة الفاطمي بدلاً منه.

ولما دارت الحرب بينهما تمكن الأخشيديون من الانتصار على ابن رائق قرب العريش. لكنه اضطر إلى القبول بالصلح بينهما على أن يتقلد ابن رائق الأراضي الشامية شمالي الرملة مقابل جزية سنوية مقدارها ٤٠ ألف دينار سنوياً. ثم لم يلبث أن مات ابن رائق، مما مكن الأخشيد من استعادة نفوذه على بلاد الشام دون جهد. إلا أن سوء العلاقات بين الأخشيد وسيف الدولة الحمداني في حلب لم يبعث على الإستقرار في مصر. وكان ذلك في الوقت الذي خرج العلويون على الأخشيد في مصر مما تطلب منه جهداً كبيراً لتهدئة الأوضاع داخل البلاد. انصرف بعدها إلى محاربة الحمدانيين واستعادة البلاد الشامية التي غلب عليها الحمدانيون فانتصر الأخشيد يساعده قائداه كافور الحبشي وفاتك الرومي عليهم في موقعة قنسرين بسوريا الشمالية، ودخل مدينة حلب واسترد دمشق، لكن الأخشيد عاد وتنازل عن حلب وشمال سوريا لسيف الدولة الحمداني(١٨) بعدما عقدت معاهدة صلح بين الطرفين ختمت بزواج سيف الدولة من ابنة أخي الأخشيد تمتيناً لعرى الصداقة بين الدولتين سنة ٣٣٣ هـ / ٩٤٥ م.

عرفت البلاد التي امتد نفوذ الأخشيد عليها ـ مصر واليمن والشام فضلاً عن أمر مكة والمدينة ـ حالة من الرخاء نتيجة لامتلاكه ثروة طائلة، واتباعه سياسة إصلاحية في مختلف مرافق البلاد من قصور وبساتين. ومات الأخشيد سنة ٣٣٤ هـ /٩٤٦ م ودفن ببيت المقدس. فخلفه ابنه أبو القاسم أو نوجور على أن يقوم بالوصاية عليه كافور الذي أصبح صاحب السلطان في إدارة شؤون الدولة. حتى سنة ٣٤٩ هـ / ٩٦٠ م، وعلي بن الأخشيد الذي مات سنة ٣٥٥ هـ /٩٦٦ م

(١٨) الكامل في التاريخ ٦ / ٣١٢ والنحوم الزاهرة ٣ / ٢٥١ ـ ٢٥٦.

أعلن بعدها كافور نفسه والياً على مصر من قبل الخليفة[١٩].

وقد نجح كافور في سياسته الخارجية والداخلية، سواء في محاربة سيف الدولة الحمداني والحد من أطماعه في بلاد الشام، إلا في القضاء على الثورات الداخلية وتوطيد الأمن والإستقرار في البلاد[٢٠]، وقد تعرضت بلاد الشام لغارات القرامطة فنهبوها وقبضوا على قافلة مصرية كبيرة للحجاج تتألف من ٢٠ ألف جمل كانت في طريقها لأداء فريضة الحج. فضلاً عن الزلازل المروعة التي وقعت بالبلاد، والنيران الهائلة التي التهمت ١٧٠٠منزلٍ بالفسطاط، وإغارات ملك النوبة التي تواصلت هجماته حتى أخميم.

ونجح دعاة الشيعة في بث دعوتهم في أنحاء البلاد المصرية حتى كثر أتباعهم فيها، ومحاولات الهجوم عليها من قبل الفاطميين في المغرب لم تنقطع حتى إذا توفي كافور سنة ٣٥٨ هـ /٩٦٨ م أرسل المعز لدين الله الفاطمي قائده جوهر الصقلي على رأس حملة كبيرة نجحت في الإستيلاء على مصر سنة ٣٥٨ هـ / ٩٦٩ م. وبذلك سقطت الدولة الأخشيدية لتحل محلها الدولة الفاطمية في حكم مصر والشام.

---

(١٩) النحوم الزاهرة ٣ / ٣٢٣ - ٣٤٤. و ٤ / ٢.

(٢٠) النجوم الزاهرة ٤ / ٣ - ٦



الفصل الثالث عشر

العصر العباسي الرابع
او عصر النفوذ السلجوقي

أولاً: الدولة السلجوقية:

ظهر الأتراك السلاجقة على مسرح أحداث الخلافة العباسية في الوقت الذي تجاذبت فيه السيادة على منطقة المشرق الإسلامي خلافتان أولاهما الخلافة العباسية السنية والثانية الخلافة الفاطمية الشيعية. وقد أصابهما الضعف واعتراهما الإنحلال بسبب تسلط بني بويه على الخلفاء العباسيين وازدياد نفوذ الوزراء بعد خلافة الحاكم بأمر الله الفاطمي. وأحداث ظهور السلاجقة الأتراك في هذه الفترة تغييراً في موازين القوى بالمنطقة.

١ ـ قيام الدولة السلجوقية:

يرجع أصل السلاجقة الأتراك إلى بعض القبائل التركية المعروفة باسم الغز أو الأغواز. عاشوا في أول أمرهم في سهوب التركستان بأواسط آسيا ثم نزحوا إلى بلاد ما وراء النهر ـ نهر سيحون ـ حيث اعتنقوا الإسلام على المذهب السني. وبعد وفاة سلجوق بن دقاق ـ موحدهم وجامع شملهم ـ انتقلوا إلى نواحي بخارى وسمرقند في أواخر القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي ليتعاونوا مع السامانيين في حماية الثغور الإسلامية الشرقية، وبعد سقوط الدولة السامانية أخذت جموع السلاجقة الأتراك تنتشر غرباً نحو خراسان بزعامة «طغرلبك» حفيد سلجوق بن دقاق واستولوا على نيسابور سنة ٤٢٨ هـ / ١٠٣٦ م[1]. أدى استيلاء

(١) الكامل في التاريخ ٨ / ١٥.

السلاجقة على نيسابور إلى أخذ الحيطة من قبل السلطان مسعود الغزنوي والتنبه إلى خطرهم، ولكن بعد فوات الأوان، إذ ألحقوا به هزيمة كبرى مدوا نفوذهم بعدها على كامل خراسان بينما اقتصر نفوذ الغزنويين على أفغانستان فقط بدءاً من سنة ٤٣٢ هـ / ١٠٤٠ م[٢].

تمكن طغرلبك من توسيع رقعة دولته على حساب الدولة المجاورة، فاستولى على الري سنة ٤٣٤ هـ /١٠٤٢ م، وعلى أصبهان سنة ٤٤٢ هـ / ١٠٥٠ م. ثم اتخذ هذه الأخيرة قاعدة لدولته الجديدة التي بدأ في وضع نظمها وأقر النظام فيها، في الوقت الذي انصرف فيه بعض زعماء السلاجقة إلى العمل لحسابهم الخاص فتوسعوا في فارس وشمال العراق وأرمينيا وآسيا الصغرى مظهرين تمسكهم بمذهب السنة.

وإزاء تحكم البويهيين بالخلفاء العباسيين والحد من نفوذهم، فضلاً عن مؤامرات الخلافة الفاطمية لأخذ دور العباسيين عن طريق مناصرتها للدولة البويهية الشيعية[٣]. اضطر الخليفة العباسي القائم بأمر الله إلى الإستعانة بزعيم الأتراك السلاجقة «طغرلبك» أملا في القضاء على تلك الأوضاع التي تعاني منها الخلافة وبخاصة كثرة الفتن المذهبية في بغداد وانتشارها في العراق[٤].

لبّ طغرلبك طلب النجدة من جانب الخليفة القائم بأمر الله فوصل إلى العراق ودخل بغداد سنة ٤٤٧ هـ /١٠٥٥ م وسط مظاهر من التقدير والتعظيم من جانب الأمراء والرؤساء والقضاة والنقباء والإشراف خرجوا جميعاً جميعاً لاستقباله، كما «تقدم الخليفة إلى الخطباء بالخطبة لطغرلبك بجوامع بغداد، فخطب له يوم الجمعة»[٥]. فكان دخول طغرلبك إلى بغداد إعلاناً بسقوط الدولة البويهية وقيام الدولة السلجوقية محلها في الوصاية على الخلافة العباسية. وتدعيماً للتعاون

(٢) الكامل في التاريخ. جـ ٨ / ٢١ - ٢٦. والبداية والنهاية جـ ١٢ / ٤٨ وتابع ابن خلدون. جـ ٣ / ٤٥٠ - ٤٩٠.

(٣) النجوم الزاهرة ٥ / ١١

(٤) الكامل في التاريخ ٨ / ٦٥ والبداية والنهاية ١٢ / ٦٤

(٥) الكامل في التاريخ ٨ / ٧١. والبداية والنهاية ١٢ / ٦٦.

العباسي السلجوقي تزوج الخليفة القائم بأمر الله من خديجة ـ خاتون أرسلان ـ بنت داود أخي السلطان طغرلبك.

٢ ـ ثورة البساسيري:

ترك الملك الرحيم أبو النصر خسرو فيروز ـ أمير الأمراء من بني بويه ـ مقاليد الأمور في بغداد لفئة من أعوانه، إلا أن المظفر أبا الحرث أرسلان المعروف بالبساسيري كان أعظمهم شأناً وأعلاهم قدراً، لم يتورع عن تدبير مؤامرة للقضاء على الخلافة العباسية وإدخال بغداد تحت لواء الخلافة الفاطمية. وكثر حساده ومنهم الوزير أبو القاسم علي بن المسلمة الذي أخذ يدبر الدسائس للبساسيري ويوغر صدر الخليفة حتى غضب عليه. فاضطر إلى الهرب من بغداد واللجوء إلى مدينة الرحبة في الشمال على نهر الفرات. وما أن دخل طغرلبك بغداد واتصل البساسيري بالخليفة الفاطمي في القاهرة المستنصر بالله طالباً نجدته ليتمكن من العودة إلى بغداد وطرد السلاجقة منها. فاستجاب الخليفة الفاطمي إلى طلبه انتقاماً لسقوط الدولة البويهية وأرسل إلى البساسيري خمسمائة ألف دينار، وألبسة بما يوازي هذا المبلغ، وخمسمائة فرس، وعشرة آلاف قوس. وألوف السيوف والرماح والنشاب[٦].

وَوَاتَت الفرصة المناسبة البساسيري، بخروج طغرلبك من بغداد لمحاربة أخيه إبراهيم ينال ـ أخوه من أمه ـ في شمال العراق. فهاجم البساسيري بغداد واستولى عليها يساعده في ذلك شيعة الكرخ ـ أحد أحياء بغداد ـ وذلك في سنة ٤٥٠ هـ /١٠٥٨ م، وقبض على الوزير أبي القاسم بن المسلمة الذي دبر له الدسائس حتى هرب من بغداد. فقيده البساسيري وشهره على جمل وعليه طرطور وعباءة، وجعل في رقبته قلائد مسخرة به، وطيف به في الشوارع وخلفه من يصفعه[٧]. فعمت الفوضى بغداد، الأمر الذي جعل العامة تنهب قصر الخليفة القائم بأمر الله ثم سلمه إلى والي حديقة عامة في شمال الفرات بعد أن انتزع منه

---

(٦) النجوم الزاهرة ٥ / ١١ ـ ١٢.

(٧) الكامل في التاريخ ٨ / ٨٤. والنجوم الزاهرة ٥ / ٧.

اعترافاً خطياً يذكر فيه بأنه لاحق لبني العباس في الخلافة مع وجود أولاد فاطمة الزهراء.

ورفع البساسيري الألوية الفاطمية في بغداد وغيرها من المدن العراقية مثل واسط والبصرة. وخطب للخليفة المستنصر بالله ٤٢٨ - ٤٨٧ هـ /١٠٣٦ - ١٠٩٤ م الفاطمي على منابرها، وأرسل إليه يعرفه بما فعل. فسر المستنصر بالله، وتعبيراً عن فرحه بهذا الحديث، أمر بإقامة الزينات والأفراح في القاهرة حيث غنت «نسب» الطبالة، فوقفت تحت القصر وأخذت تنشد وهي تضرب بالطبل ومعها بطانتها:

يا بني العباس ردوا ملك الأمر معد
ملككم ملك معار والعواري تسترد[٨]

فطرب المستنصر بالله لذلك، وطلب منها أن تتمنى عليه فسألته أن تقطع هذه الأرض المجاورة للمقس، فاقطعها إياها[٩]، وعرفت منذ ذلك «بأرض الطبالة».

وحالت الظروف القاسية التي مرت بها البلاد المصرية، بسبب الأزمة الإقتصادية التي حلت بها آنذاك[١٠] إلى عدم توالي المساعدة من المستنصر بالله إلى البساسيري الأمر الذي انعكس على ثورته وجعلها تنتهي سريعاً. ذلك أن طغرلبك لما انتهى من الإنتصار على أخيه إبراهيم ينال، رجع إلى بغداد وأعاد الخليفة العباسي القائم بأمر الله إلى عرشه. ثم قاتل البساسيري إلى أن هزمه وقتله وطلب ابنة الخليفة القائم بأمر الله سنة ٤٥٤ هـ /١٠٦٢ م. لكنه لم يعش بعد

---

(٨) الخطط المقريزية ٢ / ١١٥، والنجوم الزاهرة ٥ / ١٢ وفيها.

يا بني العباس صدوا ملك الأمر معد
ملككم كان معار والعواري تسترد

(٩) النجوم الزاهرة حـ ٥ / ١٢. وأرض الطبالة تقع اليوم بين شارع الظاهر من الشمال والغرب، ومن الجنوب شارع الفجالة وسكة الفجالة، ومن الشرق بشارع الخليج المصري. راجع الخطط المقريزية ٢ / ١٢٥.

(١٠) الكامل في التاريخ ٨ / ١٧١ - ١٧٢.

زواجه طويلاً، فتوفي في رمضان سنة ٤٥٥ هـ /١٠٦٣ م ولـه من العمر سبعين سنة[١١] وقد حقق طغرلبك للمسلمين قدراً كبيراً من الوحدة، إذ صارت إيران والعراق تؤلف وحدة كبيرة دانت بالزعامة الروحية للخليفة العباسي، وبالـزعامـة الدينية للسلطان السلجوقي -

٣ - الدولة السلجوقية بعد وفاة طغرلبك.

تولى الحكم في الدولة السلجوقية بعد وفاة طغرلبك ابن أخيه عضد الدولة ألب أرسلان ٤٥٥ - ٤٦٥ هـ /١٠٦٣ - ١٠٧٢ م. وأول عمل قام به ألب أرسلان هو الإستيلاء على حلب وشمال الشام كي يحمي ظهره من الخطر الفاطمي قبل توجهه لمحاربة الروم في الشمال. فاستطاع أن ينتزع من محمود بن صالح بن مرداس أمير حلب اعترافاً بسلطانه عليه والخطبة للخليفة القائم بأمر الله والسلطان ألب أرسلان[١٢].

وبعد ذلك أرسل السلطان ألب أرسلان إلى جنوب الشام أميراً تركياً اسمه أتسز بن واق الخوارزمي، ففتح مدينة الرملة وبيت المقدس وما جاورهما باستثناء عسقلان[١٣] التي لم يتمكن من دخولها بالرغم من مضايقته لها بالحصار الشديد وقطع الميرة عنها، وظلت تخضع للخلافة الفاطمية. الملاحظ من سياق هذه الحوادث أن ألب أرسلان السلجوقي قصد من ورائها ضرب المناطق الشيعية قبل غزوه بلاد الروم.

٤ - ألب أرسلان وحروبه ضد الروم البيزنطيين.

خرج ألب أرسلان في خمسة عشر ألف فارس لحرب الروم وصد هجوم أمبراطورهم رومانوس الذي توجه نحو الثغور الإسلامية لمهاجمتها على رأس مائة ألف مقاتل. وعندما وصل الأخير إلى ملاذ كرد من أعمال خلاط على الفرات الأعلى شمال بحيرة «ڤان» كان السلطان ألب أرسلان قد بلغ مدينة «خوى» من

---

(١١) الكامل في التاريخ ٨ / ٩٢ و ٩٤ - ٩٥.

(١٢) الكامل في التاريخ ٨ / ١٠٨ - ١٠٩ وتاريخ ابن خلدون جـ ٣ / ٤٧٠

(١٣) الكامل في التاريخ ٨ / ١١٠.

أذربيجان أرسل إلى الأمبراطور رومانوس يسأله المهادنة من أجل كسب الوقت ريثما تأتيه الإمدادات لكن الأمبراطور رومانوس أصر على مواصلة الزحف قائلاً: لا هدنة إلا بالري، الأمر الذي أزعج السلطان ألب أرسلان. وقرر مواجهة العدو مهما كانت النتائج. واختار أن يكون اللقاء يوم الجمعة في الساعة التي يكون فيها الخطباء على المنابر يدعون للمجاهدين بالنصر، وذلك بناء لنصيحة الفقيه أبي نصر محمد بن عبد الملك البخاري الحنفي. ثم صلى بجنوده وبكى فبكى الناس لبكائه ودعا ودعوا معه وقال لهم: من أراد الإنصراف فلينصرف فما ههنا سلطان يأمر وينهي. وألقى القوس والنشاب وأخذ السيف والدبوس وعقد ذنب فرسه بيده، ثم قال لهم: إنني أقاتل محتسباً صابراً، فإن سلمت فنعمة من الله تعالى، وإن كانت الشهادة، فإن ابني ملكشاه ولي عهدي(١٤).

ثم ركب وتقدم جيشه لمواجهة الروم البيزنطيين. واشتبك الجيشان في قتال عظيم أسفر عن سقوط العديد من قتلى الروم حتى امتلأت الأرض. بجثثهم، ووقع الأمبراطور البيزنطي نفسه أسيراً. لكن السلطان ألب أرسلان أفرج عنه بعدما تعهد:

- بأن يفتدي نفسه بألف ألف وخمسائة ألف دينار - مليون ونصف مليون دينار.
- وأن يرسل إلى السلطان السلجوقي عساكر الروم في أي وقت طلبها.
- وأن يطلق كل أسير في بلاد الروم.
- وأن تعقد الهدنة بينهما لمدة خمسين سنة.

وبالمقابل عامل السلطان ألب أرسلان الأمبراطور رومانوس، بعد عقد معاهدة الصلح، معاملة حسنة، إذ أعطاه عشرة آلاف دينار يتجهز بها. كما سرح له جماعة من البطارقة، ثم رافقه مسافة فرسخ وودعه صحبة بعض الجنود الذين أوصلوه إلى مأمنه(١٥).

---

(١٤) الكامل في التاريخ. ٨ / ١٠٩. والبداية والنهاية. ١٢ / ١٠١. وتاريخ ابن خلدون. ٣ / ٤٧٠ - ٤٧١.

(١٥) الكامل في التاريخ ٨ / ١١٠.

وغدا الطريق بعد موقعة ملاذ كرد مفتوحاً أمام السلاجقة ليتوسعوا في آسيا الصغرى دون أن تقوى الدولة البيزنطية على صدهم. تم تأسيس دولة سلاجقة الروم من قبل سليمان بن قتلمش والتي استمرت إلى أن قبض عليها الأتراك العثمانيون في أواخر القرن الرابع عشر. كما كانت هذه المعركة من أهم الأسباب الرئيسة التي أدت إلى قيام الحروب الصليبية سنة ٤٩٠ هـ/١٠٩٦ م بسبب مخاوف الدول الأوروبية إزاء الخطر التركي، وتنادوا إلى وجوب تقديم المساعدة إلى الدولة البيزنطية.

وبالرغم من الخلاف بين الكنيستين الشرقية والغربية[١٦]، فقد أخذ البابا غريغوريس السابع ١٠٧٣ ـ ١٠٨٥ م، أو والبابا أوريان الثاني ١٠٨٨ ـ ١٠٩٩ م على نفسيهما مسؤولية تحريض ملوك أوروبا على مساعدة بيزنطية، إلى أن قامت حرباً صليبية.

توفي السلطان ألب أرسلان سنة ٤٦٥ هـ/١٠٧٣ م على أثر ضربة بسكين في خاصرته من قبل أحد حراس قلعة سمرقند المدعو يوسف الخوارزمي، فقضى متأثراً من جرحه بعدما كان أوحى لولده ملكشاه من بعده حسبما ذكرنا قبل قليل.

٥ ـ جلال الدين أبو الفتح ملكشاه.

خلف جلال الدين أبو الفتح ملكشاه والده ألب أرسلان في حكم الدولة السلجوقية. وواصل حرب السلاجقة ضد النفوذ الشيعي ـ الفاطمي ـ في بلاد الشام فاستولى قائده أتسز على دمشق سنة ٤٦٨ هـ/١٠٧٦ م ثم عين أخاه تتش بن ألب أرسلان ملكاً على بلاد الشام يتوارثها أبناؤه وأحفاده من بعده[١٧]. وبذلك تأسست دولة سلاجقة الشام التي انتزعتها من النفوذ الفاطمي.

بلغت الدولة السلجوقية ذروة اتساعها في عهد ملكشاه حتى امتدت من

---

(١٦) انفصلت الكنيستان الشرقية والغربية، بعدما كانتا واحدة، سنة ١٠٥٤ م بسبب الخلافات المذهبية. وهكذا لم تقدم الكنيسة الغربية المساعدة لبيزنطية، فخسرت الحرب في معركة ملاذكرد، ثم آسيا الصغرى.

(١٧) الكامل في التاريخ ٨ / ١٢٢ ـ ١٢٦.

فلسطين جنوباً إلى أفغانستان شرقاً وآسيا الصغرى غرباً. ويعود الفضل في تقدم الدولة السلجوقية إلى الوزير أبي الحسن بن علي قوام الدين نظام الملك الطوسي الذي تلقب بلقب «أتابك»[١٨]، طوال عهد السلطان ملكشاه.

٦ ـ النهضة العلمية والأدبية في عهد الدولة السلجوقية:

أولى السلاجقة الأمور الأدبية والعلمية في دولتهم عنايتهم التامة وتشجيعهم الكامل. وكانت الحضارة الفارسية هي معينهم الأول الذي غرفوا منه واللغة الفارسية هي لغة الأدب والتأليف في عهدهم. كما زينت الفنون الإيرانية قصور سلاطينهم. ويكفي أن نشير إلى أن نظام الملك الطوسي. من مدينة طوس. والشاعر الفلكي عمر الخيام في عصر السلطان ألب أرسلان وجلال الدين ملكشاه. وأبرز أعمال ملكشاه كانت في:

أ ـ علاقة جمع الخراج بتثبيت موعد عيد النوروز:

وبغية تثبيت تاريخ النوروز ـ رأس السنة الفارسية ـ في موعد محدد من كل سنة، بحيث يتناسب مع ميعاد جمع الخراج ونضج المحصول. ألف لجنة من كبار الفلكيين سنة ٤٦٧ هـ / ١٠٧٤ م من ضمنهم الشاعر عمر الخيام صاحب الرباعيات وتوصلت إلى تحديد رأس السنة الشمسية ـ النوروز ـ في أول نقطة من دخول الشمس برج الحمل، بعد أن كان يقع عند توسط الشمس برج الحوت[١٩]. فعرف هذا التقويم بالتقويم الجلالي أو السلطاني.

ب ـ حياة البلاط:

اشتهر في عهد ملكشاه ثلاثة من كبار علماء الفرس هم: الوزير نظام الملك الطوسي. والشاعر عمر الخيام، والثائر الإسماعيلي الحسن الصباح. قدم نظام الملك الوزير السلجوقي كتاباً بالفارسية عنوانه «سياسة نامة» ضمنه إرشادات ونصائح للحكام السلجوقيين، وقدمه إلى ملكشاه. كما أسس المدارس النظامية في كل من نيسابور وبغداد وبلخ والموصل وهرات ومرو لدحض آراء الشيعة.

أما الشاعر عمر الخيام فقد وضع مؤلفه «نوروز نامة» الذي تحدث فيه عن

(١٨) الكامل في التاريخ ٨ / ١٦٢ ـ ١٦٣.

(١٩) الكامل في التاريخ ٨ / ١٢١.

سبب وضع عيد النوروز، مبيناً المراسم والإحتفالات المتبعة في عهد الساسانيين بهذه المناسبة. كما وضع كتاباً آخراً هو «المصادرات على إقليدس ومشكلات الحساب». وترك أخيراً في الشعر رباعياته المشهورة التي نقلت إلى العربية شعراً ونثراً وإلى لغات عديدة في العالم[٢٠].

والعالم الثالث هو الثائر الإسماعيلي الحسن الصباح الذي أبعده الوزير نظام الملك عن حياة البلاط السلجوقي لاعتناقه التعاليم الإسماعيلية، الأمر الذي جعله يرحل إلى بلاط الفاطميين عهد المستنصر بالله ويزور القاهرة سنة ٤٦٥ هـ /١٠٧٢ م، ثم عاد إلى إيران ولجأ إلى قلعة «الموت» ALMOT بجوار بحر قزوين. ومنها أظهر دعوته للفاطميين، فدعا للمستنصر بالله ثم لولده نزار من بعده مخالفاً في ذلك الدعوة الفاطمية في القاهرة التي أجمعت على المستعلي بن المستنصر بالله[٢١]. فعرفت دعوته بفارس باسم الدعوة الجديدة، كما عرف أنصارها بالإسماعيليين النزاريين ومنهم: «الحشاشون» أو «الفداوية». واتهم حسن الصباح بتدبير قتل الوزير نظام الملك الطوسي على يد بعض أعوانه من الباطنية.

٧ ـ نهاية الدولة السلجوقية:

مات السلطان ملكشاه ـ جلال الدين أبوالفتح ـ بعد وفاة وزيره نظام الملك بشهر واحد، في السنة ٤٨٥ هـ /١٠٩٢ م. فتولى ابنه بركياروق السلطنة. فوقع الخلاف بينه وبين إخوته وأعمامه. وأدى النزاع على الحكم إلى تفكك الدولة وبالتالي عجزها عن الوقوف ضد هجمات الغز حتى سقطت أخيراً بوفاة آخر سلاطينها «سنجار» دون عقب سنة ٥٥٢ هـ /١١٥٧ م.

٢ ـ الأتابكيات السلجوقية:

١ ـ اعتماد الدولة السلجوقية على المماليك الترك:

اعتقد السلاجقة أن لا العرب ولا الفرس يخلص في خدمتهم. من هنا كانت

(٢٠) نقل رباعيات الخيام إلى العربية شعراء وديع البستاني، وأحمد الصافي النجفي الشاعر العراقي وأحمد الرامي، ونثراً أحمد الصواف.

(٢١) الصيرفي، أبو القاسم علي بن منجب: الإشارة إلى من نال الوزارة. ١٧ (المعهد العلمي الفرنسي) القاهرة سنة ١٩٢٤ م. والخطط المقريزية ٨ / ١٧٢.

الحاجة إلى اعتمادهم على المماليك الترك الذين يخضعون لنظام قاس عند تربيتهم، في بلاط السلاطين والأمراء عل نحو ما بيناه سابقاً. وهم يخضعون لرقباء من الخواص الخصيان، ونقباء من طوائفهم فور جلبهم من بلاد القفجاق [٢٢] صغاراً.

أحاط نظام الملك نفسه بجيش كبير من المماليك الذين عرفوا بـ «المماليك النظامية» فقوي بهم نفوذه إلى حد كبير إلى درجة شعر السلطان ملكشاه بهذا النفوذ المتزايد. فكتب إلى وزيره نظام الملك كتاباً يقول له فيه: «انك استوليت على ملكي وقسّمت ممالكي على أولادك وأصهارك ومماليكك، كأنك شريك في الملك، أتريد أن آمر برفع دواة الوزارة من بين يديك؟». فرد عليه الوزير نظام الملك: «كأنك عرفت اليوم أني مساهمك وفي الدولة مقاسمك، فاعلم أن دواتي مقرونة بتاجك متى رفعتها رفع، ومتى سلبتها سلب»[٢٣] فكأنه تنبأ بما سيحدث. فلم يمض شهر واحد عل مقتل الوزير ٤٨٥ هـ /١٠٢٢ م حتى توفي السلطان ملكشاه. ثم تزايد نفوذ المماليك وتحكموا بأمور الدولة إلى درجة أنهم عزلوا ابنه محمود وولوا ابنه الآخر بركيا روق.

٢ ـ المماليك الأتابكة[٢٤]:

كان عطاء الجندي أيام السامانيين يدفع نقداً، فجعله نظام الملك اقطاعاً يجعل المقطع متعلقاً بالأرض، وبالتالي بقاءه في خدمة السلطان عسكرياً. وكانت القلاع والمدن والولايات تمنح إقطاعاً للقادة من مماليكهم الذين سموا الأتابكة. وكان أول من تلقب بلقب أتابك الوزير نظام الملك الطوسي. وقد أمست أراضي فارس والجزيرة الفراتية والشام مقسمة إلى إقطاعات عسكرية يحكمها مماليك السلطان ثم ما لبث أن اتخذ المماليك لأنفسهم جيوشاً من المماليك. وكانت

---

(٢٢) بلاد القفجاق أو القبجاق أو القشاق، إقليم بحوض نهر الفولغا بالجنوب الشرقي من روسيا وشمال البحر الأسود والقوقاز. وأهل القفجاق من الترك القلقشندي ٤ / ٤٥٨.

(٢٣) الكامل في التاريخ ٨ / ١٦١. وأبو شامة. الروضتين في أخبار الدولتين ١ / ١٢١.

(٢٤) الأتابكة مفردها أتابك وهو لفظ تركي معناه «الأب الأمير» أو المربي لابن السلطان.

العادة في تجمع الفرق العسكرية المملوكية إطلاق الأسهم من معسكر إلى آخر أو من قرية إلى أخرى وفور انتهاء الحرب يعود المماليك إلى إقطاعاتهم.

٣ ـ الدول الأتابكية:

ازداد نفوذ الأتابكة في اقطاعاتهم في الوقت الذي بدأ فيه الضعف يدب في جسم الدولة السلجوقية، إلى أن بدأوا بالإستقلال بولايتهم. فتفككت الدولة السلجوقية بين الأتابكة، ولم يبق منها غير سلاجقة الروم التي استولى عليها العثمانيون خلال القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي ومن الدولة الأتابكية:

ـ دولة بني ارتق نسبة إلى ارتق التركماني أحد مماليك ملكشاه الذين حكموا حصن كيفا ٤٨٥ ـ ٦٢٩ هـ /١١٠١ ـ ١٢٢١ م.

ـ دولة ماردين ٥٠٢ ـ ٨١١ هـ /١١٠٨ ـ ١٤٠٨ م.

ـ أتابكة الشام[٢٥] ٤٩٧ ـ ٥٤٩ هـ /١١٠٣ ـ ١١٥٤ م.

ـ شاهات خوارزم[٢٦] ٤٧٠ ـ ٦٢٨ هـ /١٠٧٧ ـ ١٢٣١ م.

على أن دولة السلاجقة انقرضت بخراسان وبلاد الري والجبل وما وراء النهر[٢٧] على أيدي ملوك خوارزم: أتسز، وتكش، وعلاء الدين الذي كان يمتلك عشرة آلاف مملوك مثل الملوك[٢٨]. لكن هذه الدولة الخوارزمية انتهت على أيدي المغول سنة ٦٢٨ هـ /١٢٣١ م. في عهد جلال الدين خوارزمشاه[٢٩] ومن أصل هؤلاء المماليك قامت دولة المماليك الأولى في مصر.

ويعد من أشهر الأتابكة، في بداءة القرن الثاني عشر الميلاد، الأمير عماد الدين زنكي مؤسس أتابكية الموصل والشام وديار ربيعة ومضر ـ في الجزيرة

(٢٥) أول ملوك أتابكة الشام طفتكين وهو مملوك تتش بن الب أرسلان، ثم صار لولده دقاقاً وبعد موت دقاق صار ملك دمشق لطغتكين واستمر في عقبه ٥٢ عاماً.

(٢٦) شاهات خوارزم ينسبون إلى انوشتكين، عينه السلطان ملكشاه حاكماً على خوارزم (خيوة).

(٢٧) الكامل في التاريخ ٩ / ٢٠٥ ـ ٢٠٧.

(٢٨) أبو شامة. الذيل على الروضتين ١٢٢.

(٢٩) Pohak: Le dialecte des Mamelouks. R. E. I. 1935 Cahier III.

الفراتية ـ وهو ابن قسيم الدولة آق سنقر الحاجب عند السلطان ملكشاه[٣٠]. وبفضل عماد الدين وابنه نور الدين زنكي انتقلت النظم السلجوقية إلى مصر، فتمثلت في الدولتين الأيوبية والمماليك، بظهور صلاح الدين الأيوبي فيها نائباً عن الزنكيين.

٤ ـ عادات وتقاليد السلاجقة:

أ ـ استخدام الجاليش:

كان من عادة السلاجقة استخدام الجاليش في مقدمة الجيش السلجوقي. والجاليش هي عبارة عن خصلة شعر من شعر الحصان كانت ترفع في أعلى الراية أمام الجيش، ثم صارت تطلق على مقدمة الجيش أو طلائعه[٣١]. وقد انتقلت هذه العادة إلى مصر على يد الأيوبيين، كما انتقلت إلى بلاد الأندلس مع فرقة من الغز قادها المملوك قراقوش التقوي[٣٢] أيام صلاح الدين الأيوبي.

ب ـ الغاشية:

ومن العادات التي انتقلت إلى مصر، على أيدي مماليك السلاجقة، حمل الغاشية بين يدي السلطان في الأماكن والمناسبات الحافلة كالميادين والأعياد ونحوها كشعار للسلطنة، والغاشية هي عبارة عن سرج من الأديم مخرزة بالذهب، تبدو للناظر إليها من بعيد كأنها مصنوعة من الذهب يحملها ركاب الدار السلطانية بين يدي السلطان ملوحاً بها يميناً وشمالاً.

جـ ـ إنشاء المدارس:

واستحدث السلاجقة أيضاً نظام إنشاء المدارس وفق المذهب السني لمحاربة المذهب الإسماعيلي الشيعي. وكان نور الدين زنكي بن عماد الدين

---

(٣٠) الروضتين في أخبار الدولتين ١ / ٢٤ ـ ٢٧.

(٣١) الروضتين في أخبار الدولتين ٢ / ٧٧.

(٣٢) قراقوش التقوي هو بهاء الدين قراقوش التقوي الأسدي. كان مملوكاً إلى تقي الدين عمر ابن شقيق صلاح الدين الأيوبي. ثم صار أميراً مملوكاً إلى صلاح الدين فعرف ببهاء الدين قراقوش الأسدي، ثم أصبح وزيراً لصلاح الدين عهد الدولة الأيوبية.

زنكي أول من فتح المدارس في الشام، ثم قام بهذه المهمة صلاح الدين الأيوبي في مصر لمحاربة الفاطميين والقضاء على دعوتهم(٣٣).

د ـ الإكثار من استخدام المماليك في الإدارة والجيش:

تأثر الأيوبيون بالسلاجقة كثيراً، فساروا على سنة السلاجقة وأتابكتهم بالإكثار من المماليك الأتراك لاستخدامهم في الإدارة والجيش، حتى استقلوا بمصر والشام بعد زوال الدولة الأيوبية، فأنشأوا الدولة المملوكية التي وقفت في وجه الخطر المغولي والصليبيين.

---

(٣٣) عرفت مصر الفاطمية المدارس السنية، فمثلاً: أسس رضوان بن ولخشي وزير الخليفة الحافظ لدين الله الفاطمي مدرسة في مدينة الإسكندرية سنة ٥٣٣ هـ/ ١١٢٨ م أسند التدريس فيها إلى الفقيه المالكي أبي طاهر بن عوف. ثم بنى العادل بن السلار وزير الظافر بأمر الله مدرسة سنية أخرى أسند التدريس بها إلى الفقيه الشافعي سنة ٥٤٤ هـ/ ١١٤٩ م أبي الطاهر أحمد السلفي، وفيات الأعيان. ١ / ٨٧.



الفصل الرابع عشر

سقوط الخلافة العباسية في العراق ومميزاتها

أولاً: سقوط الخلافة العباسية في العراق:

١ ـ ازدياد نفوذ السلاجقة:

ساءت أحوال الخلافة العباسية بسبب تفاقم سلطان بني بويه الذين سيطروا على الخلفاء العباسيين سيطرة تامة. ظهرت في ذلك الوقت قوة فتية على مسرح الشرق الأدنى، هي قوة الأتراك السلاجقة الذين غيروا ميزان القوى مرة أخرى بين المسلمين والروم في الشرق الأدنى.

ظلت الخلافة العباسية قرابة قرن ترزح تحت وصاية بني بويه وسيطرتهم، بإقدامهم على الحد من نفوذ الخليفة العباسي في بغداد وسائر البلاد التابعة للخلافة العباسية. وكان بنو بويه قد اعتنقوا الإسلام على المذهب الشيعي وتعصبوا له حتى إنهم أرغموا السنيين على الإشتراك في أعياد الشيعة. وفي منتصف القرن الخامس للهجرة لم يتورع البساسيري كما مر معنا سابقاً من تدبير مؤامرة للقضاء على الخلافة العباسية وإدخال بغداد تحت لواء الخلافة الفاطمية.

إزاء ذلك الخطر طلبت الخلافة العباسية النجدة من السلاجقة السنيين لمساعدتها على التخلص من الحلف البويهي ـ الفاطمي، الشيعي. فزحف طغرلبك إلى بغداد سنة ٤٤٧ هـ ليقضي على البساسيري ويقتله. فحل السلاجقة محل البويهيين في الوصاية على الخلافة العباسية.

وتوطدت العلاقة الحسنة بين الخلافة العباسية والسلاجقة بزواج القائم بأمر

الله العباسي من «خاتــون ارســلان» خـديجـة ابنـة شقيق طـغـرلـبــك، سـنـة ٤٤٨ هـ /١٠٥٦ م وطلب طغرلبك الزواج من ابنة الخليفة القائم العباسي القائم بأمر الله، الذي اضطر إلى قبول طلبه وتزويجه منها. لكن السلاجقة لم يقفوا عند هذا الحد من العلاقات الطيبة بينهم وبين الخلافة العباسية بل عمدوا إلى فرض القوة على الخليفة وتهديده بإخراجه من بغداد. ثم تمادوا في طلباتهم حتى انهم طالبوا بالخلافة لابن بنتهم من الخليفة المقتدي العباسي. وأصر السلطان ملكشاه على هذا الطلب وهدد بطرد الخليفة من بغداد ليتجه إلى أي بلد يريد، فخاف الخليفة وتوسل إلى ملكشاه أن يمهله شهراً استعداداً للرحيل، ولكن السلطان السلجوقي رفض أن يمهله ساعة. وبلغ الإذلال بالخليفة العباسي أنه توسل بوزير ملكشـاه فأمهله السلطان عشرة أيام. ولحسن حظ الخليفة توفي السلطان ملكشاه قبل انتهاء أجل الأيام العشرة.

حاول الخلفاء العباسيون الإستفادة من انقسام البيت السلجوقي على نفسه بعد وفاة ملكشاه، بإعلان الحرب ضد السلطان مسعود السلجوقي من قبل الخليفة العباسي المسترشد بالله الذي حلت الهزيمة به بسبب ما وقع من خيانة في جيشه وسقط الخليفة أسيراً في قبضة أعدائه ثم قتيلاً في أسر السلطان مسعود من قبل أحد الباطنيين.

وما أن علم الخليفة المقتفي العباسي بخبر وفاة السلطان مسعود السلجوقي حتى أقدم على طـرد مندوب السلطان السلجوقي ونائبه في حاضرة الخلافة ببغداد واستولى على داره ودور أصحاب السلطان وبعث الخليفة بجنوده فاستولوا على أطـراف العراق في الحلة وواسط وغيـرهـا[1]. وفي أيـام خلفـه وابنـه الخليفـة المستنجد بالله (٥٥٥ ـ ٥٦٦ هـ / ١١٦٠ ـ ١١٧٠ م) انتهى نفوذ السلاجقة بالعراق وغدت الكلمة للخليفة العباسي.

٢ ـ سقوط الخلافة العباسية في بغداد على أيدي التتار أو المغول:

جاءت نهاية الدولة العباسية في بغداد على أيدي التتار أو المغـول الذين

(١) تاريخ الخلفاء ٤٤٠

توحدوا في ظل زعامة جنكيزخان. وبدأوا يتوسعون غرباً في اتجاه الدولة الإسلامية وغرب أوروبا. استطاع المغول في مدى سنتين (٦١٦ - ٦١٧ هـ / ١٢١٩ - ١٢٢٠ م من أن يحتلوا بخاري وسمرقند والري وتبريز وتفليس في بلاد الكرج، ثم استولوا على بلاد القفجاق والروس، ومدينة بلخ في خراسان. ولم يمت جنكيزخان (٦٢٤ هـ /١٢٢٦ م) إلا بعد أن امتدت دولتهم من حدود الصين شرقاً إلى إيران وبلاد العراق وبلاد الروس غرباً، وإلى بلاد الهند جنوباً.

في ذلك الوقت، كانت الخلافة العباسية تنحدر في طريق الضعف. فما أن استكمل هولاكو شقيق منكوخان ـ خاقان المغول العظيم ـ إخضاعه للأمراء من بقايا الدولة الخوارزمية، واستسلام شيخ الجبل ركن الدين خوارزمشاه[٢] ـ خليفة حسن الصباح زعيم الباطنية الشهير ـ سنة ٦٥٤ هـ /١٢٥٦ م، وكذلك جميع قلاع الباطنية (نحو ١٠٠ قلعة)، حتى زحفت جيوش المغول على العراق سنة ٦٥٦ هـ /١٢٥٨ م، قاصدين بغداد ومن عدة جهات إلى أن التقت كلها شرقها.

لم يستطع الجيش العباسي رد الهجوم المغولي أو الثبات، مما جعلهم يفرون في كل اتجاه، قبل أن تطال رقابهم سيوف المغول، فغرق بعضهم في الماء. وأيقن الخليفة نفسه أنه لا محالة هالك. فأسرع وأهل بغداد بالفرار عن المدينة يطلبون النجاة بأرواحهم. لكن المغول كانوا أسرع منهم، فاقتحموا المدينة وأعملوا سيوفهم في رقاب الناس مدة أربعين يوماً حتى بلغ عدد ضحاياها ثمانمائة ألف من السكان ثم نودي بالأمان. ولم يكتف المغول بهذا القدر بل عمدوا إلى نهب المدينة وأشعلوا النار فيها بعد ذلك، فأحرقوا جامع الخليفة ومشهد موسى الجواد وقبور الخلفاء.

وقد تضاربت أقوال المؤرخين في كيفية مقتل الخليفة العباسي المستعصم بالله. وكيفما كان الأمر، غرقاً أو رفساً وضرباً حتى الموت، أو غير ذلك... الخ فالنهاية واحدة وهي مقتل الخليفة العباسي بعدما أخذوا منه كل ما كان الخلفاء العباسيون قد جمعوه على مدى خمسة قرون. ولم يكتف المغول بقتل الخليفة بل

(٢) تاريخ الخلفاء ٤٦٩ ـ ٤٧٠.

عمدوا إلى قتل ابنه الأكبر، ثم ألحقوا الإبن الثاني للخليفة بشقيقه وأبيه(٣).

إن الخلافة العباسية التي انتهت في العراق، قدر لها أن تظهر في القاهرة لتعيش نحواً من قرنين ونصف القرن في ظل سلطنة المماليك، حين رأى السلطان الظاهر بيبرس في أحياء الخلافة العباسية في مصر تدعيماً لسلطنة المماليك في نظر المسلمين، فاستحضر أحد أبناء البيت العباسي إلى القاهرة وبايعه بالخلافة سنة ٦٥٩ هـ /١٢٦١ م(٤). لكن الخلافة العباسية التي تم إحياءها في القاهرة، كان الخليفة العباسي فيها تحت سيطرة سلاطين المماليك محروماً من كل نفوذ أو سلطان ليس له فيها أمر ولا نهي، وحسبه أن يقال له أمير المؤمنين.

ولم يقف المغول عند حدود العراق الغربية، بل تابعوا حركتهم التوسعية نحو بلاد الشام. فاستولوا على الجزيرة الفراتية، ثم اقتحموا حلب سنة ٦٥٨ هـ /١٢٦٠ م وبقي القتل والنهب فيها من نهار الأحد إلى نهار الجمعة، وبلغ عدد الأسرى زيادة على مائة ألف نسمة، ثم سقطت دمشق بالرغم من مقاومة قلعتها نحواً من أربعين يوماً، وهرب الناصر يوسف الأيوبي صاحب حلب ودمشق. تابع المغول بعد ذلك طريقهم نحو فلسطين قاصدين مصر، لكن قطز سلطان المماليك أنزل بهم ضربة قاسية في موقعة «عين جالوت» سنة ٦٥٨ هـ /١٢٦٠ م(٥). فكانت أول معركة خسرها المغول منذ بداءة حركتهم التوسعية الأمر الذي جعلهم ينسحبون بعدها إلى العراق. وهذا ما شجع المماليك على إعادة مد سيطرتهم على بلاد الشام بالإضافة إلى مصر طوال عهد المماليك.

ثانياً: مميزات الدولة العباسية الإسلامية.

استمرت الخلافة العباسية في العراق قائمة من سنة ١٣٢ - ٦٥٦ هـ /٧٤٩ - ١٢٥٨ م. عندما سقطت على أيدي المغول بزعامة هولاكو حفيد جنكيزخان سنة ٦٥٦ هـ /١٢٥٨ م. والأسرة العباسية الحاكمة مع

---

(٣) النجوم الزاهرة ٧ / ٥٠ - ٥١. وتاريخ الخلفاء ٤٧٢.

(٤) النجوم الزاهرة ٧ / ١٠٩ - ١١١. وتاريخ الخلفاء ٤٧٨ - ٤٧٩.

(٥) النجوم الزاهرة ٧ / ١١٠. تاريخ الخلفاء

أنها كانت عربية هاشمية إلا أنها اعتمدت على الفرس والأتراك مما طبعها بطابع خاص ميزها عن الدولة العربية في عهدي الرسول والخلفاء الراشدين، والدولة العربية الأموية ومن أهم مميزاتها:

١ ـ الإعتماد على الموالي:

اعتمدت الخلافة العباسية على الموالي الذين ظهروا في أواخر عهد الدولة العربية الأموية بعدما أسلموا وأصبحوا جزءاً من الدولة الإسلامية الكبرى، لكن الحكم الأموي لم يسوّ بين العرب والموالي الأمر الذي رأوه مخالفاً للمبادىء التي نادى بها الإسلام بموجب القرآن الكريم: (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا أن أكرمكم عند الله أتقاكم[٦]). وأحاديث نبوية (ليس لعربي على أعجمي فضل إلا بالتقوى)[٧].

وسياسة التمايز التي اتسمت بها الدولة الأموية العربية أدت إلى استياء الموالي وبخاصة الفرس منهم كونهم أهل حضارة قديمة ومدنية عريقة، عز عليهم أن يتعالى عليهم العرب ويسيئوا معاملتهم. فكان شعورهم هذا باعثاً للتشيع لآل البيت. فمنذ أن انتقلت الدعوة للعباسيين، وهم يوجهون نشاط دعوتهم إليها، وبخاصة إلى منطقة خراسان النائبة عن مركز الخلافة الأموية. فاستجاب لهم بها أناس كثيرون. فقامت الدولة العباسية على أكتاف الفرس، الأمر الذي استتبع غلبة النفوذ الفارسي على العبّاسي وضعف النفوذ العربي. وليس أدل على ما ذكرنا إلا قول المنصور الخليفة العباسي[٨]: «يا أهل خراسان أنتم شيعتنا وأنصارنا وأهل دعوتنا». وهذا ما جعل الموالي الفرس وغير الفرس عماد الدولة وحماتها فحظوا بمكانة تتناسب مع ما قدموه للدولة من خدمات. لهذا زالت أهم الإمتيازات العربية، بعد قيام الخلافة العباسية وأصبح طابع الدولة إسلامياً أكثر منه عربياً[٩].

---

(٦) القرآن الكريم. ٤٩: ١٣.

(٧) البيان والتبيين ١ / ٢٢٩.

(٨) تاريخ الطبري ٧ / ٢٧١.

(٩) J. Pirenne· les grands courants de l'histoire universelle T. II. P II. Neuchatel (Suisse) 1959.

٢ ـ اعتماد الخلافة العباسية على نظرية الإمامة:

استغل العباسيون فكرة أحقيـة آل البيت النبوي بالخلافة وعملوا على الإفادة من شعور العطف على آل البيت بعد المصائب والكوارث التي حلت بالعلويين خاصة على أيدي بني أمية وعمالهم. وحينما نجح العباسيون في الإنتصار على الـدولة الأمـوية وصـارت الخلافـة فيهم تمسكوابهـذه الفكرة. واعتـدوا بأنفسهم بوصفهم من آل البيت وبالتالي أن لهـم حق مقـدس في الخلافة. وهذا الحق خولهم الإستئثار بالسلطان والنفوذ، فلا شورى ولا مفاوضة وإنما الخليفة هو الإمام وكلمته هي العليا، ومشيئته هي النافذة، وإرادته لها من القدسية ما يجعله معصوماً عن الخطأ. فقد قال أبو جعفر المنصور في إحدى خطبه(١٠): «أيها الناس، إنما أنا سلطان الله في أرضه أسوسكم بتوفيقه وتأييده وحارسه على أمـواله. اعمـل فيه بمشيئته وإرادته، فاسألوا الله أن يوفقني إلى الرشاد». ونـظرية الحق الإلهي في الحكم التي كانت سائدة بين الفرس صارت عقيدة آمن بها المسلمون في العصر العباسي. وهي السر الذي أبقى الخلافة العباسية مدة طويلة تتمتع بمركز الزعامة الروحية في العالم الإسلامي، حتى صور لنا السيوطي الحالة التي سادت البلاد أثر سقوط الخلافة العباسية على أيدي المغول قائلاً(١١). «خيل للمسلمين أن العالم على وشك الإنحلال وان الساعة آتية عن قريب، وصاروا يؤولون كل ظاهرة على أنها تعبير عن سخط الله واتخذوها أدلة على ما سيحدث في العالم من انقلاب سيء لخلوه من خليفة».

٣ ـ ازدياد الطابع السياسي للدولة الإسلامية:

واجهت الدولة العباسية مشاكل تطلبت قدراً من الحنكة السياسية في حلها. فأدخلوا السياسة بالدين بالقدر الذي يسمح به الدين. بينما خرج الأمويون عن هذه القاعدة. واهتموا بالمصالح الدنيوية. لذلك غلبت السياسة على الدين في العصر العباسي وأصبح الدين في كثير من الحالات ستاراً يخفي وراءه اتجاهات دنيوية

---

(١٠) الكامل في التاريخ ٥ / ٦١.

(١١) تاريخ الخلفاء ٤٧٥.

واضحة. ولما كانت الدولة العباسية قد قامت على أكتاف الفرس جعل الخلفاء العباسيين يتأثرون بأساليب البيرو قراطية الفارسية. وبينما كان الخلفاء العباسيين يرتدون بردة الرسول ويحيطون أنفسهم بهالة مصطنعة من الدين، إذا بهم يتمسكون ببروتوكولات وتعقيدات الإدارة الشيء الكثير. ومن أجل هذا أحاطوا أنفسهم بالحجاب والحرس والكتاب والوزراء فاستتبع ذلك ظهور وظائف جديدة تولى معظمها الفرس. ونتج عن احتجاب الخلفاء عن الرعية كأن ينحني الأهالي ويقبلون الأرض بين يدي الخليفة عندما يظهر عليهم.

وأخيراً نستطيع القول بأن العباسيين استفادوا من الدين لتثبيت مركزهم السياسي على حد قول ابن طباطبا[١٢]: «إن هذه الدولة قد ساست العالم سياسة ممزوجة بالدين والملك، فكان أخيار الناس يطيعونها تديناً والباقون يطيعونها رهبة أو رغبة». ولما ضعفت الدولة سياسياً فقد الناس الشعور بواجبهم نحو الدولة وحكامها لابتعادهم عن التمسك بتعاليم الإسلام[١٣].

٤ ـ حياة الزندقة واللهو:

اتصف المجتمع العباسي بحياة اللهو والتمتع بالملذات والتأنق في الملبس واقتناء أفخر وأجمل الأثاث، بينما المجتمع الأموي لم يسرف في حياة الترف والنعيم فكان يقتبس من الأمم التي اتصل بها بما يتفق وذوقه من ناحية، وما لا يبعده عن أصوله العربية من ناحية أخرى. وذلك بعكس المجتمع العباسي الذي أقبل بشراهة وفهم زائد على عادات وتقاليد الفرس دون ملاءمة بما يتفق وأصوله العربية. فتسابق الخلفاء إلى الإنغماس في الترف واللهو، كما تفننوا في مجالس الغناء والشراب والرقص لهذا انساق الرعايا في هذه الحياة مقلدين ملوكهم، فتأنق القادرون منهم في المأكل والمشرب. وكثرت مجالس الشراب والغناء التي خالطها ألوان من الخلاعة والمجون[١٤]. فأدت هذه الإتجاهات في المجتمع العباسي إلى

---

(١٢) الفخري في الأداب السلطانية ١٤١

(١٣) خواديخش، صلاح الدين وحضارة الإسلام. ترجمة وتعليق علي حسن الخربوطلي ١٨٩. منشورات مكتبة الثقافة بيروت. ١٩٧١ م.

(١٤) تاريخ الطبري ٨ / ١٥٦ و١٦٥ و١٦٧ و١٩٠ و٥٤٥.

حياة الزندقة وكثر الزنادقة الماجنين والملحدين الذين انساقوا إليها على دفعات، بادئين بالتهتك ثم الخروج عن الدين إلى الالحاد حتى غدت الزندقة وحياة الزنادقة متفشية في المجتمع العباسي الأمر الذي جعل الخلفاء يلاحقون الزنادقة في كل مكان وآن. وصارت تهمة الزندقة خطيرة ذهب ضحيتها العديد من السياسيين والشعراء والفلاسفة والأدباء في العصر العباسي.

٥ ـ كثرة الثورات والفتن الداخلية:

واجه العصر العباسي الأول ثورات وفتن كثيرة أهمها كان من جانب العلويين الذين دأبوا على احداث الثورات المتعددة والمتلاحقة دون مهادنة إيماناً منهم بأحقية بيتهم في الخلافة وبخاصة عندما تعاونوا مع العباسيين للإطاحة بالدولة الأموية واكتشفوا أن بني العباس كانوا يعملون لحسابهم وليس لحساب العلويين كما فسروا: «الدعوة للرضا من آل محمد».

ثم ان الفرس الذين قامت الدولة العباسية على أكتافهم أصيبوا هم بخيبة أمل لأن الخلفاء في العصر العباسي الأول اعتراهم شعور عدم الإطمئنان إلى نفوذ الفرس المتفاقم في الدولة. لذلك لجأوا، بعد استقرار الحكم وتثبيت أقدامهم، إلى الحد من ذلك النفوذ «[١٥]» الأمر الذي أدى إلى قيام الحركات المعادية للخلافة العباسية، مثلاً «المسلمية والراوندية، فكانت هذه الحركات ظاهرها ديني وباطنها سياسي اجتماعي هذا فضلاً عن حركات الخوارج في الجزيرة وشمال أفريقيا وثورة الزنج في البصرة.

٦ ـ الإزدهار الحضاري:

ومع كل السمات السابقة للعصر العباسي، تبقى ميزة نضج الحضارة العربية الإسلامية وبلوغها درجة الاكتمال في ذلك العصر. فقد اكتسبت العلوم الإسلامية صفة الإبتكار والأصالة، واتسعت حتى شملت مختلف العلوم التجريبية والدراسات اللغوية والفلسفية. وازدهرت التجارة بوصول التجار العرب إلى مشارق

---

(١٥) تاريخ الطبري. ٨ / ٢٨٧. ومروج الذهب. ٤ / ٢٣٣ و Miquel. A. L'islam et sa civilisation (VIIe — XXe) Armand Colin. p 123 — 26. 1977

الأرض ومغاربها «(١٦)» ناقلين الحاصلات الزراعية والصناعية إلى كافة البلدان الأوروبية. وأصبح التجار المسلمون واسطة التجارة بين الشرق والغرب. فنتج عن ذلك حياة من الرخاء والإنتعاش في المجتمع العباسي، مجتمع «ألف ليلة وليلة» في ظل التقدم الحضاري آنئذٍ.

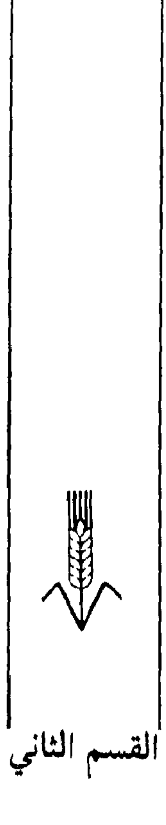
٧ ـ تغيير حركة الفتوح:

في الوقت الذي أولت الدولة الأموية اهتماماً كبيراً شرقي المتوسط من أراضي مصر والشام وغزو الأراضي البيزنطية صيفاً وشتاءً براً وبحراً. نرى العباسيين يقللون من شأن هذه المنطقة مكتفين بإقامة الثغور الإسلامية على الحدود البيزنطية والغزو من وقت لآخر، والإتجاه بحركة الفتوح إلى المشرق ناحية إقليم السند وتركستان. وأخذت حركة الفتوح إلى هذه الأقاليم طابعاً حضارياً بنشر الدين الإسلامي بين رعاياها ومد النفوذ السياسي العباسي إليها وانتعاش حركة التجارة معها. هذا فضلاً عن نشاط الأسطول الإسلامي في الخليج العربي ـ الفارسي والمحيط الهندي وصولاً إلى جزائر الهند الشرقية ـ أندونيسيا ـ والصين ـ وجنوب شرق آسيا ـ وباكستان ـ وأفغانستان ـ حيث انتشر الإسلام وتمازجت الحضارات العربية الإسلامية والفارسية والهندية.

---

(١٦) المقدسي: أحسن التقاسيم ٤٠١ وما بعدها، غوستاف لوبون. حضارة العرب ٦٦ ـ ١٦٧ دار إحياء الكتب العربية. الطبعة الثانية ١٩٤٨ م.





القسم الثاني

الحضارة العباسية



الفصل الخامس عشر

نظم الحكم عند العباسيين

أولاً : النظام السياسي :

١ ـ الخلافة أيام العباسيين :

كانت الدولة الإسلامية، قد اتسعت رقعتها وانفتحت على غيرها من الشعوب غير العربية من أصحاب الحضارات القديمة كالفرس والروم والهنود. وهذا ما جعل المسلمين يقتبسون عن الحضارات التي احتكوا بها، ويأخذون منها وعنها ما لا يتعارض مع أحكام شريعتهم. ففقدت نظم الحكم والادارة في الدولة الإسلامية العباسية كثيراً من عناصر بساطتها الأولى عهد الرسول الكريم وعصر الخلفاء الراشدين. وذلك التعقيد والزيادة في المراسيم فرضه الوضع الجديد في الدولة. وتبعاً لذلك كان الخلفاء العباسيون :

أ ـ يحكمون بتفويض من الله لا من الشعب :

بينما كان الخلفاء الراشدون يختارون من الشعب عن طريق الشورى ويستمدون قوتهم منه. وأبو بكر الصديق ينادي في الناس بعد توليه الخلافة قائلاً[١] : «فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوّموني. وإن كانت الخلافة الأموية قد أصبحت وراثية (ملكية) فقد كان الخليفة عمر بن عبد العزيز يقول[٢] «لست

(١) تاريخ الطبري ٣ / ٢٢٤ وشلبي، أحمد. المجتمع الإسلامي : أسسه ـ أسباب تدهوره ـ الطريق إلى أصلاحه. ص: ١٣٠. منشورات مكتبة النهضة المصرية ـ الطبعة الثالثة ١٩٦٧ م.

(٢) الكامل في التاريخ ٤ / ١٥٦.

بخير من أحدكم ولكنني أثقلكم حملاً». نرى أن العباسيين قد أقاموا حقهم في الحكم بوصفهم وارثي بيت الرسول وأنهم قد تأثروا بالفرس فأخذوا عنهم نظرية الحق الإلهي أو الحق المقدس للحكام. أي أن الحاكم يتولى بتفويض مقدس من الله. وهكذا أصبح الخلفاء العباسيون يحكمون بتفويض من الله لا من الشعب، مما جعل الخليفة أبا جعفر المنصور يقول: «إنما أنا سلطان الله في أرضه وأيضاً الخلفاء أربعة: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، والملوك أربعة: معاوية، وعبد الملك، وهشام، وأنا»[٣] وكان المنصور نفسه أول من تسمى بأسماء منسوبة إلى الله ـ المنصور بالله.

ب ـ يجعلون من الخلافة نظاماً ثيوقراطياً:

كانت الخلافة الأموية دنيوية بحتة لأنهم لا ينتمون إلى البيت النبوي الشريف بينما جعل العباسيون من الخلافة نظاماً ثيوقراطياً أي يسيطر عليه زعماء الدين وبما أن الخليفة العباسي كان أميراً للمؤمنين، وسلطته السياسية مستمدة من مكانته الدينية لذا حرصوا على أن يظهروا الفارق بين خلافتهم وخلافة بني أمية[٤].

جـ ـ يحيطون بلاطهم بقواعد من البروتوكول:

بموجب تلك الحقوق والصفات التي اتصف بها الخليفة العباسي كان مطلق النفوذ. مستبد السلطان، بيده أمور الدين والدنيا. وهو المصدر الأول والأخير للسلطة وصاحب الأمر والنهي في الدولة. وما دام الخليفة العباسي قد أصبح ظل الله في أرضه فإنه كان عليه أن يحيط شخصه بالقداسة والرهبة فاحتجب عن رعيته، واتخذ السياسة، وأحيط بلاطه بقواعد من البروتوكول أشبه بتلك التي سادت بلاط آل ساسان بحيث ينحني الداخل على الخليفة أمامه، ويقبل الأرض بين يديه، وإذا قرب منه قبل طرف ردائه، وهذا شرف كبير لا يناله إلا المقربون. وزيادة في تقوية صفته الدينية كما تلقب الخلفاء العباسيون بلقب «الإمام» تأكيداً لصفتهم الدينية.

---

(٣) تاريخ بغداد ١٠ / ٥٥ وتجارب الأمم جـ ٢ / ٩٤.

(٤) اعتقد الناس في العهد العباسي أن الخليفة إذا قتل اختل نظام العالم واحتجبت الشمس وامتنع المطر وجف النبات. الفخري في الأداب السلطانية ١٢٥.

إلا أن تحجبهم عن الناس جعلهم لا يؤمون الناس في الصلاة ولا يقيمون خطبة الجمعة مثلما كان يفعل الخلفاء الراشدون.

د ـ يستبدون بالحكم حتى عهد الرشيد ثم بدأوا يضعفون تجاه الأتراك والفرس:

استبد الخلفاء العباسيون في حكمهم حتى عهد الرشيد، ثم أخذ نفوذهم يضعف تدريجياً نتيجة لازدياد نفوذ الأتراك. فأصبح خلفاء العصر العباسي الثاني مسلوبي السلطة ومحرومي النفوذ. حتى أنه غدا معظمهم ألعوبة في أيدي قادة الأتراك وخير دليل إلى ما ذهبنا إليه في حكمنا هو أن الخليفة المعتز كان لا يلتذ بالنوم ولا يخلع سلاحه لا في الليل ولا في النهار خوفاً من الأتراك وبخاصة «بغا الصغير»[٥] ورأى بعض الخلفاء أن يتملق إلى قادتهم. كما استنجد المستكفي ببني بويه، فأتى معز الدولة أحمد بن بويه إلى بغداد لمساعدته، لكن لم يمض وقت قصير حتى حجر على الخليفة وسمل عينيه[٦] فازدادت الخلافة العباسية ضعفاً في عهدهم، كما أسرف بعض الخلفاء إلى قلق أمراء بني بويه بإضفاء الألقاب الضخمة الطنانة عليهم مثل «تاج الله» و «ضياء الملك» و «غياث الأمة» و«شاهنشاه». ثم سعى بنو بويه إلى تزويج بناتهم من بعض الخلفاء حتى تتحول الخلافة إلى أحفادهم[٧].

وبقي الأمر كذلك عندما دخلت الخلافة العباسية في ظل النفوذ السلجوقي إذ حل سيد محل آخر. بالرغم من أن السلاجقة لم يتخذوا من بغداد مركزاً لهم وإنما أقاموا في إيران مكتفين بأن ينوب عنه في مركز الخلافة أحد موظفيهم للإشراف على شؤون العراق وتدبير أموره.

هـ ـ يعينون ولي عهدهم، ويأخذون له البيعة في حياتهم:

لم تكن الخلافة العباسية على أساس الشورى كما كانت أيام الخلفاء الراشدين. وهذا يعني أن الخليفة العباسي كان يعين ولي عهده، ويأخذ له البيعة

---

(٥) تاريخ الطبري ٩ / ٣٦٩ ـ والكامل في التاريخ جـ ٥ / ٣٤١ ـ ٣٤٢.

(٦) الكامل في التاريخ ٦ / ٣١٤ ـ وتاريخ ابن خلدون جـ ٣ / ٤٢٠.

(٧) الفخري في الآداب السلطانية ٢٩١. والبداية والنهاية جـ ١١ / ٣١٢.

في حياته من وجوه الناس والأعيان وكبار القواد، وعن طريق الولاة في الأقاليم. وإذا ما فكر الخليفة في تولية العهد أكثر من واحد من أبنائه، وجب عليه أن يرتب لهم تتابع توليهم الخلافة، مما أثار أحياناً كثيرة الفرقة بين الأخوة، وخير شاهد على ما ذكرنا المهدي وولاية العهد للهادي والرشيد(٨) ثم تولية الرشيد للأمين والمأمون(٩).

٢ ـ الوزارة أيام العباسيين

أخذ العباسيون نظام الوزارة عن الفرس. وكان أول وزير للعباسيين أبو سلمة الخلال، لكن معالمها لم تتحدد في عهده. ولأن الدعوة العباسية قد قامت على أيدي الفرس وبمساعدتهم. فمن الطبيعي أن يكون وزراء العصر العباسي الأول من الأعاجم، مثل: البرامكة، وبنو سهل. وعلى أيدي هؤلاء اكتسبت الوزارة شكلها النهائي في أواخر العصر العباسي الأول. وكان الوزير في أيام العباسيين:

- ساعد الخليفة الأيمن.
- نائب عنه في حكم البلاد.
- يعين الولاة.
- يشرف على الضرائب.
- يجمع في شخصه السلطتين المدنية والحربية.
- صاحب المشورة التي يسترشد بها الخليفة.

وكان الوزراء في العصر العباسي الأول يتجنبون تسمية أنفسهم باسم «وزير» على الرغم من قيامهم بأعمال الوزراء ومهامهم، فإليهم يرجع الفضل في ضبط أمور الدولة ونشر لواء الأمن والعدل بين الرعية، ومرد ذلك إلى تخوف الوزراء من الخلفاء بعد أن لقي البعض منهم حتفه على أيديهم. ولكن هذا لم يمنع الوزراء من الإقبال على اكتساب الألقاب المنسوبة إلى الدولة مثل: عماد الدولة، وعز الدولة وركن الدولة(١٠).

---

(٨) الفخري في الآداب السلطانية ١٨٠.

(٩) تاريخ الطبري ٨/ ٢٤٠. ومروج الذهب ٣/ ٣٥١ و ٣٥٢ ـ ٣٥٣ ـ وتاريخ الخلفاء ص: ٢٩٠.

(١٠) الكامل في التاريخ ٦ / ٣١٤ والبداية والنهاية ١١ / ٢١٢ والحضارة الإسلامية

وكانت الوزارة أيام العباسيين ضعيفة أمام قوة الخلافة، وقوية كلما ضعفت الخلافة. لذا تطرق الفساد إلى منصب الوزارة في عهد الخليفة المقتدر (٢٩٥ - ٣٢٠ هـ) لاتباعه سياسة خرقاء في تعيين وزرائه وعزلهم، حتى تقلد الوزارة في عهده اثنا عشر وزيراً عزل بعضهم أكثر من مرة. وكان لضعف الوزراء في ذلك العصر وازدياد نفوذ القواد أن ضاعت هيبة الوزارة فلم يبق للوزراء شيء من النفوذ. فاقتصرت وظيفتهم على الحضور إلى دار الخلافة في أيام الركوب (المواكب) مرتدين السواد، متقلدين السيوف والمناطق وغيرها من شعارات الوزارة. وأصبح تعيين الوزراء وعزلهم بيد أمير الأمراء الذي هيمن على شؤون الخلافة والوزارة والدولة جميعاً وبخاصة في عصر البويهيين والسلاجقة.

ومع هذا فقد كانت الوزارة أيام العباسيين وزارة تنفيذ ووزارة تفويض.

- وزارة التنفيذ[١١]:

يقتصر النظر في وزارة التنفيذ على ما يراه الخليفة. ويكون الوزير فيها واسطة بين الخليفة والناس، يمضي ما يأمره به الخليفة من تعيين الولاة، وتجهيز الجيوش وقيادتها، ويعرض عليه ما ورد من مهم، وما استجد من حدث.

- وزارة التفويض[١٢]:

أما وزارة التفويض، فيستوزر الخليفة فيها رجلاً يفوض إليه تدبير الأمور برأيه وعلى اجتهاده. فيتولى الوزير كل شيء بسلطات واسعة، ويفوض في أمور الدولة والتصرف في شؤونها دون الرجوع إلى الخليفة كما كان ليحيى البرمكي في خلافة الرشيد[١٣].

وفي عهد بني بويه بدءاً من سنة ٣٣٤ هـ / ٩٤٥ م. فقد اختفى الوزراء لأن

١/٢٥٥ - ٢٦٢ و - ٢ / ٢٠٩ وحتى - تاريخ العرب ٣٦٨ - ٣٧٣ وضحى الإسلام ١ / ١٠١. ٢٦. ٢ / ١٢١ - ١٢٣.

(١١) الماوردي - الأحكام السلطانية القاهرة ١٩٠٩ - ٢٦

(١٢) السيوطي حسن المحاضرة حـ ٢ / ١٢١ - ١٢٣.

(١٣) تاريخ الطبري ٨ / ٢٣٣ - ومروج الذهب ٣ / ٣٣٧.

هؤلاء حلوا محلهم. واستبدوا بأمور الخلافة، واصطنعوا الوزراء الذين امتازوا بالكفاية والفضل أمثال: ابن العميد وزير ركن الدولة بن بويه، والصاحب بن عماد، وزير مؤيد الدولة ثم فخر الدولة وغيرهم، وصار يطلق على الوزير لقب «أمير الأمراء» حتى إذا تخلص السلاجقة من البويهيين منحوا الخلفاء مزيداً من السلطة والقوة(١٤)».

الكتاب أيام العباسيين:

اتسعت الدولة العربية الإسلامية في عهد الخلفاء الراشدين وضمّت شعوباً وطوائف عديدة من الناس، فكان لا بد لهذه الدولة من أن ينشأ فيها جهاز وظيفي يتولى أعمال الكتابة التي يوجهها الخليفة إلى الوزير أو القضاء والولاة في الأقاليم وتسجيل الرسائل الواردة من الولاة والقضاة إلى الخلافة، وكذلك في سائر الدواوين كانت هناك الحاجة إلى من يتولى الأعمال الكتابية فيها.

وفي العصر الأموي والعصر العباسي استمرت تلك الحاجة إلى مجموعة من الموظفين أو الكتاب للقيام بالأعمال الكتابية بخاصة في العصر العباسي الأول بعدما تعددت الدواوين لمساعدة الوزير في أعماله الواسعة، وللاشراف في هذه الدواوين فاقتضى طبقاً لذلك أن يكون لكل وزير كاتب أو كتاب يساعدونه وأن يكون لكل وال من ولاة الأقاليم ورجال رجال الدولة كاتباً أو أكثر.

ويرأس جماعة الكتاب الوزير. وأحياناً كثيرة كان بعض الكتاب يتدرجون في الرقي إلى أن يتولوا الوزارة معتمدين على كفايتهم الكتابية وبلاغة أقلامهم(١٥).

وتولى الأعمال الكتابية في الخلافة العباسية الفرس، قبل الوزراء، لأن الفرس كانت لهم القدرة الفائقة في الكتابة، بينما كان العرب يفخرون بالسيف لا

---

(١٤) خودابخشن ـ حضارة الإسلام. ١٠٢.

(١٥) الطبري ٩ / ١٨ ـ ٢٩، والجهشاري محمد بن عبدوس. نصوص ضائعة من كتاب «الوزراء والكتاب» جمع وتعليق: ميخائيل عواد. ٢٤ و ٤٨ و ٤٩. منشورات دار الكتاب اللبناني بيروت ١٩٦٤ م. وأبو الحسن الهلال بن المحسن الصابي. الوزراء أو تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء. تحقيق عبد الستار فراج ٣٤٨. منشورات عيسى البابي الحلبي وشركاه ١٩٥٨ م.

بالقلم. لذا نجد كثيراً من الكتاب في العصر العباسي يحذون حذو أجدادهم الفرس، حتى في مظهرهم الخارجي. وكان لامتلاك بعض الكتاب إلى ثقافة أوسع من ثقافة غيرهم، ودائرة معارفهم واسعة، ودرايتهم بأحوال الناس الإجتماعية وتقاليدهم كبيرة. هذا فضلاً عن أن إجادتهم عملهم كان يتطلب دراية في اللغة والأدب وعلوم الدين والفلسفة والتاريخ والجغرافيا، إلى جوانب كثيرة قد تعرض في مسائل للخليفة أو الوزير أو الوالي.

ولما كانت الأعمال الكتابية مهمة خطيرة يجب على من يتولاها أن يتحلى بأخلاق حميدة وثقافة واسعة ودقيقة، فقد تعددت الكتب التي ألفت لجماعة الكتاب بالذات. فألف ابن قتيبة كتاباً اسمه «أدب الكاتب» أوضح فيه الكثير من ألوان المعرفة التي اعتقد (ابن قتيبة) أن الكاتب بحاجة إليها. كما ألف أبو بكر الصولي كتاب «أدب الكاتب» توسع فيه في شرح أمور كثيرة لم يعرض لها ابن قتيبة. ونصح «عبد الحميد الكاتب» الكتاب فقال «فنافسوا معشر الكتاب في صفوف العلم والأدب، وتفقهوا في الدين، وابدأوا بعلم كتاب الله عز وجل أو الفرائض، ثم العربية فإنها ثقافة ألسنتكم، وأجيدوا الخط فإنه حلية كتبكم. وارووا الأشعار، واعرفوا غريبها ومعانيها، وأيام العرب والعجم وأحاديثها وسيرها، فإن ذلك معين لكم على ما تسعون إليه يهمكم. ولا يضعفن نظركم في الحساب فإنه قوام كتاب الخراج منكم».

وتنوع الكتاب تبعاً لتنوع الدواوين في ذلك العصر. فكان منهم كتاب الرسائل وكتاب الخراج وكتاب الجند وكتاب الشرطة وكتاب القاضي. وقد كان صاحب ديوان الرسائل الكاتب الأهم والأعلى شأناً من غيره إذ كان عليه إذاعة المراسيم والبراءات وتحرير الرسائل السياسية، وختمها بخاتم الخلافة بعد اعتمادها من الخليفة، ومراجعة الرسائل الرسمية ووضعها في صيغتها النهائية. وكانت مهمة كاتب الرسائل تشبه وزارة الخارجية اليوم. فكان يتولى مكاتبة الملوك والأمراء عن الخليفة، وبأسلوب شائق وبليغ. لذا روعي في الكاتب رصانة الأسلوب وسعة العلم. فضلاً عن عراقة الأصل. وأوجز ابن خلدون الصفات التي يجب توافرها في الكاتب عامة وكاتب الرسائل خاصة فقال: «واعلم أن صاحب

هذه الخطة لا بد من أن يعتبر من أرفع طبقات الناس وأهل المروءة والحشمة منهم، وزيادة العلم، معرفة البلاغة.. فانه معرّض للنظر في أمور العلم لما يعرض في مجلس الملوك. ومقاصد من أمثال ذلك، مع ما تدعو إليه عشرة الملوك من القيام على الأداب والتخلق بالفضائل، مع ما يضطر إليه في الترسيل وتطبيق مقاصد الكلام من البلاغة وأسرارها...».

٤ ـ الحجابة أيام العباسيين:

لم تعرف الحجابة ولا الحجاب أيام الخلفاء الراشدين لأنهم لم يمتنعوا عن مقابلة الناس أو مخاطبتهم مهما اختلفت مراتبهم، ولم يمنع من الدخول على الخلفاء أي إنسان. وما أن انتقل الحكم إلى الأمويين، اتخذ معاوية بن أبي سيفان وخلفاؤه من بعده الحجاب، وذلك خوفاً على أنفسهم من شر الناس بعدما كثر المعارضون لحكمهم وبخاصة الخوارج والعلويين (شيعة الإمام علي بن أبي طالب)، على أثر مقتل الإمام علي ومحاولة قتل معاوية وعمرو بن العاص. وليس فقط من هذا القبيل، بل تلافياً لمنع ازدحام الناس على أبواب الخلفاء بعدما اتسعت رقعة الدولة وشملت طوائف وأجناس مختلفة من البشر، وشغلهم عن النظر في أمور الدولة ومهامها. وهكذا صارت مهمة الحجاب الوقوف على باب الخليفة لإدخال الناس عليه، مراعين في ذلك مقامهم وأهمية أعمالهم.

والخلفاء العباسيون الذين احتجبوا عن الناس لأجل إحاطة أنفسهم بهالة من القدسية والرهبة. لم يكن من الغريب على الرعية إذا ما بالغوا في منعهم عن مقابلتهم إلا في الأمور الهامة. وهذا ما حدا بابن خلدون إلى تسمية هذا المنع بالحجاب الثاني، وصار بين الناس وبين الخليفة داران: دار الخاصة، ودار العامة ويقابل كل طائفة في مكان معين وفق ما يراه الحجاب.

ازداد نفوذ الحاجب مع الزمن وكذلك خطورة مهمته أيام العباسيين، ولم يمض وقت طويل حتى صار يستشار في كثير من أمور الدولة بحكم قربه من الخليفة، الأمر الذي جعله يستبد بالنفوذ دون الوزير، حتى صار أصحاب الدواوين ملزمين بالرجوع إليه في أكثر أمور الدولة. وإمعاناً في تدخله وتحكمه حتم على أصحاب الدواوين ألا يفصلوا في الأعمال إلا بعد موافقته. فأدت

مداخلات الحجاب إلى استشارة الوزراء ودفعهم إلى الدس في حق الحجاب عند الخلفاء.

ثانياً: النظام الإداري:

بدأت الدولة العباسية منذ نشأتها الأولى بتطبيق السياسة المركزية. فكان الولاة أقل نفوذاً وأضيق سلطاناً منهم في عهد اتباع سياسة اللامركزية أو الإقليمية بدءاً من خلافة هرون الرشيد إذ صار الولاة فيها أكثر نفوذاً وحرية. وقد قسم الماوردي في كتابه «الأحكام السلطانية» الإمارة على الأقاليم إلى ثلاثة أنواع:

أ ـ إمارة استكفاء: يفوض الخليفة فيها إلى الوالي إمارة الإقليم، على أن تحدد صلاحياته بتدبير الجيش، والنظر في الأحكام، وتقليد القضاة وجباية الخراج، وحماية الدين، والذبّ عن الحريم، وإقامة الحدود في حق الله وحقوق الآدميين، والإمامة في أيام الجمع والجماعات، وتسيير الحجيج، وإذا كان الإقليم ثغراً أضيف إلى عمل الوالي جهاد من يليه من الأعداء.

ب ـ إمارة استيلاء: وهي أن يستولي أحد الأمراء قسراً على ولاية، فيضطر الخليفة إلى إقراره عليها، ويفوض إليه تدبيرها وسياستها.

ج ـ إمارة خاصة: تقتصر صلاحيات الوالي في الإمارة الخاصة على تدبير الجيش وسياسة الرعية والذب عن الحريم وعلى ألا تشمل صلاحياته التعرض للقضاء، والأحكام وجباية الخراج.

١ ـ الوالي:

كان العباسيون يكلفون بعض أفراد البيت العباسي وأكابر القواد بالولايات الإسلامية البعيدة، لأن ولاة العصر العباسي الأول كانوا رعاة يمسكون خيوط الدعوة ويتصلون بالنقباء. وكان الإقبال على تولي مركز الولاية كبيراً، وكثيراً ما كان الوالي على غرار البرامكة، يبالغ في استغلال وظيفته[١٦] وما دام كذلك، فقد تعرض الولاة للعزل ومصادرة أموالهم وتركها في بيت مال، سماه الخليفة المنصور

---

(١٦) الحضارة العباسية ٢٩.

«بيت المظالم» بعدما يكتب عليها أسماء أصحابها. فقد قال أبو جعفر المنصور لابنه المهدي[١٧] قد هيأت لك شيئاً، فإذا مت فادع من أخذت ماله فاردده عليه فإنك تستحمد بذلك إليهم والى العامة». ولما ضعفت الدولة العباسية، صار الولاة يؤثرون البقاء في بغداد أو في سامراء، وينيبون عنهم من يتولى حكم الولايات باسمهم حتى إذا ما لمس بعض الولاة أو نوابهم ضعف الدولة جنحوا إلى الإستقلال[١٨] والأدلة كثيرة في قيام الدول المستقلة في المشرق والمغرب، وفي مصر والشام.

كان صاحب الخراج الساعد الأيمن للوالي، وعمله يقتصر على جمع الخراج وإرساله إلى بيت المال في العاصمة والإنفاق على ماتتطلبه الدولة من مشاريع إصلاحية حتى إذا اجتمعت وظيفتا الوالي وصاحب الخراج (العامل) إلى شخص واحد شكل خطراً على الخلافة.

وكان يساعد الوالي وصاحب الخراج (عامل الخراج) في المدن عدد من الموظفين أهمهم: القاضي، والبندار (مهمته المطالبة بالخراج) وصاحب الجند، وصاحب البريد، ومتولي الضياع السلطانية، وصاحب المعونة (مهمته مساعدة صاحب الجند). يتم تعيين هؤلاء الموظفين الوزير، على أنه جرت العادة، يعزلوا بعزله، ويعودون بعودة الوزير ثانية، وهذا ما تسبب في إشاعة الفوضى والاضطراب في الولايات العباسية، وبخاصة في العصرين العباسيين: الثالث والرابع.

ولما كان منصب الوالي من المناصب الخطيرة، يعين من بين أمراء الجند الذين تتوافر فيهم الصفات الآتية:

١ ـ الحزم في التقرير.
٢ ـ العلم الذي يدرأ عن التهور والتغرير في الأشياء.
٣ ـ الشجاعة في الثواب والعقاب والإحسان.

(١٧) الكامل في التاريخ ٥ / ٤٨.

(١٨) الفارقي. تاريخ الفارقي. ١٦٩ و٨٢ و٨٣. دار الكتاب اللبناني. بيروت ١٩٧٤. وخودابخش، صلاح الدين. حضارة الإسلام. ترجمة وتعليق علي حسني خربوطلي. ١٨٢. منشورات دار الثقافة. بيروت ١٩٧١ م.

٤ ـ الصرامة بالنسبة لأهل الزيغ والعدوان ومواجهة الأخطار.

٢ ـ الدواوين :

لم يكن للخليفة العباسي، في دولة اتسعت رقعتها إلى ما وصلت إليه في أيام الخليفة الرشيد، وأن تستقر البلاد وتستقيم الأمور بعد أن ازدادت سلطاته وتنوعت أعماله وكثرت مشاكله الداخلية والخارجية، من أن يوزع الأعمال. ومن هنا جاءت الحاجة إلى إنشاء عدد من الدواوين. التي قامت بالأعمال نفسها التي تقوم بها الوزارات في عصرنا الحاضر. ومن أهم هذه الدواوين:

أ ـ ديوان الجيش.

ب ـ ديوان النفقات وتدخل ضمن صلاحياته حاجات دار الخلافة.

جـ ـ ديوان بيت المال الذي يشرف على ما يرده من أموال وما يخرج من نفقات.

د ـ ديوان الرسائل (الإنشاء).

هـ ـ ديوان البريد.

و ـ ديوان التوقيع وتشمل صلاحياته النظر فيما يقدمه أصحاب الحاجات.

ز ـ ديوان الخاتم.

حـ ـ ديوان الفض، وفيه تفض الكتب الواردة من الأمراء والعمال إلى الخليفة.

ط ـ ديوان الأكرة، ويشرف على بناء وإصلاح الترع والجسور وشؤون الري.

وجعل لكل ولاية من ولايات الدولة العباسية في بداءة الأمر ديوان كبير ببغداد يشرف على شؤونها، كما كان الديوان مقسماً إلى قسمين: الأول ويسمى الأصل، تسن فيه الضرائب وتحمل إلى بيت المال. والثاني، الزمام أو ديوان المال واستمر هذا النظام إلى أن تولى الخلافة المعتضد سنة ٢٧٩ هـ /٨٩٢ م. فضم كل دواوين الدولة بعضها إلى بعض، وكون منها ديواناً واحداً أطلق عليه اسم «ديوان الدار الكبير» ثم قسمه إلى ثلاثة أقسام: ديوان المشرق وديوان المغرب، وديوان السواد أي العراق. وأسند الأصل لشخص واحد، والزمام لشخص آخر، وأناط مصالح غير المسلمين بديوان خاص أطلق عليه اسم «ديوان الجهبذة».

ـ **ديوان البريد**: إن أول من وضع نظام البريد في الإسلام معاوية بن أبي سفيان الذي أخذه عن البيزنطيين[1]. وكان لديوان البريد خاصة مكانة فريدة في العصر العباسي، اهتم الخلفاء العباسيون به واعتمدوا عليه اعتماداً كبيراً في إدارة شؤون دولتهم. وقيل عن الخليفة أبي جعفر المنصور انه كان يقول[2]. «ما كان أحوجني إلى أن يكون على بابي أربعة نفر، لا يكون على بابي أعف منهم. فقيل له يا أمير المؤمنين من هم؟ قال هم أركان الملك، لا يصلح الملك إلا بهم، كما أن السرير لا يصلح إلا بأربعة قوائم إن نقصت واحدة تداعى. أما أحدهم فقاض لا تأخذه في الله لومة لائم والآخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوي والثالث، صاحب خراج يستقصي ولا يظلم الرعية فإني عن ظلمها غني. والرابع... ثم عضّ على أصبعه السبابة ثلاث مرات ويقول في كل مرة آه آه.. قيل له: ومن هو يا أمير المؤمنين؟ قال: صاحب بريد يكتب إلي بخبر هؤلاء على الصحة».

يبين لنا هذا القول مدى خطورة مهمة صاحب البريد الذي كان عين الخليفة الساهرة على الأصدقاء والأعداء جميعاً، يراقب العمال والولاة ويتجسس على الأعداء[3] ويبعث بأخبار هؤلاء جميعاً إلى الخليفة. وقد أوجز قدامة بن جعفر الشروط الواجب توافرها في صاحب البريد قائلاً: «يجب أن يكون ثقة، أما في نفسه أو عند الخليفة القائم بالأمر في وقته، لأن هذا الديوان ليس فيه من العمل ما يحتاج معه إلى الكافي المتصفح، وإنما يحتاج إلى الثقة المتحفظ» كما ذكر القلقشندي، إن من صفات البريدي[4] «أن يكون قديراً على تنميق الكلام، وتحسين العبارة. صحيح الفكرة والمزاج، ذا بيان وعارضة ولين. صدوقاً، بريئاً من الطمع»...

(١٩) الصالح، صبحي، النظم الإسلامية. ٣٣١. دار العلم للملايين. الطبعة الخامسة بيروت ١٩٨٠ م.

(٢٠) الكامل في التاريخ ٥ / ٤٦.

(٢١) كان ابن خرداذبة يقوم بهذه المهمة في مقاطعة الجبل بفارس. البستاني فؤاد أفرام. دائرة المعارف ٢ / ٤٥٩. بيروت ١٩٥٨ م. و A. Miquel l'slam et sa civilisation. p 124.

(٢٢) صبح الأعشى ١ / ١١٥.

ولم تقتصر مهمة عمال البريد في الدولة العباسية على موافاة الخليفة كل ما يجري من أعمال في دولته، وما يقوم به الولاة وما يقضي به القضاة، وما يرد إلى بيت المال من أموال. وإنما كانوا يوافونه بأسعار الحاجيات من قمح وحبوب وغيرها. وفي أيام أبي جعفر المنصور كان عمال البريد يوافونه بما يجري مرتين في اليوم، فإذا صلى المغرب وافوه بما حدث نهاراً، وإذا صلى الصبح كتبوا إليه بما جرى ليلاً. وبهذا كان الخليفة على علم بكل ما يجري في الولايات الإسلامية، فيوقف القاضي عند حده إذا ظلم ويعيد السعر إلى حالته الأولى إذا غلا، ويعاقب العامل إذا قصر أو أخطأ.

وتسهيلاً لمهمة عمال البريد، وحتى تصل الأخبار بأقصى سرعة إلى الخلفاء فقد ربط العباسيون بين سائر الولايات العباسية الإسلامية والعاصمة بغداد بشبكة من الطرقات، وأنشأوا عليها المحطات للاستراحة، ومن أهم المسالك في الدولة العباسية: (٢٣).

أ ـ طريق المغرب: بغداد ـ الشام ـ مصر ـ القيروان في المغرب.

ب ـ طريق الشام: بغداد ـ الأنبار ـ الشام.

جـ ـ طريق المشرق: بغداد ـ مرو ـ وبخارى ـ وجيحون، وفرغانة... الخ.

واستعملوا في نقل البريد البغال والخيل، ثم استخدموا بعد ذلك الجمازات، أي العربات التي تجرها الخيول السريعة، وفي القرن الرابع الهجري، استخدم عمال البريد الحمام الزاجل في نقل الرسائل بعدما شاع هذا النوع من البريد ولا سيما عند الفرق الباطنية بخاصة منها: الفاطميون(٢٤) وكانت المسافات عندهم تقاس بالأميال في البلاد الواقعة غربي نهر الفرات وبالفراسخ في البلاد الواقعة شرقي هذا النهر. هذا ويفترض في البريدي أن يكون ذا معرفة تامة بالطرق

---

(٢٣) مصلحة البريد. تاريخ البريد في مصر ٢٦. وضع بمناسبة انعقاد مؤتمر البريد العالمي العاشر. القاهرة ١٩٣٤ م.

(٢٤) المرجع السابق ٤٣.

ووعورتها فيتجنب سلوك الجبال والوهاد ومجاري الأنهار فيؤدي مهمته بأسرع وقت على أحسن وجه[٢٥].

وكان البريد موضع اهتمام بني بويه، حتى بلغ في عهدهم مبلغاً عظيماً من الدقة والسرعة، وبخاصة عندما أخذت الدولة إجراءات قاسية بحق كل من يتوانى في أداء واجبه من موظفي البريد. وأدخل معز الدولة البويهي «نظام السعاة» ـ كان يقال لهم أيضاً الفيوج ـ وهم جماعة من موظفي البريد يتخصصون في نقل البريد السريع من مكان إلى آخر. وقد أخلص هؤلاء إلى معز الدولة. وأقبل أولاد الفقراء على الإلتحاق بهذا العمل والتدرب عليه لما كان يوزع على أفراده من أرزاق وجرايات كثيرة.

وكان صاحب ديوان البريد يشرف على البريديين والبراجين وشؤون أرزاقهم ومراقبة المراسلات الصادرة والواردة من جميع الأقاليم، ثم فرزها لتصل إلى أصحابها تولى عرض كتب أصحاب البريد في جميع النواحي على الخليفة»[٢٦].

٣ ـ الأمن:

أنيط حفظ الأمن في جميع أنحاء الدولة العباسية بجهاز الشرطة. لذا كان يختار صاحب الشرطة من علية القوم ومن أهل العصبية والقوة. يتولى صاحب الشرطة رئاسة الجند الذين يساعدون الوالي في تثبيت الأمن وحفظ النظام والقبض على الجناة والمفسدين. وقد اتخذت الدولة العباسية في كل مدينة من المدن جماعة من الجند برئاسة من ينيبه صاحب الشرطة الذي يتخذ من العاصمة أو مركز الولاية مقراً له. وقام رجال الشرطة بمهمة حفظ الأمن وإقرار النظام وتنفيذ أحكام القضاة، وبالسهر ليلاً على راحة الناس (العسس) بإشراف رؤسائهم الضباط خير قيام. ولم تبخل الدولة على هؤلاء جميعاً بالمرتبات الكبيرة منعاً للغش والبرطيل وحفزاً للقيام بواجباتهم على أكمل وجه. وكانت الشرطة تتبع القاضي في بادىء الأمر، يعمل صاحبها على إقامة الحدود بالقبض على المجرمين وتنفيذ أحكام

---

(٢٥) ابن خردازبة. المسالك والممالك ١٨٠ نشره دي غويه. طبعة ليدن ١٨٨٩ م.

(٢٦) المسالك والمالك ١٨٥.

القضاء فيهم. لكنها لم تلبث أن انفصلت عن القضاء، فاستقل صاحب الشرطة بالنظر في الجرائم. وكان تعيين صاحب الشرطة يتم من قبل الوالي في الولاية وليس الخليفة، وكذلك عزله عنها.

ثالثاً: النظام الحربي:

١ ـ الجيش:

اعتمدت الدولة العباسية على جيش قوي، كثير العدد، مجهز بمختلف أنواع العدد ليكون القادر على رد أعدائها في الخارج، والقضاء على الثوار والخارجين عليها في الداخل. وبينما كان الجيش في عهد الرسول الكريم، وعهد الخلفاء الراشدين والأمويين يتألف من العنصر العربي، نرى بأن العباسيين يعتمدون على الفرس في إقامة دولتهم، وبالتالي على العنصر الفارسي في تكوين الجيش العباسي خاصة بعدما كثرت المنازعات العصبية التي كانت تشعل نارها بين الجند العربي من حين إلى آخر، ولا سيما بين اليمنية والمضرية. ولما تولى الخلافة المعتصم سنة ٢١٨ هـ. اعتمد على الأتراك، وآثرهم على الفرس والعرب جميعاً، فزاد عدد الأتراك في عهده على السبعين ألفاً. فاستاء القواد وخاصة العرب منهم، من هذه السياسة بعد أن محا أسماءهم من ديوان العطاء، حتى اضطر المعتصم على بناء سامراء لتكون مركزاً له ولجيشه الجديد(١). ثم لم يلبث أن ازداد نفوذ العنصر التركي زيادة كبيرة أصبح معها الخلفاء ألعوبة في أيدي القادة الترك، مما أضاع هيبة الخلافة وقد تحول الجنود الأتراك عند ذلك إلى عنصر لإثارة الفوضى والقلاقل، وخاصة إذا تأخرت رواتبهم، الأمر الذي جعل بعض الخلفاء مثل المعتز (٢٥٢ ـ ٢٥٥ هـ) يعتمد المغاربة والفراغنة دون الأتراك، مما أدى إلى مقتله على أيدي هؤلاء الآخرين انتقاماً(٢).

---

(٢٧) مروج الذهب. ٣ / ٤٦٥ ـ ٤٦٦. وتاريخ الخلفاء ٣٣٥ ـ ٣٣٦، علماً أن المنصور العباسي أول من استخدم الأتراك في الجندية باعداد قليلة لم يكن لهم شأن في الدولة كشأن الفرس والعرب.

(٢٨) تاريخ الطبري ٩ / ٣٦٩. والكامل في التاريخ ٥ / ٣٤١ ـ ٣٤٢.

أ ـ أقسامه:

انقسم الجيش العباسي إلى قسمين: أولاً: الفرسان أو الحربية وهم الذين كانوا يتسلحون بالرماح وهم من جند العرب. وثانياً: المشاة وهم من الفرس ولا سيما الخراسانيين بسبب مساندة هؤلاء للعباسيين في إقامة دولتهم.

وقسم الجيش العباسي أيضاً إلى فرق، كل فرقة من عشرة آلاف جندي بأمرة أمير، وتتكون الفرقة من كتائب كل كتيبة من ألف جندي بقيادة قائد، وتنقسم الكتيبة إلى وحدات، كل وحدة من مائة جندي برئاسة نقيب، ثم تنقسم الوحدة إلى فصائل كل فصيلة من عشرة جنود عليها عريف. وأثناء القتال كان الجيش العباسي يتألف من تشكيل على الشكل الآتي: القلب، والميمنة، والميسرة، والطليعة والساقة. وتألفت من الجند الأتراك على توالي الأيام الفرق التي كانت تنسب كل منها إلى صاحبها كالساجنة إلى أبي الساج، والصلاحية إلى صلاح الدين. والأسدية والنظامية وأمثالهما. وكثيراً ما كانت الحروب تنشب بين هذه الفرق تنازعاً على النفوذ أو على المال[٢٩]

ب ـ صلاحية الجند للقتال:

وكان للجيش العباسي ديوان خاص به، يتألف من مجلسين: مجلس التقرير تسجل فيه رواتب الجند بعد تقديرها، وأوقات دفعها إليهم. ومجلس المقابلة الذي تتم فيه عملية الإشراف على سجلات الجند ومراجعة أسمائهم ونحو ذلك. أما صلاحية الجند للخدمة العسكرية، فكانت تخضع لاختبار دقيق يشرف عليه جماعة من كبار القواد، ويروي هلال بن الصابىء كيفية إجراء هذا الإختبار في عهد الخليفة المعتضد بقوله[٣٠]: كان يجلس الخليفة والقواد والغلمان بين يديه في الميدان «ويتقدم القائد ومعه جريدة بأسماء أصحابه وأرزاقهم، فيأخذها خادم منه، ويصعد بها إلى المعتضد بالله، ويدعو عبيدالله بن سليمان بواحد واحد ممن فيها، فيدخل الميدان ويمتحن على الرجاص (الهدف)، فإن كان يرمي رمياً جيداً وهو

(٢٩) تاريخ التمدن الإسلامي ٣ / ١٨١.

(٣٠) هلال الصابىء ١٤.

متمكن من نفسه ومستقر في سرجه ومصيب أو مقارب في رميه، علم على اسمه (ج) وهي علامة جيد. ومن كان دون ذلك علم على اسمه (ط) وهي علامة المتوسط، ومن كان متخلفاً لا يحسن أن يركب فرسه أو يرمي هدفه، علم على اسمه (د) وهي علامة الدون. . . .»

ج ـ سلاحه:

يتألف سلاح الجيش العباسي من الرماح والسيوف والحراب والتروس والنشاب الخ. . . ويلبس أفراده الخوذ الحديدية لتقي رؤوسهم، والدروع لتقي صدورهم. كما كانت لكل فرقة من فرق الجيش فصيلة لقذف النفط، اشتهر أفرادها بلقب «النفاطين» الذين يرتدون ملابس لا تؤثر فيها النيران عند اقتحام الحصون المشتعلة، وفصيلة أخرى من المعماريين الذين يحملون المعاول إلى جانب التروس والسيوف. وأخيراً كان لدى العباسيين فرقة المنجنيقيين أي الذين كانوا يستخدمون المنجنيق الرومي بكتل الحجارة على حصون الأعداء وتجمعاتهم، وهم أشبه برجال المدفعية اليوم.

ولم تغرب عن تفكير العباسيين أعمال الجاسوسية في الجيش. فاستخدموا لذلك الرجال والنساء الذين غالباً ما كانوا يرحلون إلى بلاد الأعداء ـ الدولة البيزنطية ـ متنكرين في أزياء التجار والأطباء، من أجل جمع أخبار العدو ونقلها. ثم أقاموا الجيوش البرية والبحرية التي ربطت على حدود الدولة من غارات الأعداء وهجماتهم على حدود الدولة العباسية، كما أقاموا الثغور العباسية على مختلف الحدود مع الروم البيزنطيين.

واستمرت غزوات العباسيين ولا سيما منها الصائفة، لبلاد الروم والبيزنطيين، رداً على إغاراتهم وذودا عن ثغورهم[٣١].

٢ ـ الأسطول البحري:

اهتمت الدولة العباسية بأمر إنشاء أسطول بحري قوي في البحر الأبيض

---

(٣١) تاريخ الطبري. ٧ / ٤٩٧. و٨ / ١٤٤ ـ ١٤٨ و٨ / ٢٦٨. والكامل في التاريخ ٥ / ١١٨.

المتوسط للدفاع عن سواحلها الطويلة ضد هجمات الروم البيزنطيين على الثغور الإسلامية في البلاد الشامية أو المصرية، وللغزو أحياناً كثيرة. وقد استغل العباسيون خيرة أهل الثغور الشامية والمصرية في إنشاء السفن وركوب البحر خاصة بعد أن نجحوا في تقديم تلك الخبرات للعرب والعمل على إنشاء أسطول قوي في العصر الأموي تمكن الأمويون بفضله من غزو القسطنطينية نفسها.

واستمرت العناية بالأسطول البحري طوال الأعصر العباسية لكن انشغال الخلفاء بالقضاء على الثورات الداخلية في البلاد، والسيطرة الفارسية ثم البويهية التركية على مركز الخلافة وتحكمهم بالخلفاء، أضعف السهر على تقوية الأسطول وبالتالي حد من أمر غزوه لبلاد الروم البيزنطيين. فشعر الروم بهذا الضعف وعلموا بمشاكل الخلافة وما تواجهه من تدخلات، فأغاروا سنة ٣٣٨ هـ ـ في عهد الخليفة المتوكل على الله ـ على مصر بحرياً، واقتحموا دمياط في نحو ثلاثمائة مركب، وعاثوا فيها فساداً، إذ أحرقوا دورها وجامعها الكبير وقتلوا كثيراً من رجالها، وسبوا العديد من نسائها، إضافة إلى الغنائم الكثيرة التي حملوها معهم إلى بلادهم[٣٢].

على أثر هذا الهجوم، اهتم «عنيسة بن إسحق والي مصر (٢٣٨ ـ ٢٤٢ هـ)، بتحصين الموانىء، والعناية بصناعة السفن لأجل الدفاع على الأقل. كما ظلت صناعة السفن موضع عناية الولاة الذين جاؤوا بعده إلى مصر حتى قامت الدولة الطولونية وانشأ أحمد بن طولون اسطوله البحري الكبير (٣٣) ثم تعززت هذه الصناعة البحرية الحربية عهد الدولة الفاطمية بعدما قام المعز لدين الله بانشاء دار لصناعة السفن «بالمقس» بنى فيها ستمائة مركب (شواني : شانية).

رابعاً: النظام القضائي:

انتشرت المذاهب الأربعة ـ الحنفي، المالكي، الشافعي، الحنبلي، في البلاد الإسلامية منذ قيام الدولة العباسية، ولم يبق من مجال للإجتهاد، فأصبح القاضي يصدر أحكامه وفق أحد هذه المذاهب. ففي العراق كان القاضي يفصل

---

(٣٢) الطبري: ٩ / ١٩٣ ـ ١٩٥. والكامل في التاريخ ٥/ ٢٩٢.
(٣٣) الخطط المقريزية جـ ٢، ص: ١٩٦ ـ ١٩٧.

في الأحكام وفق مذهب «أبي حنيفة»، وفي الشام والمغرب وفق مذهب «مالك»، وفي مصر وفق المذهب «الشافعي». أما إذا تقدم متخاصمان على غير المذهب الشائع بإقليم من أقاليم الدولة العباسية، كان القاضي ينيب عنه من يحكم بمذهب المتخاصمين.

١ : القضاء والقضاة :

أ ـ قاضي القضاة :

كان قاضي القضاة يختار من قبل الخلفاء العباسيين ومن بين المشهود لهم بخوف الله، وصدقهم ونزاهتهم وعلمهم الواسع في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة والفقه الإسلامي. وكان على قاضي القضاة أن يقيم في حاضرة الدولة، ويولي من قبله قضاة ينوبون عنه في الأقاليم والأمصار. وأول من تلقب بلقب «قاضي القضاة» أبو يوسف صاحب كتاب الخراج في عهد هارون الرشيد. كما اعتذر، عن قبول تولي منصب قاضي القضاة في عهد أبي جعفر المنصور، أبو حنيفة النعمان، وقال له: «اتق الله، ولا ترع في أمانتك إلا من يخاف الله. والله ما أنا مأمون الرضا فكيف أكون مأمون الغضب»؟ وكذلك اعتذر أبو بكر الرازي (المتوفى سنة ٣٧٠ هـ) عن قبول منصب قاضي القضاة بعد أن طلب منه ذلك مراراً.

ب ـ زي القضاة :

كان القضاة في الأعصر العباسية يرتدون السواد شعار العباسيين. كما يعمم القاضي بعمامة سوداء فوق قلنسوة طويلة. وآثر القضاة في القرن الثالث للهجرة القلنسوة السوداء على غيرها، حتى أنها أصبحت تميز القضاة عن غيرهم بصفة خاصة وتلبس مع الطيلسان.

جـ ـ مكان انعقاد الجلسات :

كان القضاة يجلسون في أول الأمر في الجامع، حتى نادى البعض بأن هذا الوضع يسيء إلى حرمة بيوت الله، نظراً لما يكون بين المتقاضين من خلافات يصحبها ارتفاع أصواتهم لهذا منع الخليفة المعتضد (٢٧٩ ـ ٢٨٩ هـ) القضاة من

الجلوس في المساجد، الأمر الذي جعل بعض القضاة يفصلون بين الناس في دورهم بينما كان لقاضي القضاة في بغداد ديوان يعرف بديوان قاضي القضاة.

د ـ أعوان القضاة:

اتسعت سلطة القاضي في العصر العباسي الأول، مع اتساع دائرة القضاء، وتنوعت اختصاصاته، وتعددت قضاياه، بعد أن كان عمله مقصوراً على الفصل بين الخصوم، وصار يفصل في الدعاوى والأوقاف وتنصيب الأولياء. فبات والحالة هذه لكل ولاية من ولايات الدولة العباسية قضاة يمثلون المذاهب الأربعة، ينظر كل منهم فيما ينشأ من منازعات بين من يدفعون بعقائد مذهبه.

ترتب على ازدياد أعمال القاضي أن ازداد أعوانه، وهم:

ـ : الكتاب:

هم الذين يختارهم القضاة لمساعدتهم في إنجاز أعمالهم فينظمون جلسات القضاة ويدونون الأحكام ويكتبونها، وقد ينوبون عن القضاة إذا مرضوا. وقد اتخذ بعض القضاة إدخال نظام السجلات وجعلها تامة وافية فدوّن فيها الوصايا والديون.

ـ : الشهود:

هم الذين كانوا ملازمين للقضاة، فيروي الكندي أن القاضي إذا شهد عنده أحد معروف بالسلامة، قبل القاضي شهادته. وإذا كان غير معروف بها أوقف. وإذا كان الشاهد مجهولاً لا يعرف، سئل عنه جيرانه، فما ذكروه به من خير أو شر، عمل به.

انتشر الفساد وعمت الرشوة القضاء والقضاة بعدما ضعفت الدولة العباسية، فعرف بعض القضاة الرشوة وشرب الخمر وسماع المغنيات. وأدت هذه الأوضاع إلى أن صار بعض القضاة المرشحين لمنصب قاضي القضاة يتعهدون بتقديم مبلغ من المال يؤدونه في كل سنة. وتجاسر ابن أبي الشوارب بأن: «شرط على نفسه أن يحمل في كل سنة إلى خزانة معز الدولة مائتي ألف درهم، وكتب بذلك سجلاً». لكن الخليفة المطيع العباسي (٣٣٤ ـ ٣٦٣ هـ) لم يوافق على تقليد هذا القاضي

وأمر بمنع دخوله عليه. ويذكر ابن الأثير عن ابن أبي الشوارب «وهو أول من ضمن من القضاة، وكان ذلك أيام معز الدولة»، ولم يسمع بـذلك قبله، فلم يـأذن له الخليفة المطيع لله الدخول عليه، وأمر بأن لا يحضر الموكب لما ارتكبه من ضمان القضاء ثم ضمنت بعده الحسبة والشرطة ببغداد. . .».

٢ ـ المظالم:

كان للمظالم ديوان خاص عرف بديوان المظالم، يشبه هيئة قضائية عليا، أو ما يعرف اليوم بمحكمة الإستئناف. يسمى رئيس هذا الديوان «صاحب المظالم». إلا أن سلطته أعلى بكثير من سلطة القاضي. ويعرف ابن خلدون وظيفة صاحب المظالم بأنها: «هي وظيفة ممتزجة من سطوة السلطنة ونصفة القضاء، وتحتاج إلى عُلو يَد وعظيم رهبة، تقمع المظالم من الخصمين وتزجر المعتدي، وكأنه يمضي ما عجز القضاة أو غيرهم عن إمضائه».

وتولى بعض الخلفاء بأنفسهم النظر في المـظالم. فقد ذكر المسعودي أن الخليفة المهتدي (٢٥٥ ـ ٢٥٦ هـ) قد بنى قبة لها أربعة أبواب كان يجلس فيها، سماها «قبة المظالم» جلس فيها للعام والخاص. وسواء انعقدت محكمة المظالم برئاسة الخليفة أو الوالي أو من ينوب عنهما، فعلى صاحب المظالم هذا أن يعين يوماً يقصده فيه المتظلمون إذا كان من الموظفين ليتفرغ لأعماله الأخرى. إما إذا انفرد بالمظالم فقط فإنه ينظر فيها طوال الأسبوع.

وفرق الماوردي في كتابه «الأحكام السلطانية» بين نظر المظالم ونظر القضاء منها: أن الناظر في المظالم له من فضل الهيبة وقوة اليد ما ليس لناظر القضاء مما يكفي الخصوم عن التجاحد ويمنع الـظلمة من التغـالب. إضافـة إلى أن ناظـر المظالم يستعمل من الإرهاب ومعرفة الإمارات والشواهد ما يصل به إلى معرفة الحق من البطل، وقد حدد الماوردي اختصاصات صاحب المظالم بـ:

١ ـ النظر في القضايا التي يقيمها الأفراد والجماعات على الولاة إذا انحرفوا عن طريق العدل والإنصاف، وعلى عمال الخراج إذا اشتطوا في جمـع الضرائب.

٢ ـ النظر في تظلم المرتزقة إذا انقضت أرزاقهم أو تأخر ميعاد دفعها لهم.

٣ ـ تنفيذ ما يعجز القاضي والمحتسب عن تنفيذه من الأحكام.

٤ ـ مراعاة إقامة العبادات كالحج والأعياد، والجمع والجهاد. . . .

وقد تطور مع الوقت اختصاص محكمة المظالم، فلم تنظر في قضايا الأفراد فقط بل تعداها إلى النظر والفصل في شكاوى الشعب عامة. على أن محكمة المظالم كانت تعقد غالباً في المساجد، ويحاط بصاحب المظالم خمس جماعات لا ينتظم عقد جلساته إلا بحضورهم وهم:

أ ـ الحماة والأعوان:

وتقتصر مهمتهم على حفظ الأمن والنظام في الجلسة وكانوا من القوة بحيث يستطيعون التغلب على من يلجأ إلى العنف أو يحاول الفرار من وجه القضاء.

ب ـ الحكام:

ويقتصر عملهم بالإحاطة بما يصدر من أحكام لرد الحقوق إلى أصحابها، والعلم بما يجري بين الخصوم، فيلمون بشتات الأمور الخاصة بالمتقاضين.

جـ ـ الفقهاء:

ـ كان صاحب المظالم يرجع إليهم فيما أشكل عليه من مسائل شرعية.

د ـ الكتاب:

يقوم الكتاب بتدوين أقوال الخصوم. وإثبات ما لهم وما عليهم من الحقوق.

هـ ـ الشهود:

يهتم الشهود بإثبات ما يعرفونه عن الخصوم. والشهادة على أن ما أصدره القاضي من الأحكام لا ينافي الحق والعدل ـ

٣ ـ : الحسبة والمحتسب:

كان عمل المحتسب يقتصر على النظر بالنظام والاداب العامة التي تتطلب سرعة البث بها، ومن أهم مهماته الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر،والمحافظة على الاداب والفضيلة والأمانة، ومراعاة أحكام الشرع، والإشراف على نظام

الأسواق، والمحافظة على حق التراجع عن الطريق العامة عند البناء، حتى لا يعوِّق ذلك نظام المرور، والوفاء في الديون، والكشف على الموازين والمكاييل منعاً للتطفيف، ومنع الغش والفساد في بيع الأطعمة للناس، ومنع التعدي على حدود الجيران . . .

ونظام الحسبة في الإسلام كان من وضع الخليفة عمر بن الخطاب، الذي كان يقوم بعمل المحتسب بنفسه في الأسواق والطرقات. ولكن لفظ الحسبة نفسه لم يستعمل إلا في عهد الخليفة المهدي العباسي (١٥٨ ـ ١٦٩ هـ). وكان المحتسب يباشر عمله ويفرض العقوبة في الحال، فقد شوهد الخليفة عمر بن الخطاب يضرب جمالاً ويقول له: «حملت جملك ما لا يطيق». وهذا يدل على الفرق بين عمل القاضي وعمل المحتسب، فالقاضي يسمع أقوال المتقاضين والشهود ويدرس القضية ليفصل فيها، بينما المحتسب يرى المخالفة ويوقع العقوبة في الحال. وهذا معناه الشدة والسرعة في العمل. وكثيراً ما أسندت الحسبة والقضاء إلى رجل واحد، بالرغم من الفارق بينهما.



الفصل السادس عشر

الحياة الاقتصادية

نادى العباسيون بالمساواة والإصلاح والقضاء على الفساد الذي استشرى في العصر الأموي. وحتى يشعر الناس بأن ما نادى به العباسيون حقيقة قائمة فعلاً وليست كلاماً بكلام أطلق في موجة الحماس من أجل الوصول إلى الحكم لا أكثر. بدأ الخلفاء العباسيون الأوائل ـ وبخاصة أبو جعفر المنصور ـ في تنفيذ سياسة الإصلاح الإقتصادي بطريقة فعالة، لا سيما منها الإصلاحات الخاصة بالخراج وتنظيم جمعه بأسلوب عادل، وتخفيف الاعباء الملقاة على كواهل الفلاحين، مع رعاية شؤون الزراعة والري، والتجارة وتأمين الطريق، والصناعة وتحرير الحرفيين من القيود التي طالما رزحوا تحتها. فأدت هذه الإصلاحات إلى رخاء اقتصادي لا مثيل له في تاريخ الأمم. ولم تمض سنوات قليلة حتى صار الخليفة العباسي ينعم بالثروة التي أخذت تتكدس في خزائنه من مختلف أنحاء تلك الدولة الواسعة الأطراف. كما صار مجتمع بغداد الذي يحيط بالخليفة يعيش الرخاء الإقتصادي ذاته في الثراء والمال. وقيل ان هرون الرشيد كان يستلقي على ظهره وينظر إلى الغمامة المارة ويقول: «إذهبي حيث شئت ـ يأتني خراجك...».

أولاً ـ النظام المالي:

عملت الدولة العباسية منذ البداءة على تحقيق التوازن في السياسة المالية بين الإيرادات والمدفوعات، فقسمت الميزانية العامة إلى قسمين: قسم الإستخراج ويعني الإيرادات (المدخول)، وقسم النفقات ويعني المصروفات (المدفوعات) فهي لذلك حرصت منذ نشأتها على إنشاء «بيت المال» ليقوم على

صيانة أموال المسلمين وحفظها والإنفاق منها على وجوه الإتفاق السليمة. مما جعل بيت المال أشبه بوزارة الخزانة أو المالية في عصرنا الحاضر.

١ ـ الإستخراج أو الإيرادات:

شكلت: الخراج والجزية والزكاة والفيء والغنيمة والعشور أهم موارد بيت المال في الدولة العباسية.

أ ـ الخراج:

أرهق الأمويون رعاياهم بما فرضوه عليهم من ضرائب، بعد أن خرجوا عن القواعد التي سار عليها الخلفاء الراشدون، متبعين نظاماً قاسياً في جمع الأموال، حتى إذا ما وجدوا أي إهمال لدى الجباة وموظفي الخراج أجروا تحقيقاً دقيقاً معهم أثناء الوظيفة، وعند اعتزالهم الخدمة أيضاً.

هذه السياسة أشعرت الناس بثقل العبء الملقى على عواتقهم، فاستبشر كثيرون خيراً بقيام الخلافة العباسية أملاً في الخلاص وتحسين الأوضاع. فكان أن أخذ العباسيون يعملون على تعديل هذه الأوضاع. وما أن سيطروا على خراسان حتى عمل خالد بن برمك، صاحب الخراج في البلاد التي يفتحها الجيش العباسي، على تقسيط الخراج من الناس، إحساساً منه بما كانوا يعانونه من ظلم فادح وما تحملوا من أعباء جسام.

ولما تولى أبو جعفر المنصور الخلافة وضع نظاماً صارماً لمراقبة عمال الخراج وردعهم ومعاقبتهم إذا تعسفوا في جمعهم الخراج. واعتنى المنصور بتنظيم ديوان الخراج مخصصاً له مكاناً في بغداد على مقربة منه، محتفظاً فيه بسجلات يرجع إليها في تقدير قيمة الخراج، مراع فيمن يتولى وظائفه من الموظفين الأمانة والدقة والتفقه في أمور الدين. على أن أهم إصلاح أدخله الخليفة المنصور هو طريقة جباية الخراج، فالخراج الذي كان يؤخذ نقداً على مساحة الأرض سواء زرعت أم لم تزرع، وضع المنصور نظام المقاسمة الذي يقضي بأن يدفع الزراع جزءاً من غلة الأرض ويبقى له ما يكفيه، أما المساحة التي لا تزرع فلا يدفع عنها.

وعلى أيـام المهدي العبـاسي طبق «نظام المقـاسمة على كثيـر من البلاد الإسـلامية وفق نسب معينـة دون اعتبار لمسـاحة الأرض، فمثـلاً: بلغت نسبـة المقاسمة النصف ١/٢ على الأراضي التي تروى بالجر (سيحا)، وثلث المحصول على الأراضي التي تسقى بـالآلات (بـالـرش). وقـد طبق هـذا النـظام ـ نـظام المقاسمة ـ على الغلات الزراعية فقط، أما الأشجـار والكروم فبقيتـا على نظام المساحة، لكن روعي في ذلك الخراج حسب بعدها أو قربها من الأسواق.

واستمر العمل بنظام المقاسمة في جمع الخراج لأنه حقق دخلاً ثابتاً للدولة واطمئناناً للمـزارعين بتجنيبهم الأزمات مـع استقرار الأمن. لكن هـذا لم يمنع الخليفة هرون الرشيد عن مواصلته سياسة الإصلاح الضريبي، فأمر بإلغاء ضريبة العشر التي كانت تجبى من أهل العراق بالإضافة إلى نسبة النصف المقررة بحكم «نظام المقاسمة». وعهد إلى القاضي أبي يوسف بدراسة نـظام الخراج ووضـع الحلول المناسبة. فألف أبو يوسف «كتاب الخراج» الذي يعد خير كتاب ألف في موضوعه.

نصح أبو يوسف، في كتابه «الخراج» الرشيد بمزيد من الرأفة مع الفلاحين. فعدلت نسبة المقاسمة التي وضعت في أيـام الخليفة المهـدي بحيث أصبحت خمسين (٢/٥) على الأرض التي تروى بالجر (سيحا)، وثلاثة أعشار (٣/١٠) على الأرض التي تروى بالدوالي، وجمع الثلث من المساحات المغروسة بالنخل والكرم بدلاً من تقدير خراجها طبقاً لمساحتها[1] كما ألغى الرشيد المبالغ المتأخرة على المزارعين والتي عرفت «بالبقايا» وأوجب الرأفـة في جمعها حتى لا يلحق بالفلاحين أي غبن.

واستمر النظام المالي في العصر العباسي الثاني على درجة كبيرة من الدقة حتى كان لكل ولاية ديوان للخراج يرتبط بديوان الخراج الرئيسي في بغـداد أو سامراء واهتم الخلفاء بمواعيد جمع الخراج، على أن موعده، كان عيد النوروز عادة.

---

(١) أبو يوسف: الخراج: ٢ / ٥٠.

ب ـ الجزية :

كانت الجزيـة من أهم مصادر بيت المـال وموارده، وهي تؤخـذ من أهل الذمة[٢] فرضت الجزية على النصارى واليهود في الدولة العباسية مقابل حمايتهم والدفاع عنهم، وكانت الجزية تجمع من الرجال القادرين على حمل السلاح بعد أن وزعت عليهم بنسب مختلفة. فيدفع الفقير ١٢ درهمـاً في السنة والمتـوسط الحال ٢٤ درهماً في السنة والثري ٤٨ درهماً في السنة، فـوصل مبلغ الجـزية بأواخر القرن الثالث الهجري من ذميـي مدينة بغداد فقط مائتي ألف درهم في السنة. وقد تشدد الإسلام في جبايتها بناء على أحكام القرآن القائل: «قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الـــذين أوتوا الكتـــاب حتى يعـــطوا الجـــزية عن يـــدٍ وهـــم صاغرون»[٣].

جـ ـ المواريث :

ومن موارد بيت المال أيضاً، «ديوان المواريث» أنـشأ هذا الديوان الخليفة العباسي المعتمد. وتجمع من تركة من يموت دون وارث.

د ـ ضريبة الخمس :

هذه الضريبة تغذي بيت المال مما يستخرج من بطن الأرض وجوف البحر. فهي أخماس المعادن، وما يقذفه البحر أو ما يستخرج منه كاللؤلؤ والعنبر والرسوم الجمـركية[٤]. هـذا إضافـة إلى ما يصادرمن أموال الأمراء والوزراء وكبـار رجال الدولة[٥].

---

(٢) الجزية ضريبة على الأعناق فرضت على الذميين مقابل الزكاة على المسلمين. النـــظـــم الإســـلامية ٣٦٣.

(٣) القرآن. سورة: التوبة، الآية: ٢٩.

(٤) الرسوم الجمركية: أموال تؤخذ من الباعة عن أشياء معينة عند بيعها أو إدخالها المدن وقد تسمى «المكس». الوزراء أو تحفة الأمراء من تاريخ الوزراء ٣٤٩.

(٥) الوزراء أو تحفة الأمراء من تاريخ الوزراء ٦٩.

٢ ـ النفقات أو المدفوعات:

فكما كانت الموارد كثيرة كذلك فإن المدفوعات تعددت على مرافق الدولة ومصالحها كافة، وهي تصرف وفق ما يأتي: أرزاق القضاة والولاة والعمال وسائر الموظفين، تعطى للجند بدلاً عن مرتباتهم، إضافة عن الإنفاق على كرى الأنهر والترع وإصلاح مجاريها، وعلى المسجونين وأسرى المشركين من مأكل ومشرب وملبس، ودفن من يموت منهم، وشراء المعدات الحربية...

وأورد هلال بن الصابىء إحصائية طويلة عن النفقات اليومية للدولة العباسية في أوائل عهد الخليفة المعتضد (٢٧٩ ـ ٢٨٠ هـ) ـ فبلغت نحو سبعة آلاف دينار[٦] أي أكثر من مليونين ونصف مليون دينار سنوياً في الوقت الذي كان مجموع الإيرادات يبلغ حوالى خمسة ملايين دينار في السنة. أما في عهد الخليفة هرون الرشيد فقد بلغت الأموال التي تجبى من الضرائب اثنين وأربعين مليون دينار، عدا الضريبة العينية التي كانت تؤخذ مما تنتجه الأرض من محاصيل. وقد بلغت النفقات في عهد الخليفة المأمون ستة آلاف دينار كل يوم، أي أكثر من مليوني دينار في السنة.

إن دلت ضخامة الميزانية، في كثرة الإيرادات والمصروفات على شيء إنما يدل على رخاء البلاد وانخفاض الأسعار. فقد أورد الخطيب البغدادي في كتابه «تاريخ بغداد» إنه سمع من يقول: «رأيت في زمن أبي جعفر كبشاً بدرهم وحملاً بأربعة دوانق[٧] والتمر ستين رطلاً بدرهم، والزيت ستة عشر رطلاً بدرهم، والسمن ثمانية أرطال بدرهم... وكان ينادى على لحم البقر تسعين رطلاً بدرهم ولحم الغنم ستين رطلاً بدرهم...».

ثانياً: الزراعة:

اعتنت الدولة العباسية بالزراعة اعتناءً كبيراً، لأنها كانت تعطي مردود لخزينة الدولة العامة يقدر بثلاثين بالمئة من الواردات[٨] فحفرت الترع والمصارف للمياه

(٦) الوزراء أو تحفة الأمراء من تاريخ الوزراء: ١٣ و١٥ و٢٧.

(٧) تاريه بغداد. ١٠ / ٥١.

(٨) العرب والإسلام والخلافة العربية ٢٧٥.

وأقامت الجسور والقناطر. فالأرض الواقعة ما بين النهرين ـ دجلة والفرات ـ كانت منذ القديم مشهورة بخصبها، فهي لذلك من أخصب أراضي الدولة العباسية الأمر الذي جعل الحكومة تهتم بالإشراف عليها إشرافاً مباشراً، ومد شبكة من الترع والمصارف فيها(٩) حتى كثرت بها المزارع والبساتين وعرفت بأرض السواد لكثرة ما فيها من الشجر والزرع والخضرة. وكانت غالبية الأرض تروى من ماء الفرات، في حين جعلت مياه دجلة لري الأراضي الواقعة على شاطئه الغربي وعلى ساحل الخليج وبذلك امكن توفير الماء لري جميع الأراضي الواقعة بين الصحراء العربية وجبال كردستان وتحويلها إلى مزارع خضراء تدر الخير على أهلها والدولة. أما أرباض بغداد فامتدت إليها جميعاً القنوات، مما مكن أهلها من غرسها بالنخيل بعد أن كانت زراعته مقصورة على البصرة والكوفة والسواد. كذلك كثرت العناية بزراعة البساتين والحدائق وتنسيقها.

١ ـ الحاصلات الزراعية:

ومن أشهر المنتوجات الزراعية في جميع أنحاء الدولة العباسية حيث كانت تتوفر المياه، الحنطة. أما الذرة فقد اقتصرت زراعتها على أجزاء معينة مثل جنوب شبه جزيرة العرب. وكذلك الشعير والأرز والنخيل والزيتون وقصب السكر. أما الفواكه فأشهرها الكرمة (العريش) التي غرست في جميع أنحاء الدولة العباسية(١٠)، والنارنج(١١) الذي جلب من الهند وزرع بعمان والبصرة والعراق والشام، لكنه لم يحتفظ برائحته الطيبة ولونه الحسن الذي يوجد فيه بأرض الهند(١٢). والتفاح في بلاد الشام، والخوخ بمكة(١٣) وكثرت في العراق زراعة البطيخ والرمان أيضاً إضافة إلى زراعة التمور والأرز والشعير والذرة.

---

(٩) ريسلي جاك، س. الحضارة العربية. ١١١ و ١١٢. ترجمة غنيم عبدون. مراجعة أحمد فؤاد الأهواني، منشورات الدار المصرية للتأليف والترجمة والعرب والإسلام والخلافة ص: ٢٧٤.

(١٠) ابن حوقل. المسالك والممالك. ١٦٧. ليدن. بريل ١٨٧٣م.

(١١) البوصفير Orange amère وكلمة النارنج فارسية.

(١٢) مروج الذهب. ٢ / ٤٣٨ ـ ٤٣٩.

(١٣) أحسن التقاسيم ٧٠.

٢ ـ ديوان الماء :

ذكرنا أن الدولة العباسية اعتنت بعمليات الري فنظمتها على طريق الترع والسدود، فخصصت الدولة جماعة من الموظفين أطلق عليهم اسم المهندسين للمحافظة على هذه السدود خشية تسرب الماء وبالتالي انفجارها و انبثاق الماء منها. وجعل العباسيون لماء الري ديواناً أطلقوا عليه اسم «ديوان الماء». كان يشرف عليه موظف كبير يعاونه أكثر من عشرة آلاف عامل. كذلك عنوا بإقامة السدود والمقاييس على الأنهار لمعرفة مقدار ارتفاع الماء وانخفاضها والإستئناس بذلك في فرض الضرائب.

٣ ـ الحيوانات :

اهتم المزارعون زمن الدولة العباسية بتربية الأبقار والجاموس للإستفادة من ألبانها واستعمالها في حراثة الأراضي. إلا أنهم اعتقدوا أن لحم البقر ضار بالصحة، لذلك فضلوا لحم الجاموس عليه، لكن ذلك لم يمنع من الإستفادة من ألبانهما. وذكر ابن قتيبة أن اللحم المجفف (القديد) في الشمس كان معروفاً ويقبل عليه الناس بكثرة[١٤].

٤ ـ إقطاع الأرض:

أقطع الخليفة أبو جعفر المنصور بعض أعيان دولته قطائع من الأرض ببغداد يعمرونها ويسكنونها ويحصلون على غلتها مكافأة لهم على ما قدموه من خدمات. وسرعان ما عمرت هذه القطائع واتسع نطاقها وازدحمت بالسكان. وانتشر هذا النظام في العصر العباسي الثاني حين تولى الأتراك حكم الدولة العباسية، فكانوا يقطعون الولايات على أن يؤدوا لدار الخلافة مبلغاً من المال، يحدد باتفاق خاص بين صاحب الإقطاع والحكومة. وقد أفتى الفقهاء أن يكون الخراج الذي يجمع عن الأرض المقطعة العشر[١٥] وتعود الأرض المقطعة إلى الحكومة في حالة مصادرة أصحابها أو عند تطرق الخراب إليها.

---

(١٤) ابن قتيبة. عيون الأخبار. ٣ / ٢٨١ و١٩٦ ـ ٢١٩٧. دار الكتب المصرية القاهرة ١٩٢٥ م.

(١٥) العرب والإسلام والخلافة العربية. ٢٧٨. وأبو يوسف الخراج ٢ / ٥٨.

ـ عيوب نظام الإقطاع :

لم يخل نظام الإقطاع من عيوب، ذلك أن المقطع كان يعمل دائماً على الإثراء وجمع المال، ولا يتردد في إرهاق الأهلين واثقالهم بالضرائب المختلفة، حتى يستطيع أن يؤدي إلى الحكومة ما عليه من مال الخراج ويحتفظ لنفسه بمازاد عن ذلك. في حين يعود الغبن على الأهالي الذين قلما تصل أصواتهم إلى مسامع السلطة.

ثالثاً : الصناعة :

ازدهرت الصناعة ازدهاراً كبيراً في كافة أرجاء الدولة العباسية بسبب وفرة موارد الثروة المعدنية، إذ استخرج الفضة والنحاس والرصاص من مناجم فارس وخراسان كما استخرج الحديد من مناجم قرب بيروت، في حين استخرج الملح والكبريت من شمال فارس، والقار والنفط من بلاد الكرج، والذهب من المغرب ومن بلاد النوبة والبحر الأحمر[١٦] وبقيت أفريقيا مصدراً رئيساً لتوفير الخشب والعاج وأهم الصناعات: الزجاج، والخزف والمنسوجات والفخار والصباغة والدباغة والحدادة والأحذية الخ . .

١ ـ الزجاج والخزف :

وراجت صناعة الزجاج والخزف في بلاد الشام بصفة خاصة، فأنتجت نوعاً من الزجاج المنقوش بالذهب على درجة كبيرة من الإتقان، وكثر إنتاج الزجاج الملون المطلي بالميناء الذي تنتجه البلاد فتم تصديره إلى جهات كثيرة من العالم. وقد ورث المسلمون صناعة الزجاج عن الفينيقيين والسوريين والمصريين. وصنع في العراق وفارس البلور المصفى لأول مرة[١٧]. ويحتفظ اللوفر والمتحف البريطاني بتحف فاخرة من سامراء والفسطاط: من أقداح، وآنية وقناديل موشاة بألوان براقة ومغطاة بطلاء ملون بألوان الطيف أو ببلاتين معدني ذي ألوان متغيرة كقوس القزح[١٨].

---

(١٦) العرب والإسلام والخلافة العربية ٢٨٣ ـ والحضارة العربية ١١٧.

(١٧) الحضارة العربية. ١٢٢.

(١٨) الحضارة العربية ١٢٢.

٢ ـ المنسوجات:

وقامت مصانع النسيج في فارس والعراق والشام ومصر. فاشتهرت الكوفة بكوفياتها الحريرية، وامتازت دمشق بأقمشتها الحريرية التي اشتهرت باسم «الدمقس» كما امتازت مدن خراسان وفارس بصناعة البسط والستور والمنسوجات الصوفية على اختلاف أنواعها. واشتهرت بصناعة النسيج من مدن مصر دمياط ودبيق التي نسبت إليها الثياب الدبيقية(١٩) فضلاً عن تنيس التي كانت تصدر وحدها إلى العراق ما قيمته ثلاثين ألف دينار سنوياً. وكان لمصر المقام الأول في إنتاج المنسوجات الكتانية على حين كثرت صناعة القطن في أقاليم المشرق، وهذا ما جعل الثعالبي يقول: ان القطن لخراسان والكتان لمصر. وأنشأ العباسيون دوراً للطراز في أهم المدن الفارسية. واشتهرت الثياب في ذلك العصر بفضل ازدهار صناعة النسيج ومنها: الثياب العتابية المصنوعة من الحرير، المنسوبة إلى عتاب أحد أحياء بغداد، والخسرواني وهو من الحرير أيضاً وينسب إلى خسروشاه أحد ملوك الفرس، والقلموني وهو نوع من القماش ذو ألوان براقة تتلألأ إذا انكسرت عليها أشعة الشمس(٢٠) وكان يصنع في دمياط وتنيس خاصة والتستري من الحرير وينسب إلى مدينة تستر في فارس، والنصفية وهي ثياب تصنع من الحرير والقطن. وصنعت في شيراز أبراد (نوع من الثياب) عرفت بالشيرازية وفي بخارى بالثياب البخارية(٢١).

٣ ـ الورق:

واهتم العباسيون بصناعة الورق، فأنشأوا لهذه الصناعة مصانع في عدة مدن وجلبوا لها الأساتذة والصناع من مصر التي اشتهرت بصنع الورق من نبات البردى منذ القديم والذي استمر مستخدماً في صناعة الورق حتى العصر العباسي الثاني،

---

(١٩) ابن قتيبة عيون الأخبار ـ ٣ / ٢٢٣. والأصطخري. مسالك الممالك ٥٢ ـ ليدن بريل ١٩٢٧ م.

(٢٠) معجم البلدان ٢ / ٥١ و٤٧٣. والحياة الإجتماعية في مصر ـ القاهرة ٢٣٥.

(٢١) ابن حوقل ـ المسالك والممالك ٢١٣ ـ ٢١٥ و٢٢٣ و٢٦٤.

عندما حل محله الكاغد الذي انتقل من الصين إلى العالم الإسلامي في القرن الرابع الهجري. واشتهرت سمرقند بصناعة الكاغد، حتى قيل ان كواغد سمرقند عطلت قراطيس مصر ومن سمرقند انتشرت صناعة الورق إلى بغداد حيث أسس الفضل بن يحيى البرمكي سنة ١٧٨ هـ / ٧٩٤م. أول مصنع للورق[١]. وانتقلت صناعة الورق إلى أوروبا في أواخر العصور الوسطى عن طريق الشام. فأطلق عليه الأوروبيون اسم «الصحائف الدمشقية».

٤ ـ التعدين والصناعات الأخرى:

وقطعت صناعة المعادن شوطاً بعيداً من التقدم، فاشتهرت بها مصر، كما اشتهرت بغداد بالصياغة التي نبغ فيها الفرس من حيث الدقة والجمال، فكانوا يرصعون الزجاج بالجواهر، ويكتبون عليه بالذهب المجسم، ويصنعون للملوك أقداحاً تبهر الأبصار. ويجعلون على الأواني صوراً لطيور تطير وحيوانات تجري وغيرها.

وقد جعلت الدولة العباسية لكل حرفة في المدن الكبرى سوقاً خاصة، كسوق الحدادين وسوق النجارين وسوق البزازين.. الخ. ويقال انه كان في بغداد وحدها أربعة آلاف محل لصنع الزجاج، وثلاثون ألف معمل لصنع الخزف. ومهما يكن في هذا القول من مبالغة، فهو يدل على مدى نشاط الصناعة في العصر العباسي وأن ننس لا ننسى الصناعات الخفيفة الأخرى مثل استخراج العطور، فاشتهرت مدينة جور (جنوبي فارس) في صناعة ماء الورد وتصديره إلى المغرب والأندلس ومصر وبلاد الهند والصين[٢٣] أو صناعة الحصر العبادانية[٢٤] وصناعة الطواحين المائية التي اشتهرت مدينة الموصل بصناعة المطاحن المعروفة بالعربات المصنوعة من الخشب والحديد[٢٥].

---

(٢٢) الحضارة العربية. ١٢٠ و ١٨٥.

(٢٣) ابن حوقل، المسالك والممالك ٢١٣. وأحسن التقاسيم ١٣٨. وآدم متز الحضارة الإسلامية ٣٦١ ـ ٣٦٢.

(٢٤) نسبة إلى مدينة عبادان ومنها انتقلت هذه الصناعة إلى فارس ومصر. أحسن التقاسيم ١٣٨. والحضارة الإسلامية ٢ / ٣٥٨ ـ ٣٦١.

(٢٥) مسالك الممالك. ٢٧٣. أحسن التقاسيم ١٢٥. وابن حوقل المسالك والممالك. ١٤٧ ـ ١٤٨.

رابعاً: التجارة:

اتسعت رقعة الدولة العباسية إلى أن شملت أرضاً واسعة ومناطق غنية بالمعادن والصناعات النسيجية والمنتوجات الزراعية الأمر الذي أدى إلى ازدهار التجارة الداخلية لتبادل المنتوجات والسلع بين مختلف المناطق. هذا إضافة إلى أن موقع الدولة العباسية جعلها مركز تلاقي القوافل التجارية القادمة من الشرق إلى الغرب والعكس. فعبرها كانت البضائع تمر إلى الأسواق التجارية العالمية فضلاً عن البضائع التي تصدر منها أو ترد إليها من مختلف أنحاء العالم.

هذا ما جعل الدولة العباسية تهتم بالتجارة وتسعى إلى ازدهارها، فمهدت لها الطرق، وحفرت الآبار، وبنت المحطات للإستراحة على امتداد طرق القوافل، وأنشأت المنائر في الثغور البحرية. ولم تهمل توفير الأمن وحماية التجار ومتاجرهم بالضرب بشدة على أيدي العابثين وقطاع الطرق واللصوص، وبنوا الأساطيل البحرية لحماية السواحل من قراصنة البحر.

١ ـ الطرق التجارية:

كانت الطرق التجارية الأساسية بين الشرق والغرب تمر كلها تقريباً بأراضي الدولة العباسية منها:

١ ـ طريق البحر الأحمر والقلزم ومنها تحمل البضائع إلى القاهرة حيث تحمل في النيل إلى الإسكندرية.

٢ ـ طريق المشرق فبغداد فإنطاكية على البحر المتوسط.

٣ ـ طريق الشمال مروراً ببلاد الروس فبحر قزوين ثم مرو وسمرقند ومنها إلى الصين.

٤ ـ الطريق البري عبر شمال أفريقية فمصر والعراق وفارس، ومنها إلى الهند والصين.

٢ ـ السلع والعلاقات التجارية:

سيطر اليهود على التجارة بين الشرق والغرب فعرفوا للمسلمين باسم «اليهود

الراذانية» لأنهم وافدون من حوض نهر الرون، هذا في الوقت الذي لم يهمل العرب أمر التجارة فأسهموا فيها إسهاماً وافراً، وقاموا بأوسع نشاط بحري حتى وصلوا عن طريق البحر إلى الهند والصين فكانت لهم جاليات في كثير من مدن جنوب وشرق آسيا، مما أوصل الإسلام إلى تلك الجهات. وقد جلب العرب التوابل والعطور والحرير من الهند والصين. وانتظمت العلاقات التجارية بين بلاد اليمن والحجاز والحبشة ومصر وآسيا الشرقية. كما كان زمرد الهند ينقل إلى الغرب عن طريق عدن ومكة، وكان أمراء الشرق الأقصى يطلبون العاج وسن الفيل من الحبشة بواسطة التجار العرب، فصارت عدن سوقاً كبيرة لحاصلات الشرق. ثم ما لبثت بعض المدن العربية أن ذاعت شهرتها التجارية كبغداد والبصرة[٢٦] والإسكندرية.

٣ ـ المراكز التجارية:

فكر الخليفة هرون الرشيد في شق قناة تصل ما بين البحرين الأحمر والمتوسط إلا أن البعض أخافه من أن الروم قد يسلكون هذه القناة التي توصلهم إلى الحرمين في الحجاز مما يمكنهم من طعن المسلمين في مقدساتهم وقطع طريق الحج فعدل عنها. أما الخليفة المعتصم فقد حصن إنطاكية على البحر المتوسط حتى غدت من أهم المراكز التجارية ببلاد الشام. هذا فضلاً إلى الفرما والقلزم والإسكندرية ودمشق حيث شهدت جميعها نشاطاً تجارياً واسعاً. أما بغداد فقد صارت أكبر الأسواق العالمية التجارية، تتحدد أثمان كثيرة من السلع فيها[٢٧] وزاد من أهميتها كونها حاضرة الخلافة العباسية وملتقى كثير من الطرق التجارية.

٤ ـ الأسواق التجارية والعملات:

اعتاد المسلمون على إقامة الأسواق في أوقات معينة بالمدن التجارية الهامة. ومن المدن التي اشتهرت بأسواقها في ذلك العصر العباسي بغداد والبصرة. وجرى التعامل غالباً في هذه الأسواق بالعملة الذهبية وهي الدينار.

---

(٢٦) المسالك والممالك .١٦١ ـ والمقدسي ـ أحسن التقاسيم. ١٣٨.

(٢٧) الحضارة العباسية ٨١.

واستخدم المسلمون أيضاً الشيكات، وعنهم أخذت أوروبا استخدام الشيكات فيما بعد. وإلى ذلك العصر أيضاً ترجع نشأة المصارف لحفظ الأموال وتيسير المعاملات التجارية فازدهرت الحياة الإقتصادية وانتعشت الأمر الذي أدى إلى تحسين الأوضاع المعيشية وبالتالي الحياة الإجتماعية. وقد شاع التعامل بالدرهم الفضي في عهد المنصور، الذي يساوي ٢٥ فلساً برونزياً. ثم أخذ الدينار المغربي يغزو أسواق الخلافة العباسية فيتم التعامل به جنباً إلى جنب مع دراهم الشرق[٢٨] حتى نهاية القرن التاسع الميلادي إذ توحدت العملة وأصبحت وحدتها الأساسية الدينار الذي كانت أسعاره في ذلك الزمان خاضعة لتقلبات خطيرة، إذ يرتفع سعر الدينار كل عام في موسم الحج. على أن التلاعب في عيار الذهب لجأت إليه حكومات العصور العباسية محاولة منها التخلص من الأزمات المالية[٢٩]. وأخيراً كان الدينار يساوي ١٤ درهماً. والدرهم يساوي ٦ دوانق والدانق ١٢ قيراطاً.

---

(٢٨) M. Lombard. L'islam dans sa première grandeur. P. 116 — 117.

(٢٩) الحضارة العربية ١٣٦.



الفصل السابع عشر

الحياة الاجتماعية

أظهر ازدهار ورواج الحياة الإقتصادية في الدولة العباسية أثره على الحياة الإجتماعية. فظهر ذلك جلياً في التقاء كثير من الأجناس والعناصر والطوائف الدينية وغير الدينية في العراق قلب الدولة. وهذا الخليط البشري الكبير، ذو الدماء واللغات والعادات والتقاليد والآراء والمذاهب المتعددة، أكسب الدولة العباسية لوناً خاصاً من الحياة الإقتصادية التي تلتقي حيناً وتتنافر أحياناً، كما يظهر من الصورة التي نحاول إظهارها فيما يأتي:

١ ـ عناصر السكان:

أ ـ العنصر الفارسي:

تميز العصر العباسي الأول بطغيان العنصر الفارسي في المجتمع لقيام الخلافة على أكتاف الفرس. ولم يلبث هؤلاء أن تركوا بصماتهم واضحة في هذا المجتمع وبخاصة ما يتعلق بمظاهر الترف والثراء مثل بناء القصور وتعدد الأزياء وظهور ألوان فارسية جديدة من الأطعمة. هذا إضافة إلى مجالس اللهو والغناء والشراب التي بالغ فيها بعض الخلفاء العباسيين في العصر الأول تقليداً للعادات الفارسية. وظهر واضحاً التأثير الفارسي أيضاً في ملابس الرجال كاستعمال القلانس والأقبية والسراويل والجوارب[1]، بل تعدى ذلك إلى أزياء النساء،

---

(١) الجاحظ. البيان والتبيين. ٣/ ٣٥٤. والمقدسي أحسن التقاسيم ٧. ليدن بريل، ١٨٧٧ م.

فأكثرن من استعمال الحلي والمجوهرات والأحزمة. وذهب العباسيون إلى أبعد من ذلك بمشاركتهم الفرس في أعيادهم وخاصة عيدي النوروز والمهرجان.

ب ـ العنصر التركي:

غلب العنصر التركي على المجتمع العباسي بعدما تكاثر عددهم منذ بداءة خلافة المعتصم بالله (٢١٨ ـ ٢٢٧ هـ/٨٣٣ ـ ٨٤٢ م) وبفضل ما عرف عنهم من شجاعة وقوة بدنية، استطاعوا التغلب على بقية عناصر المجتمع العباسي وعاثوا فيها فساداً بمصادرة أموال الناس وإشاعة الفوضى بينهم بتراكضهم وهم على ظهور الدواب في شوارع بغداد وطرقها المكتظة بالناس، فيصدمونهم وتقع المشاجرات الدموية أحياناً[٢]. ولم يسلم المجتمع العباسي في العصر الثاني من أثر العنصر التركي الأنثوي إذ ازداد عدد الجواري التركيات اللاتي امتلأت بهن قصور الخلفاء والأمراء ورجال الدولة. الأمر الذي أدى إلى ترك بصماتهم واضحة في فن التجميل وابتكار الأزياء والتأنق في الملبس والمأكل والمشرب. هذا إضافة إلى ما اشتهرت به الجواري التركيات من جمال مع بياض اللون وحلاوة العيون التي أكثر من وصفها الكتاب المعاصرون.

جـ ـ العنصر العربي:

لم يقض طغيان النفوذين الفارسي والتركي على أثر العنصر العربي في المجتمع العباسي. ولم يفقد العنصر العربي كثيراً من امتيازاته لانتشار القبائل العربية في مختلف أنحاء الدولة، فضلاً عن القبائل التي بدأت تهاجر إلى العراق في القرن الرابع الهجري. ومن هؤلاء فريق من البدو الذين تركوا أثراً سيئاً في الحياة الإجتماعية لنشرهم الإضطرابات والإعتداء على المدن والقرى ونهبها إلى جانب تمسكهم بروح العصبية القبلية بكل ما فيها من المساوىء في هذا الوقت كان العرب المتحضرون أمثال بني حمدان في الموصل وحلب فكانوا عنصراً طيباً من عناصر الإستقرار الإجتماعي في الدولة، وأسهموا إلى حد كبير في تنمية النشاط الحضاري والعمراني.

(٢) مروج الذهب ٤ / ٣٥٠ ـ ٣٥١.

وسواء أكان العرب ـ بدوا أو متحضرين ـ فإن تأثيرهم كان قوياً في المجتمع العباسي بوقوفهم موقفاً عدائياً من الزندقة، ومحافظتهم على التقاليد العربية الإسلامية. وكان لوقوف المرأة العربية موقفاً مشرفاً بالمحافظة على كيانها وشرفها وعدم الإنجرار وراء الشهوات والتبذل كالجواري الفارسيات والتركيات. وهذا الموقف العربي أدى إلى الحد من تيار الفساد والتدهور الإجتماعي في العصر العباسي.

٢ ـ الطوائف الدينية:

أ ـ المسلمون:

تعددت الطوائف الدينية في المجتمع الإسلامي ومنها: المسلمون، أهل الذمة، المجوس وغيرهم... لكن الدولة بوصفها دولة إسلامية وغاية الفتوح كانت نشر الإسلام وتعاليمه، فإن الغالبية العدديه والسيادة الإجتماعية كانت للمسلمين. وعلى هذا الأساس كانت أداب الإسلام ومثله وتقاليده هي المهيمنة على المجتمع العباسي بوجه عام.

وبقيت في هذا المجتمع لآل البيت المكانة الخاصة فيه، لأن الدعوة العباسية قد قامت في البداءة على أساس الدعوة لآل البيت، لذلك أطلق عليهم اسم الأشراف الذين شكلوا طبقة مرموقة شملت بني هاشم من العباسيين والعلويين، لكن العباسيين كانت لهم المكانة الأولى بوصفهم حكام الدولة فاحتفظوا لأنفسهم بامتيازات لم يشاركهم فيها أحد، في حين ضعف العلويون لوقوفهم الموقف العدائي من العباسيين فتعرضوا إلى ضربات قاسية على أيديهم. واستمر نقيب الأشراف يرعى شؤون بني هاشم من العباسيين والعلويين يعاقب كل من يخرج منهم عن حدود اللياقة إلى نهاية القرن الرابع الهجري إذ أصبح لكل من العلويين نقيب وللعباسيين نقيب أيضاً وكانت وظيفة النقيب ترسم بتقليد من الخليفة، على أن يجوز الجمع بين وظيفة النقابة ووظيفة القضاء أو غيرها.

ثم تفاعلت الخلافات المذهبية بين المسلمين العرب فانقسموا إلى شيعة وسنة، وتأججت نار الحرب القديمة بينهما ـ الخلاف بين العلويين والأمويين ـ حتى إنه صار لكل فريق منهم أعياده وتقاليده، فبالغ فريق في احياء تلك الأعياد والتقاليد

تعصباً لمذهبة أو نكاية في الفريق الآخر، الأمر الذي أضعف من تماسك المجتمع الإسلامي في العصر العباسي.

وإذا كانت الخلافة العباسية قد تأججت فيها نار الخلافات المذهبية بين المسلمين العرب، فإنها عرفت التفرقة بين المسلمين العرب والمسلمين من غير العرب (الموالي) فبقي التباعد بينهما على أشده حتى عهد المأمون إذ لم يحق للموالي قبل خلافة المأمون الإندماج بالعرب في الإحتفالات العامة(٣).

ب ـ أهل الذمة:

وهم أهل الكتاب من اليهود والمسيحيين الذين استطاعوا الوصول إلى بعض وظائف الدولة الكتابية إلى جانب عمل البعض منهم كأطباء وتجار وصيارفة ومهندسين وغير ذلك. ولم تتدخل الدولة في حياتهم الخاصة وإن تدخلت أحياناً في حياتهم الدينية فقد كان تدخلها محدوداً وفي ظروف خاصة ومعينة كما حدث في عهد المتوكل وعهد المقتدر. فقد أمر المتوكل بهدم بعض الكنائس المنشأة بعد الإسلام. ونهاهم عن الوظيفة والأعمال العامة وعن إظهار شعائرهم الدينية كالصلبان وغيرها، وجعل على أبوابهم صور شياطين من خشب. وفرض عليهم أن يرتدوا الطيالسة العسلية، وأن يشدوا الزنار على خصورهم، وأن يرقعوا لباس رجالهم برقعتين تخالفان لون الثوب ولون الواحدة غير لون الأخرى، ونهاهم عن التعليم في كتاتيب المسلمين وأمر بتسوية قبورهم مع الأرض لئلا تشبه قبور المسلمين(٤). وكان يقوم، برعاية شؤون أفراد كل طائفة، رئيس ديني يلي منصبه بعهد من الخليفة العباسي. وقد أعفي أفراد الطائفتين من الخدمة العسكرية مقابل دفعهم الجزية التي فرضت على الرجال القادرين على الحرب، بينما أعفي من تأديتها النساء والأطفال والشيوخ والمرضى والعاجزون والرهبان.

وقد قويت الروابط الإجتماعية بين المسلمين وأهل الذمة في العصر العباسي إذ شارك كل طرف الآخر في أعياده واحتفالاته. كمشاركة المسلمين لأهل الذمة

---

(٣) Sourdel, Dominique. Lislam médivéval. Presses universitaires de france Paris 1968

(٤) تاريخ الطبري ٩ / ١٧١ ـ ١٧٢ و١٩٦.

بعيد الشعانين. فتظهر الوصائف في أحد الشعائن بقصر الخلافة ببغداد، متزينات في ثياب جميلة، وفي أعناقهن صلبان من الذهب، وبأيديهن قلوب النخل (رأسها اللين) وأغصان الزيتون[٥] وشارك المسلمون النصارى في خميس الأسرار، وعيد الفصح وعيد العنصرة، وعيد القديس أشمونة، وعيد البربارة، وعيد الميلاد وعيد الغطاس. وجارى أهل الذمة المسلمين في ملبسهم باستثناء لباس الرأس الذي اقتصر فيه التعمم على المسلمين وكذلك الزنار كما تبادل الفريقان الهدايا والمأكولات في المناسبات الدينية وغير الدينية. إلا أن العلاقات الإجتماعية توطدت بين المسلمين وأهل الذمة بزواج المسلم من أهل الكتاب دون أن تجبر الزوجة على ترك دينها والدخول في الإسلام ولم يسمح للكتابي بالزواج من مسلمة. واقتصر التغيير في الدين على الدخول في الإسلام.

جـ ـ الصابئة والمجوس:

اشتمل المجتمع العباسي أيضاً على طائفة الصابئة أي عبدة الكواكب، وطائفة المجوس أو عبدة النار، ولما كان هؤلاء أقليات ضئيلة ليس لهم تأثير فعال في المجتمع، يعيشون في شبه عزلة يحتفظون بتعاليم عقائدهم السرية ولا يختلطون بغيرهم ولا يصاهرون مخالفيهم في الدين، فقد ناهضهم المسلمون العداء بسبب تعاليمهم المنافية للشرع والأخلاق. ومع هذا فقد سمح لهم بمباشرة أعمالهم الحرة فبرع الصابئة في بعض الصناعات كالنقش على الفضة، ونبع منهم أطباء مشهورون مثل:[٦] ثابت بن سنان، وثابت قرة واشتهر من كتابهم هلال بن الصابيء، كما اشتهر في علم الفلك أبو عبدالله البتاني واحتفلت الدولة العباسية ببعض أعياد المجوس مثلاً: المهرجان والنوروز.

٣ ـ طبقات المجتمع:

يضم المجتمع العباسي عدة طبقات، فيأتي في أعلى الهرم السكاني الحكام ثم يليهم العلماء والتجار وأخيراً العامة.

---

(٥) الأغاني ١٩ / ١٣٨.

(٦) طبقات الأطباء. ٢ / ١٩٣ و٢٠٧.

أ ـ الحكام :

وتشمل طبقة الحكام الخلفاء والوزراء والقواد إلى جانب أهل الخلفاء ورجال الحاشية. وقد سبقت الإشارة إليهم في كلامنا على نظم الحكم.

ب ـ العلماء :

تبوأ العلماء مكانة مرموقة في المجتمع العباسي. سواء لدى الخلفاء ورجال الدولة أو لدى التجار والعامة. فقد تميز العصر العباسي بتشجيع العلم والعلماء والنهوض بالعلوم والآداب فيروى عن أبي معاوية العالم «الضرير» أنه قال: أكلت مع هرون الرشيد ـ أمير المؤمنين ـ طعاماً يوماً من الأيام، فصب على يدي رجل لا أعرفه فقال هرون الرشيد: يا أبا معاوية تدري من صب على يدك؟ قلت لا قال: أنا، قلت أنت يا أمير المؤمنين؟ قال: نعم إجلالاً للعلم(٧). فعاش غالبية العلماء في العصر العباسي في رغد من العيش، وتميزوا في المجتمع بزيهم ومظهرهم الخاص. وكان لهم تأثير كبير في المجتمع بما بثوه من مثل إجتماعية وخلقية ودينية وبسبب تصديهم للمنكر ومقاومتهم للإنحرافات الإجتماعية التي كانت تظهر من وقت لآخر. وقد بلغ ببعضهم التهاون والإستهتار إلى درجة انتقاد تصرفات الحكام، وعملوا على تحريض العامة ضد تصرفات الحكام الأمر الذي كان له أثره في الأوضاع العامة للدولة العباسية.

جـ ـ التجار :

يأتي في المرتبة الثانية بعد العلماء التجار الذين جمعوا ثروات كبيرة بسبب ازدهار الدولة العباسية وانتعاش عمرانها. فكانت منهم فئة عاشت في المدن الكبرى اقتصر عمل أفرادها على التعامل بالسلع الثمينة كأنواع الرقيق الممتاز والمجوهرات... وارتبط عمل هذا الفريق من التجار أيضاً بقصر الخلافة والوزراء والقواد أو رجال الدولة ارتباطاً مباشراً(٨) فجمعوا الثروات الكبيرة التي استثارت مطامع الحكام فيهم فتعرضوا للمصادرات في العصر العباسي أكثر من مرة.

---

(٧) تاريخ بغداد. ١٤ / ٨.

(٨) D. Sourdel. L'islam médiéval. P. 186 — 188.

اما صغار التجار والباعة فكان اتصالهم أقوى بعامة الشعب، وظلوا من ناحية وضعهم الإجتماعي أقرب إلى العامة منهم إلى الفئة الممتازة في الدولة. وكانت أحياناً كثيرة ثورة بعض التجار الكبيرة سبباً في نزوع أصحابها إلى التحلل من أداب المجتمع وتقاليده، ويحيون حياة فيها قدر كبير من الإستهتار والمجون.

د ـ الحرفيون والصناع:

يؤلف الحرفيون والصناع فئة نشطة في المجتمع العباسي على اختلاف عناصرهم وطوائفهم، لكن هذا لم يمنع من تكتل أفراد كل صنعة أو حرفة في سبيل تنظيم مصالحهم المشتركة من ناحية والدفاع عن تلك المصالح من ناحية أخرى. عاش معظم هؤلاء معيشة متوسطة في المدن، لا هم بالأغنياء الموسرين، ولا هم بالفقراء المعدمين. ومن ضاقت به الحال أحياناً ساهم بدور فعال في الحركات التي قامت ضد الحكومة أملاً في تحسين أوضاعهم.

هـ ـ الغوغاء والعامة:

اكتظت المدن في العصر العباسي، وخاصة بغداد ـ بجموع من الغوغاء من أجناس وأديان مختلفة. أطلق على هؤلاء اسم **العامة**. ونظراً لكثرة عددهم فقد كانوا مصدر فساد واضطراب في المجتمع مما حدا بالحكومة إلى تملقهم أحياناً وتحسن إليهم اتقاء لشرهم. وظهر الشطار والعيارون من طبقة العامة الذين تميزوا بحركة ثورية ضد الحكام استطاعوا إنشاء تنظيم عسكري يخضع لقيادة موحدة وتنظيم مدني يرعى أمورهم الخاصة. ولكن سرعان ما احترف بعض أفراد هذه الجماعة السرقة فكانوا مصدراً للفوضى في الدولة وشاركوا في الحركات الثورية ضد الخلفاء والحكام. وعندما تتردى الأحوال، وترتفع الأسعار وتقل الأقوات حتى الخبز ينـدر وجـوده فكان النـاس يلجـؤون إلى أكـل الموتى والحشيش والجيف وروث الحمير عدا عن الذين يموتون بسبب المرض(٩).

في الوقت الذي كثر فيه الشـطار والعيارون في المـدن، انتشرت جمـوع الفلاحين والرعاة في الأرياف والبادية. وبالرغم من عناية العباسيين بأمور الزراعة

---

(٩) تجارب الأمم. ٢ / ٩٥ و١٦٨.

والرفق في جمع الخراج وتحرير الفلاحين، من القيود التي تكبلهم، فقد ظل الفلاح في ذلك المجتمع يحيا حياة ذليلة، ويعيش في وضع اجتماعي تعيس، كان الفلاح فيه أقرب إلى وضع أقنان الأرض أو العبيد، منهم إلى أوضاع الفلاحين الأحرار. أدى هذا الوضع بالفلاحين إلى القيام بالثورة حيناً واعتناق بعض المذاهب الخارجية أحياناً أخرى.

٤ ـ حياة القصور:

أ ـ قصور الخلفاء:

اتجه كثير من الخلفاء العباسيين ـ تحت تأثير النفوذ الفارسي من جهة والثروة الطائلة التي رأوا أنفسهم غارقين فيها من جهة أخرى ـ نحو بناء القصور العظيمة، وتأثيثها بفاخر الأثاث والرياش. ولم يلبث أن حذا الوزراء والأمراء والقادة وكبار رجال الدولة حذو الخلفاء، حتى أصبحت القصور سمة من سمات العصر العباسي البارزة. وإن نزع بعض الخلفاء نحو التدين والخير، ومالوا إلى حياة البساطة، ومن هؤلاء المهتدي والمتقي فإن الغالبية نزعت إلى حياة الترف، حتى أصبحت قصور الخلفاء العباسيين في بغداد محور كثير من القصص الذي امتزجت فيه الحقيقة بالخيال. هذا ويعد الخليفة المهدي أول الخلفاء الذين بدأوا بحياة الترف والإسراف الواسع(١٠) فبدأ الخلفاء باستكثار الخدم في قصورهم فكان أول من قرب الخدم، واستكثر منهم الأمين بن الرشيد حتى وصلت أعدادهم إلى ١١ ألف خادم من الروم والسودان(١١) في عهد المقتدر بالله.

وما إن صارت سامراء حاضرة الخلافة العباسية في عهد المعتصم بالله، حتى استأنف الخلفاء العباسيون فيها بناء القصور، فقد بنى الخليفة المتوكل وحده تسعة عشر قصراً في سامراء، وشق الترع والقنوات لتصل المياه إلى قصره وبساتينه وحدائقه. وصار يجلس وسط منشآته الضخمة التي أقامها لنفسه في حاضرته ويقول: «علمت الآن أني ملك». دون أن يدري أنه سيقتل بعد تسعة

---

(١٠) تاريخ الطبري ٨ / ١٥٦ ـ ١٧٢.

(١١) الفخري في الأداب السلطانية ٢٣٤. وتاريخ التمدن الإسلامي. ٤ / ١٨٢ ـ ١٨٤.

أشهر من تصريحه بهذه العبارة. ولقد أفاضت المصادر التاريخية من وصف هذه القصور العباسية، وما كان فيها من برك مزينة بالفضة والذهب والجواهر، وجدران محلاة بالفسيفساء والرخام[١٢] وأسرة من الذهب وستور من الديباج[١٣] وبسط فاخرة ذات ألوان ونقوش جذابة. إن دلّ هذا على شيء إنما يدل على مدى ما بلغه بعض الخلفاء العباسيين من ترف ونعيم.

ب ـ قصور الأمراء والقادة:

حذا الوزراء والأمراء والقواد حذو الخلفاء في بناء القصور وتزيينها بأروع الأثاث والرياش، وقد أسهبت المصادر التاريخية أيضاً في وصف تلك القصور وخاصة قصر معز الدولة بن بويه وما كان يحتويه من أثاث ورياش وما كان عليه من فخامة وترف.

جـ ـ حياة البذخ داخل القصور:

عاش الخلفاء العباسيون في قصورهم عيشة تتصف بالبذخ والترف لارتدائهم أفخر الملابس المصنوعة من الأقمشة الموشاة بالذهب والفضة والمرصعة بالجواهر، ولما كان يجري فيها من نشاط واحتفالات في المناسبات السعيدة وما كان يقام من مجالس اللهو والغناء والموسيقى... الخ.

ـ فالنساء داخل القصور كن تفنَّن في اختيار الأزياء الثمينة ذات الألوان المتباينة المحلاة بخيوط الذهب والجواهر، وعلى رؤوسهن العصائب المرصعة بالدر والياقوت والأحجار الكريمة، مع التزين بالقلائد والأكاليل والتيجان والمناطق أو الخلاخل الثمينة.

ـ أما في حفلات الزواج والختان التي كانت تجري في العصور العباسية من حين إلى آخر وفي المناسبات السعيدة الأخرى، فقد تمد موانيء مملوءة من الذهب الخالص مرصعة بأصناف الجواهر، والفراشون يأتون بزنابيل مملوءة

---

(١٢) حسن إبراهيم حسن. تاريخ الإسلام السياسي ٣ / ٤٣٤ ـ ومروج الذهب ٥ / ٦.

(١٣) ابن قتيبة. عيون الأخبار ١ / ٣١٢.

بـدراهم ودنانيـر ويصبونهـا بين أيدي المـدعوين وهم يصيحـون[١٤]: «ان أمير المؤمنين يقول لكم: ليأخذ من شاء، ما شاء «ومن الأمثلة على ذلك زواج بوارن، وزواج أسماء بنت خمارويه بن أحمد بن طولون من الخليفة العباسي المعتضـد الـذي قصد من وراء هـذا الزواج أضعـاف حـكم (خمـارويـه) مصـر وإرهـاق خزينته[١٥]. كما أن زواج أميـر الأمراء محمد بن رائق قد كلفه خمسة عشر ألفاً من الدنانير.

وكان بقصر الوزير علي بن الفرات مطبخـان: مطبـخ للخاصـة، ومطبـخ للعامة، وهذا الأخير كانت الأطعمة تحضر فيه للمقيمين بالدار من الكتاب والبوابين والمـوظفين وغيرهم. وكـان في القصر خبـازون يخبـزون الخبـز ليـلاً ونهـاراً، والحلوانيين يعملون الحلوى باستمرار. ويذبح في كل يوم تسعون رأساً من الماعز وثلاثون جدياً إضافة إلى عدد كبير من الدجاج.

ـ وتعددت **المجالس** في القصور كما ذكـرنا في العصـر العباسي ومنهـا: **مجالس الغناء والطرب والموسيقى، ومجالس القصاص ومجالس الوعاظ**. وقد تطورت الموسيقى وكـذلك فن الغنـاء في مجالس الـطرب والغناء نتيجـة لتأثـر العباسيين بالفرس والروم من جهة ولانتشار الجواري في المجتمع العبـاسي من جهة أخرى، ولتقدير الخلفاء للمغنين وتشجيعهم بالمنح والهدايا من جهة ثالثة. واشتهر من المغنين في ذلك العصر إبراهيم الموصللي وإسحق ومخارق، وزنام الزامر وعريب، أما الجـواري اللاتي اشتهـرن بالعـزف على الآلات الموسيقيـة فعددهن كبير. نذكر منهن على سبيل المثال لا الحصر شاجية جارية عبدالله بن طاهر، وعبيدة الطنبورية.

وتعقد أحياناً كثيرة مجالس الطرب والغناء في غير المناسبات التي ذكرتها قبلاً، فهي تعقد بمناسبة الإحتفال بتولية خليفة جديد أو عندما يكون الخليفة أو

---

(١٤) مروج الذهب. ٤ / ٣٢٧. والطبري ٨ / ٦٠٧ ـ ٦٠٨، وتاريخ العرب ٣٦٩.

(١٥) وفيات الأعيان. ٢ / ٢٤٩ ـ ٢٥٠، والنجوم الزاهرة، ٣ / ٥٣ ـ ٦١ ـ ٦٣. وذكر أبو المحاسن بن تغري بردى في النجوم الزاهرة أن اسم أسماء وبت خمارويه|«قطر الندى».

الأمير راغباً في الترفيه عن نفسه، وربما أقام الخليفة أكثر من مجلس في ليلة واحدة كما كان يفعل الخليفة الواثق. وفي هذه المجالس كان يجتمع المغنون والموسيقيون والندماء والشعراء فيغنون في حضرة الخليفة من خلف الستارة ويطرب الجميع فيبدأ الخليفة بتوزيع آلاف الدنانير على الجواري المغنيات والمغنين إضافة إلى الشعراء. ولم تقتصر هذه الحفلات على قصور الخلفاء إذ تعدتها إلى قصور الأمراء من الوزراء تشبهاً بالخلفاء، وقد تدعو الطبقة الراقية الجواري المغنيات إلى بيوت الحريم لإحياء حفلات غنائية نسائية. وانفرد الأمين بتعلقه بالخصيان فطلبهم من أماكن مختلفة وجعلهم لخلوته في ليله ونهاره وقوام طعامه وشرابه، وأمره ونهيه، ورفض النساء الحرائر والإماء حتى قال أبو نواس: (١٦).

أحمدوا الله جميعاً ... يا جميع المسلمينا
ثم قولوا، لا تملوا ... ربنا اتق الأمينا
صيّر الخصيان حتى ... صير التغنين دينا
فافتدى الناس جميعاً ... بأمير المؤمنين

ولم يتورع الأمين عن المجون والسكر، وكذلك المتوكل على الله الذي وصفه المسعودي بأنه «سكر سكراً شديداً»(١٧) وإن المعتضد كان مشغوفاً بالطرب، والغالب عليه المعاقرة ومحبة أنواع اللهو والملاهي(١٨).

وتقترن عادة مجالس الغناء والطرب بالشراب، وإن انفردت أحياناً **مجالس خاصة بالشراب** تنفق عليها الأموال الطائلة، ويحضرها الندماء وهم يتناقشون حول الندامة والشراب وأنواعه.

ولم تهمل **حفلات الرقص**، فقد كان لها نصيب في حفلات الخلفاء والأمراء إذا أقيمت الحفلات الراقصة في مناسبة الأفراح، فتتزين الراقصات

(١٦) تاريخ الطبري ٨ / ٥٠٨ و٥١٩. والحضارة الإسلامية ٢ / ١٥٧ ـ ١٥٨، وأبو النواس الحسن بن هانىء (٧٦٢ ـ ٨١٣م) الديوان.
(١٧) مروج الذهب ٥ / ١٣٦
(١٨) مروج الذهب ٥ / ٣٧.

بالثياب المزركشة ويحملن الزهور والرياحين، إلا أن نصيب الغناء كان أوفر من نصيب الرقص في الإنتشار والأهمية زمن الدولة العباسية ولم يهمل العباسيون أمر الصيد. . .

وأخيراً هناك نوع آخر من المجالس هو **مجالس القصاص** التي كانت عل نـوعين: عامة وخاصة. فالمجالس العامة كانت تصطبغ بصبغة دينية هادفة إرشاد الناس لاتباع الطريق القويم بتذكيرهم بآيات الله وأخبار السلف. بينما المجالس الخاصة كان قد استحدثها معاوية بن أبي سفيان، فيقف فيها القاضي بعد صلاة الصبح ويذكر الله ويصلي على النبي ثم يبدأ بالدعاء للخليفة ولأهل بيته وحاشيته وجنوده ولكن هذه الصبغة الدينيـة لم تستمر طويلاً مع القصاص لأنهم انحرفوا عن جانبها الديني إلى القصص الخرافي آملاً في تحقيق المكاسب المادية. فاستطاعوا أن يستميلوا نسبة كبيرة من العامة للمستمعين رجالاً ونساءً على حد سواء. وصارت هذه المجالس تعقد في أماكن مختلفة تارة في المسجد وطوراً على الطرقات أو في الأسواق، وتارة أخرى في المقابـر وهم يسردون أخبـارهم الكاذبـة تبعاً لمخيلة القصاص، وربما أنشدوا الأشعار الغزلية أو الماجنة ولما كانت أيضاً أقوال هؤلاء القصاص لا تخلو أحياناً كثيرة من نـزعة مـاجنة فقـد ثار ضـدهم بعض الكتاب والعلماء ونادوا بوقف نشاطهم، فأمر الخليفة المعتضد العباسي بمنع القصاص من الجلوس في المساجد والطرقات. ثم شدد عضد الـدولة سنـة ٣٦٧ هـ في منع القصاصين من الظهور بالمساجد وغيرها من الأماكن العامة. وفي عهد الخليفـة القادر بالله أمر هو أيضاً سنة ٤٠٨ هـ بضرب القصاص واتخذ إجراءات مشـددة للقضاء عليهم لكن مجالس الذكر سرعان ما أخذت تنافس مجالس القصاص في القرن الرابع الهجري لأن غالبية الذين يحضرون تلك المجالس كانـوا من أهل التقى والإصلاح الذين انصرفوا عن مجالس القصاص بعد أن أحسوا بما فيها من انحرافات.

وعرف المجتمع العباسي أيضاً مجالس الوعاظ، وهذه كـانت ذات صبغة دينية يشرح فيها الواعظ المسائل الشرعية، ويجيب على تساؤلات الحاضـرين. وهذه المجالس كانت إما خاصة يجلس فيها الواعظ مع نفر قليل من الناس، وإما

عامة يحضرها من يشاء من الناس. إلا أن هذه المجالس التي كانت في البداءة ذات رسالة توجيه الناس نحو الخير والرشاد، لم تلبث في القرنين الثالث والرابع بعد الهجرة أن تحولت إلى أداة للكسب، فانتشرت الخرافات والبدع على السنة الوعاظ، وانحط مستوى الوعاظ، وانصرفوا عن الجلوس في المساجد إلى الجلوس بالمقابر وبعض المحلات الهامة. ولم يكتف بعض الوعاظ بهذا القدر، بل عمدوا إلى إثارة الفتن بين السنة والشيعة، أو بين الحنابلة والشافعية، ثم أخذت هذه المجالس منحى سياسياً. وفي عهد القادر بالله صدرت مراسيم حددت مجال الوعظ في القول بالمعروف والنهي عن المنكر.

الفصل الثامن عشر

الحياة الفكرية والثقافية

استطاع مفكرو الإسلام أن يسهموا بسهم وافر في تراث البشرية، وأن يحفظوا خلاصة ما قدمته الحضارات السابقة من نتاج فكري، ويطوروا هذه الخلاصة على أيديهم ويضيفوا إليها من ابتكارهم الشيء الكثير، مما جعل الحضارة الإسلامية بحق أعظم حضارة عرفها العالم أجمع طوال العصور الوسطى باعتراف مفكري العالم.

وكان لانتقال حاضرة الخلافة من دمشق إلى بغداد، وفي اعتماد الخلافة العباسية منذ بدء قيامها على الفرس، الأثر الأكبر في نشاط عنصر الموالي في الجانب الحضاري مثلما كان لهم النشاط الأعظم في الحقل السياسي[1]. وفي الوقت نفسه اهتم المسلمون بالعلوم النقلية أو الشرعية. علم الحديث، التفسير، والفقه والتشريع وما يرتبط بها من علم الكلام واللغة والبيان والأدب.

أولاً: العلوم النقلية:

١ ـ الحديث:

نهى رسول الله عن كتابة الحديث حتى لا يختلط الحديث بالقرآن وهذا ما جعل عملية التدوين تتأخر إلى أن قام محمد بن مسلم بن عبدالله بن شهاب الزهري، (ت ١٢٤ هـ) بأول محاولة لتدوين الحديث، إذ انه كان يحفظ ألفين

---

(١) تاريخ الطبري ٢٨٧. وما يليها. مروج الذهب ٤ / ٢٣٣ والحضارة العباسية ٢٣ و ٢٥.

ومائتي حديث، وروى عنه كل من مالك وسفيان الثوري. ثم قام بعملية جمع الحديث الإمام مالك بن القرة (٣٠ ـ ١٣٧ هـ) في كتاب «الموطىء في المدينة»، وعبدالله بن عبد العزيز، وابن جريج في مكة، وعبد الرحمن الأوزاعي (ت ١٧٦ هـ) في بعلبك ـ الشام، وشعبان الثوري (ت ١٩١ هـ) في الكوفة، وعماد بن سلمة بن لبنة في البصرة (١٧٦ هـ)، وجميعهم عاشوا وكتبوا الحديث في القرن الثاني للهجرة.

وقد كان الهدف من جمع الحديث في مختلف الأحوال والأمصار خدمة للتشريع بتسهيل استنباط الأحكام من الأحاديث المدونة، فجاء ترتيب المجامع في القرن الثاني للهجرة حسب الموضوعات. كأن تذكر الأحاديث الواردة في موضع معين (الطهارة مثلاً) في باب واحد. ثم لجأ المهتمون بجمع الأحاديث النبوية إلى طريقة الأسانيد[٢] وتعني هذه الطريقة ترتيب الأحاديث حسب الرواة من الصحابة، فتجمع الأحاديث التي رواها صحابي واحد مهما اختلفت موضوعاتها: من صلاة أو زكاة أو ميراث.

وفي القرن الثالث للهجرة نشطت حركة جمع الحديث، ونقده بتمييز الصحيح من الغث، فوضعت أهم كتب الحديث أمثال: كتاب البخاري (ت ٢٥٦ هـ) ومسلم (ت ٢٦١ هـ) والترمذي (ت ٢٧٩ هـ) وغيرهم.

ـ التفسير:

نشأ التفسير أول ما نشأ مرتكزاً على ما روي عن النبي الكريم فيما يتعلق بالقرآن الكريم وتفسير آياته. ثم تناقل التابعون عن الصحابة عملية التفسير حتى كان منهم من قام بتفسير بعض آيات القرآن وحتى ذاكراً سبب نزولها. فأصبح بالتالي لأهل التفسير طبقة تضخمت بمرور الزمن، ومع هذا لم تتخذ التفسيرات جميعها شكلاً منظماً، إنما كانت تروي الأحداث المتابعة تفسيراً لآيات متفرقة.

---

(٢) بلغ عدد الأحاديث عند يحيى بن معين الري ٦٠٠٠٠ أما أبو حنيفة فلم يصح عنده إلا ١٧ حديثاً ومالك صح عنده ٣٠٠ حديث، والبخاري اشتمل صحيحه على ٩٢٠٠ حديث منها ٣٠٠٠ مكررة واحمد بن حبل ٥٠٠٠٠ حديث.

ولم يمض وقت كبير حتى انفصل التفسير عن الحديث وأصبح علماً قائماً بنفسه، ثم انتظمت طريقة تفسير القرآن بوضع التفسير لكل آية من القرآن أو جزء من آية، مرتبة حسب ترتيب المصحف[٣]. فتسنى بذلك ظهور مجموعة من المفسرين ضاعت معظم تفاسيرهم، ولم يصل إلينا شيء منها إلا عن طريق ابن جرير الطبري (ت ٣١٠ هـ)، وهو صاحب التفسير الكبير الذي يمتاز بتحري الدقة والأمانة.

وخالف المعتزلة التفسير المأثور للقرآن، فكانت حجتهم في ذلك أن كل تفسير للقرآن لا يعتمد على العقل والإجتهاد مرفوض من الأساس. لذلك أجهدوا أنفسهم في تفسير الآيات القرآنية تفسيراً يتفق مع أفكارهم ووجهة نظرهم. ومن أشهر العاملين في التفسير من المعتزلة، أبي بكر الأصم (ت ٢٤٠ هـ) وابن جرو الأسدي (ت ٣٨٧ هـ).

القرآن مصدر علم النحو والكلام والفقه:

اتخذ المسلمون في العصر العباسي القرآن الكريم مصدراً لكثير من العلوم التي اشتغلوا بها. فعلماء النحو اتخذوا منه مادة خصبة اعتمدوا عليها في استنباط قواعد اللغة العربية، وكذلك الفقهاء اعتمدوا عليه في آرائهم الفقهية، والمؤرخون اتخذوا من القرآن الكريم مصدراً من مصادرهم وعلماء الكلام فسروا القرآن بما يتفق ومبادئهم.

واصطبغ العصر العباسي بصبغة دينية كان لها الأثر الواضح في حقل التشريع فشملت مهمة الفقهاء ميادين واسعة امتدت إلى شؤون الري والضرائب والدواوين. . . ونتيجة لاتصال الخلفاء بالعلماء ورجال الدين وتدخل الخلفاء في كثير من المسائل المرتبطة بالدين أن ظهر الخلفاء العباسيون في صورة رجال الدين والسياسة جميعاً. وقد تمسكوا بهذه الصفة (الدينية والسياسية) بوصفهم من آل البيت وأصحاب حق مقدس في الحكم (نظرية الحق الإلهي المقدس).

(٣) أول من دوّن التفسير في الصحف مجاهد المتوفى سنة ١٠٤ هـ. وهو الذي حدد القراءات الشرعية الجائزة، وأبطل القراءات الشاذة غير الجائزة، تاريخ التمدن الإسلامي ٣ / ٧٠.

ـ المذاهب الأربعة:

ازداد عدد المشتغلين بالفقه الإسلامي نتيجة ازدياد وامتداد مساحة الدولة الإسلامية في العصر العباسي وتباعد أطرافها فتضخم ونما نمواً كبيراً الفقه الإسلامي وكان مع هذا النمو والإتساع أن اختلفت وجهات النظر بين الفقهاء الأمر الذي أدى إلى زيادة الإعتماد على القياس والإستنباط. وبالتالي أخذ الفقهاء يتناظرون في هذا المجال أينما اجتمعوا. في المساجد وفي حلقات الدرس، وفي المنازل وعند اجتماعهم للحج، فكثر الإجتهاد والمجتهدون من الفقهاء وتعددت مذاهبهم في العصر العباسي، واشتهر من هذه المذاهب أربعة:

أ ـ المذهب المالكي: (٤)

كان مالك إمام أهل الحجاز وزعيم الفقهاء الذين يأخذون بطريقة الحديث فاعتمد فيها المفسرون على مؤهلات التفسير. ورواية موروثة. وانتشر هذا المذهب في شمال أفريقية والأندلس في العصور العباسية. وتتلمذ على مالك مصريون وأفارقة ومغاربة وأندلسيون واستمع له تلامذة من البصرة وبغداد وخراسان وأهم مؤلفاته: «الموطأ».

ب ـ المذهب الحنفي: (٥)

أبو حنيفة كان إمام العراق وزعيم الفقهاء الذين يأخذون بطريقة الرأي والقياس (الإجتهاد). تولى أبو حنيفة القضاء على عهد بني أمية، لكنه رفض توليه أيام العباسيين فاضطهده المنصور ووضعه في السجن حتى توفي فيه. تتلمذ عليه عدد كبير من التلامذة اشتهر منهم: القاضي أبو يوسف المتوفى عام ١٨٢ هـ/٧٩٨ م. وأهم ما تميز به المذهب الحنفي هو حل المسائل الشرعية بروح التسامح(٦).

---

(٤) يعد إمام هذا المذهب مالك بن أنس، وهو من أمراء حمير ولد بالمدينة عام ٩٣ هـ، وتوفي ١٧٩ هـ.

(٥) أبو حنيفة نعمان بن ثابت ولد بالكوفة عام ٨٠ هـ وتوفي في بغداد عام ١٥٠ هـ.

(٦) ضحى الإسلام ٢ / ١٧٦ ـ ٢٠٦ وصبحي الصالح. النظم الإسلامية ٢٠٩ ـ ٢١٣ دار العلم للملايين بيروت ١٩٨٠ م.

جـ ـ المذهب الشافعي: (٧)

ساد المذهب الشافعي في مصر وأفريقية وهووسط بين المذهبين السابقين، بمعنى أنه كان يأخذ بطريقة أهل الحديث أحياناً، وبطريقة الرأي والقياس أحياناً أخرى. لذلك اعتبره البعض(٨) واضع علم الأصول الذي حدد له الضوابط والموازين. للشافعي مؤلفات منها: رسالة في أصول الفقه و «كتاب الأمم» وتتلمذ عليه أحمد بن حنبل.

د ـ المذهب الحنبلي: (٩)

وصاحبه أحمد بن حنيل الذي لم يأخذ بالإجتهاد لذلك كان عدد أتباعه قلائل وهو إمام أهل الحديث في عصره. سمع لأشهر العلماء في عصره وأخذ عن أكابر المحدثين وتنقل طلباً للعلم بين الكوفة والبصرة والشام واليمن ومكة والمدينة. يعد المذهب الحنبلي أكثر المذاهب المتقيدة بالسنة دفاعاً عن معتقداتها دعماً للعباسيين(١٠).

على أن أول من فسر القرآن تفسيراً أميناً هو يحيى بن زياد المشهور بالقراء ـ أمام الكوفيين ـ والذي كتب معاني القرآن(١١) وتتابع بعده المفسرون ومن أشهرهم: ابن جرير الطبري، وأبو محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي، والقرطبي ـ بالمأثور ـ اعتماد الرواية الموروثة المسلسلة عن الصحابة والتابعي ـ وأشهر المفسرون بالرأي مفسرو المعتزلة وأشهرهم الزمخشري، (١٢) والشيعة وممثلهم الطبرسي(١٣).

(٧) اما الشافعي أبو عبدالله محمد بن أدريس «أمين الله» القرشي. ولد في غزة عام ١٥٠ هـ وتوفي بمصر عام ٢٠٤ هـ ـ تتلمذ على مالك بن أنس في المدينة وعلى محمد بن الحسن الشيباني في بغداد.

(٨) النظم الإسلامية ٣٨١.

(٩) امام المذهب الحنبلي أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني ولد في بغداد عام ١٦٤ هـ وتوفي فيها عام ٢٤١ هـ

(١٠) A. Miquel. L'islam et sa civilisation. P 100 et 107.

(١١) الزركلي، خير الدين. الأعلام ٥ / ١٧٨. الطبعة الثالثة وكحالة، عمر رضا معجم المؤلفين. ١٣ / ١٩٨ منشورات مكتبة المتن بيروت ودار إحياء التراث العربي.

(١٢) تاريخ التمدن الإسلامي ٣ / ٧٢. الزركلي الأعلام ٥ / ٥٥ ومعجم المؤلفين ١٢ / ١٨٦.

(١٣) الأعلام ٥ / ٣٥٢ ومعجم المؤلفين ٨ / ٦٦ ـ ٦٧.

ولما كان أصحاب المذاهب الأربعة المشار إليهـا قد أسس كل منهم مدرسة تتبع منهجاً معيناً في الفقه الإسلامي فقد لجأ أتباع هذا المذهب أو ذاك إلى جمع الفتاوى التي تتناسب وتؤيد وجهة نظرهم الفقهية وتدوينها. الأمر الذي أدى إلى حركة تدوين واسعة في الفقه الإسلامي فمحاولة الإستنباط منها.

نستطيع القول بعد تلك الكلمة العجلى، أن العصر العباسي كان أكثر العصور الإسلامية نشاطاً في التشريع وأوفرها عدداً في الفقهاء والمجتهدين. وإن هؤلاء الفقهاء اعتمدوا على اجتهاداتهم الذاتية، وتمتعوا بقدر كبير من الحرية حتى جعلوا العرف في أسس التشريع، مستندين إلى حديث شريف «ما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن... وأن الفقهاء ـ استناداً إلى العرف ـ أخذوا هذه العادات واختاروا الصالح منها وأدخلوه في الفقه، وأخيراً أن تعدد المذاهب الفقهية في العصر العباسي يشير إلى حرية الرأي التي تميز بها هذا العصر.

٢ ـ اللغة والأدب:

كانت اللغة ممتزجة بالأدب في القرن الأول للهجرة وما قبله بحيث ان العالم بالنحو كان عالماً باللغة، وإن برز في أحدهما على حساب الآخر بعض العلماء. ولما بدأ تدوين اللغة والنحو، كان العراق أسبق الأمصار الإسلامية في ذلك أن الفضل في العراق نفسه كان للبصريين، ثم الكوفيين فالبغداديين على التوالي[١٤] كما كان من الطبيعي أن تمر عملية جمع اللغة بثلاث مراحل:

ـ الأولى:

تمت في هذه المرحلة جمع الكلمات. حيثما اتفق وتدوينها دون ترتيب.

ـ الثانية:

جمعت الكلمات المتعلقة بموضوع واحد في موضوع واحد في هذه المرحلة كما ألفت فيها كتب في موضوع واحد، فألف أبو زيد كتاباً في «المطر» وكتاباً في «اللبن» وألف الأجمعي كتاباً في «البخل والكرم» وكتاباً في «الإبل»...

(١٤) تاريخ التمدن الأسلامي ٣ / ٨٧ ـ ٨٨.

ـ أما في المرحلة الثالثة :

فقد وضع معجم يشمل كل الكلمات العربية على نمط خاص، ليرجع إليه من أراد البحث عن معنى كلمة. وكان السباق إلى وضع معجم في اللغة العربية الخليل بن أحمد (١٠٠ ـ ١٧٥ هـ) وقد عاصره كل من الأصمعي[١٥] (١٢٢ ـ ٢١٣ هـ) وأبو زيد[١٦] (ت ٢١٥ هـ) الأمر الذي يوضح بأن الثلاثة قد عاشوا معاً زمناً طويلاً. وإن المراحل الثلاث كانت أقرب إلى التداخل منها إلى أن تكون منفصلة بعضها عن بعض.

ولما لم يكن في الإمكان جمع الأدب كله لكثرته، فإنهم، عند الجمع، اختار علماء الأدب ما كان يحلو لهم من الشعر والنثر سواء، كما حدث عند جمع اللغة، ودونوه فكانت لهم المختارات الشعرية والنثرية.

٣ ـ النحو والصرف :

انكب بعض العلماء على دراسة اللغة، كما انكب الفقهاء على دراسة القرآن والأحاديث دراسة نحوية وصرفية[١٧] فكان من أبرز علماء النحو والصرف في العصر العباسي الأول[١٨] **الخليل بن أحمد** «الذي دأب على دراسة اللغة وعلومها، يخترع ويستنبط الأصول، إلى أن كان **أول من ابتكر المعاجم العربية وأول من وضع علم العروض واخترع علم الموسيقى العربية وجمع فيه أصناف النغم**. والخليل بن أحمد هو الذي عمل النحو الذي نعرفه اليوم «ومد أطنابه، وسبب علله، وفتق معانيه. . . «على حد قول الزبيري. وقد علم الخليل بن أحمد كل ذلك «لسيبويه» الذي عمل على تدوين الأمانة التي أخذها عنه.

(١٥) الزركلي الأعلام. ٤ / ٣٨٧ ـ ٣٨٨ ومعجم المؤلفين جـ ٦، ص: ١٨٦.

(١٦) الزركلي الأعلام. ٣ / ١٣٣.

(١٧) قد تقضي الأمة ـ قروناً عديدة وهي تتكلم وتخطب وتنظم الشعر قبل أن تدون قواعد النحو وتجعله علماً. تاريخ التمدن الإسلامي ٣ / ٨٤.

(١٨) إن واضع علم النحو أو مدونه فهو بالإجماع أبو الأسود الدؤلي المتوفى سنة ٦٩ هـ الذي كان من سادات التابعين وقد صوب علي بن أبي طالب وتأثر به. ابن النديم. الفهرست ٤٠. دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت ١٩٧٨ م.

ونهج في الأدب بعض من شعــراء العصر العباسي وفق مناهج جديدة في المعاني والموضوعات والأسـاليب. فاشتهـر أبو نـواس في شعر الخمـر والغزل والصيد، وأبو تمام الطائي الذي اشتهر بنـزعته الفلسفيـة والعقلية في الـشعـر، والبحتري صاحب الأوصاف البديعة والمدائـح الخالـدة، وابن الرومي صـاحب الشعر الغزير الذي اتصف بالمعاني النادرة، وأبو العتاهية صاحب قصائد الغزل والحكمة والموعظة.

وكانت وراء ارتقاء الشعوب وتطورهاوظهورمناهج جديدة في العصر العباسي أسباب عديدة منها:

١ ـ اختلاف صور الحياة وقيم الأشياء في الدولة العباسية عنها في العصور السابقة.

٢ ـ أثر الثقافة الأجنبية عامة والفارسية خاصة في الشعر والأدب العباسي.

٣ ـ انتشار الشعوبية التي عملت على الحط من شأن العرب ونقد أشعارهم.

٤ ـ تشجيع الخلفاء والوزراء وكبار رجال الدولة للشعر والشعراء.

٥ ـ الخلافات التي قامت بين الفرق كالشيعة والمعتزلة، واستعانة كل فريق بالشعر والشعراء للدفاع عن مبادئه والتغلب على خصومه.

ولم يكن حظ النثر أقل من حظ الشعر في العصر العباسي، فظهر في مجال النثر عبدالله بن المقفع الذي نقـل كثيراً من الكتب الفهلويـة إلى اللغة العـربية مثل[١٩]: كتاب كليلة ودمنة، وعبد الحميد الكاتب الذي يعد شيخ صناعة الكتابة، وابن قتيبة[٢٠] الذي نادى بالتجديد في الكتابة، والجاحظ البصري الذي اشتهر بحرية الفكر. . . وغير هؤلاء كثيرون[٢١].

---

(١٩) عبد اللطيف حمزة. ابن المقفع ٧ ـ القاهرة ١٩٣٦م.

(٢٠) وضع ابن قتيبة كتاب «أدب الكاتب» الذي يعد من أفضل الكتب في هذا الموضوع طبقات الأدباء. عبد الرحمن الأنباري ١٧٥. مصر ١٢٩٤هـ.

(٢١) أدب الكاتب لابن قتيبة، وكتاب الكامل للمبرد، والبيان والتبيين للجاحظ، والنوادر للغالي، هذه الكتب هي أهم مصادر علم الأدب عند العرب حتى الآن.

ثانياً: العلوم العقلية:

نشطت حركة الترجمة عن اليونانية والفارسية والفهلوية وغيرها من اللغات إلى العربية حتى ازدهرت هذه الحركة في العصر العباسي بفضل تشجيع الخلفاء العباسيين لها. فبدأ أبو جعفر المنصور عهده بترجمة الكتب، فنقل له حنين بن إسحق بعض كتب أبقراط وغالينوس في الطب، ونقل ابن المقفع بعض الكتب. ولقيت حركة الترجمة العناية التامة في عهد هرون الرشيد وعهد ابنه المأمون، فأرسلت البعثات إلى القسطنطينية لإحضار المصنفات الفريدة في الفلسفة والموسيقى والطب وغيرها. ولم تقتصر العناية بحركة الترجمة على الخلفاء فقط بل سمعنا عن بعض ذوي اليسار الذين أنفقوا أموالاً طائلة في استحضار الكتب، مثل أبناء موسى بن شاكر وهم محمد وأحمد والحسن الذين أنفذوا حنين بن إسحق إلى بلاد الروم فاستحضر لهم عدداً من الكتب الفريدة في الهندسة والموسيقى والنجوم وغيرها. .

١ - في الفلسفة والفلاسفة:

ازدهرت الفلسفة في العصر العباسي، واشتهر ممن تأثروا بالفلسفة اليونانية يعقوب بن إسحق الكندي، وقد تأثر بفلسفة المعتزلة وارائهم، كما تأثر بالفلسفة اليونانية وخاصة فلسفة أرسطو، واشتغل بالرياضيات وما وراء الطبيعة وكتب مؤلفات في الفلسفة والمنطق والحساب والموسيقى والنجوم والهندسة والفلك والطب والجدل والسياسة. واشتهر عمالقة آخرون إلى جانب الكندي، أمثال: أبو نصر الفارابي (ت ٣٣٩ هـ) والرئيس ابن سينا (ت ٤٢٨ هـ) والغزالي (٥٠٥ هـ). هذا على الرغم مما تعرض له الفلاسفة في بعض حلقات العصر العباسي نتيجة لاتهامهم بالزندقة.

واشتهر أيضاً في العصر العباسي بالفلسفة إخوان الصفا الذين كانت لهم نزعة شيعية متطرفة، لذلك عطف عليهم آل بويه ولاقوا كل عناية منهم. فاستطاع إخوان الصفا إتمام ما بدأه المعتزلة، وخاصة ما يتعلق بالتوفيق بين العلوم والدين وتحقيق الإنسجام بين الشريعة والفلسفة واليونانية. لذا لجأوا إلى تأويل القرآن

تأويلاً مجازياً، وأنتجوا رسائل(٢٢) تعتبر دائرة معارف ضخمة.

٢ ـ في الطب والأطباء:

تقدمت العلوم الطبية تقدماً كبيراً، الأمر الذي جعل العباسيون يعتمدون على الأطباء العراقيين والهنود بعدما توصلوا إلى تشخيص بعض الأمراض بفضل العلوم اليونانية التي أفادوا واستفادوا منها. وبخاصة حينما عمل الخلفاء العباسيون على تشجيع الأطباء وتأسيس المدارس الطبية والمستشفيات. فقد أمر أبو جعفر المنصور ببناء مستشفى للعميان ومأوى للمجاذيب وملجأ للعجزة في بغداد. كما شيد هرون الرشيد مستشفى كبير لتعلم الطب زوده بمكتبة حوت المؤلفات اليونانية والهندية والعربية وكذلك الطبية.

واشتهر ابن **بختيشوع** في الطب على أيام الرشيد والأمين والمأمون والمعتصم والواثق والمتوكل الذين كانوا يثقون به ثقة كبيرة فسمحوا له بالكشف على نسائهم ومعالجة أولادهم، كما اشتهر في عهد المعتصم والواثق **يحيى بن ماسويه**. إضافة إلى حنين بن إسحق وابنه إسحق بن حنين اللذين كانت لهما المؤلفات الكثيرة في الطب والعقاقير الطبية. وفي عهد الخلافة العباسية أشرف سنان بن ثابت على امتحان الأطباء في بغداد سمح بنهايته لثمان وستين طبيباً بمزاولة مهنة الطب شريطة أن يحتفظ كل طبيب بصورة عن الوصفة الطبية (اسم الدواء) التي يعطيها للمريض لتقديمها إلى الرئيس (النقيب) ليفحصها ويحكم بالموافقة إذا كان العلاج متفقاً مع القوانين وإلا حلت عقوبة قاسية بالطبيب خاصة إذا توفي مريض بسبب الإهمال أو الخطأ في وصف الأدوية من قبل الطبيب المعالج(٢٣).

وتقدم الطب والأطباء كان وراء تشجيع العباسيين الذين لم يهملوا بناء البيمارستانات أو المستشفيات أيضاً وأولوها عناية فائقة. كما شجعوا على كتابة المؤلفات الطبية التي تشرح أسباب الداء وتصف الدواء، فاشتهر **أبو بكر محمد**

---

(٢٢) تعرف هذه الرسائل بـ«رسائل أخوان الصفا» وهي منشورة في أربعة أجزاء.

(٢٣) طبقات الأطباء ٢٠ / ٢٠٧.

الرازي (ت ٣١١ هـ) في حقل المؤلفات الطبية بتأليفه كتابة «المنصوري» والذي أهداه إلى منصور بن نوح الساماني صاحب الدولة السامانية في بلاد ما وراء النهر فنسب إليه ـ المنصوري ـ وكذلك كتب الرازي كتاب «الحاوي» تحدث فيه عن الأمراض والصحة والجراحات والأدوية فنجح نجاحاً كبيراً في تشخيص الحميات ذات البثور كالجدري والحصبة ووصف الدواء لهما. ويجب ألا ننسى كتاب «القانون في الطب» لابن سينا الذي كان من الموسوعات الطبية والذي ظل يدرس في الجامعات الأوروبية حتى القرن الثامن عشر بعدما ترجم إلى اللغة اللاتينية.

٣ ـ في علم الفلك والفلكيون:

سيطرتأقوال المنجمين وعلم النجامة على تفكير الحكام، فلم يفعلوا شيئاً أو يقوموا بعمل هام كشن الحرب قبل أخذ رأي الفلكيين ـ شأن العرب في ذلك كشأنهم أيام الجاهلية ـ والأمثلة على ذلك كثيرة فالخليفة أبو جعفر المنصور اعتمد على أقوال المنجمين عند بنائه مدينة بغداد(٢٤). كما أخذ برأي المنجمين جوهر الصقلي مولي وقائد جيوش الفاطميين عند تأسيسه مدينة القاهرة. وهكذا لم يضع المنصور الحجر الأساسي لمدينته إلا بعد أن أشار عليه أبو سهل بن نوبخت المنجم بأن النجوم تشير إلى ازدهار هذه المدينة وطول عمرها. والشيء نفسه تكرر أيام جوهر الصقلي إذ أشار عليه المنجمون بعدم رمي ما بأيدي العمال من طين وحجارة في الأساس قبل تحرك الأجراس التي ربطت بالحبال حول السور بناء لإشارة المنجمين الذين وقفوا ينتظرون اختيار طالع حسن لذلك حتى تبقى المدينة لهم ولنسلهم من بعدهم(٢٥).

هذا التفكير في العصور الوسطى أنعش الدراسات الخاصة بالفلك والنجوم في العصر العباسي واشتهر في علم الفلك في عهد المنصور محمد بن إبراهيم الغزاري وفي عهد المأمون محمد بن موسى الخوارزمي (ت ٨٥٠ م) وكذلك موسى بن شاكر وهم: محمد وأحمد والحسن(٢٦) كما أنشأ علماء الفلك مراصد

---

(٢٤) الطبري ٧ / ٦١٤ ـ ٦١٥.

(٢٥) الخطط المقريزية ١ / ٣٦١. والنجوم الزاهرة ٤ / ٣١ ـ ٤٠، ص: ٣١.

(٢٦) زغريد هونكه. شمس العرب تسطع على الغرب. ٤٥. نقله إلى العربية فاروق بيضون وكمال دسوقي

لمشاهدة النجوم، وضبط أبعادها ومراقبة سيرها في الشماسية ببغداد، وفي جبل قاسيون المشرف على غوطة دمشق. وظهرت مجموعة من كبار العلماء الذين اشتغلوا بهذه العلوم ومنهم، أبو عبدالله محمد بن جابر البتاني الحراني الصابي (ت ٣١٩ هـ) الذي وضع الزيج الصابي وألف كتاب معرفة مطالع البروج فيما بين أرباع الفلك وظهر بعد القرن الرابع الهجري أبو الريحان البيروني (ت ٤٤٠ هـ) الذي حظي بمكانة كبيرة عند السلطان محمود الغزنوي.

ويرتبط بالعلوم الفلكية، العلوم الرياضية، التي اشتهر فيها ثابت بن قرة الحراني (٢٨٨ هـ) وسنان بن ثابت (٣٣١ هـ) اللذين تركا كثيراً من الدراسات والأبحاث في المسائل الهندسية والأعداد وغيرها. هذا إضافة إلى أعمال الخوارزمي والبتاني والخازن والبصري والبيروني، وغيرهم ممن كتبوا وابتكروا في الحساب والأعداد والهندسة وحساب المثلثات والجبر.

٤ ـ في التأريخ والمؤرخون:

شعر المسلمون منذ الأيام الأولى، لظهور الدولة الإسلامية وفتوحاتها وسيطرتها السياسية على بلاد جديدة واسعة بالحاجة إلى تدوين تاريخهم الذي بدأ في المدينة والبصرة والكوفة في العصر الراشدي ثم تلتها دمشق في العصر الأموي. ولما ظهرت بغداد في العصور العباسية استقطبت الفكر الثقافي كله إلى حد غابت معه عملية التدوين في المدينة ودمشق، وقلت في البصرة والكوفة[٢٧] فشكلت كل مدينة من هذه المدن مدرسة للكتابة التاريخية، على أن الكتابات التاريخية التي ظهرت في البداءة إنما وضعت على أساس إسلامي بحت. ذلك أن المؤرخين بدأوا بكتابة السيرة النبوية والمغازي ثم تدوين القرآن الكريم وتفسيره والحديث النبوي. ومن المؤرخين في العصر العباسي كان الواقدي (١٣٠ ـ ٢٠٧ هـ) الذي عني بكتابة المغازي والسير والتاريخ الإسلامي عامة.

= دسوقي. المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر. بيروت مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر ١٩٨١ م.

(٢٧) للمزيد من التفاصيل عن التاريخ والمؤرخين يرجى مراجعة: تاريخ التمدن الإسلامي ٣ / ٩٦ ـ ١١١ بفارس. ومن الذين كتبوا الكتب الجغرافية معتمدين على الرحلات المزوري.

فألف تاريخه الكبير «مغازي الرسول» وكتاب «الطبقات الكبير»، الذي رتبه حسب السنين. وكتب «الطبقات» و «السيرة» وكتاب «التاريخ والمغازي والمبعث» وكتاب «أزواج النبي» وكتب «فتح العراق» و «فتوح الشام» وغيرها الكثير إلا أن أهمها جميعاً «الطبقات أو التاريخ الكبير» وفيه أرخ الكثير من أحداث الإسلام حتى عهد خلافة هرون الرشيد، وقد أخذ عنه الطبري في كتابه «تاريخ الرسل والملوك» حتى سنة ١٧٩ هـ. ولكن لم يبق لنا من كتبه إلا كتاب « المغازي» واليعقوبي، (ت ٢٨٤ هـ) والمسعودي (ت ٣٤٦ هـ) وابن الدينوري (ت ٢٧٠ هـ) الذين كتبوا في تاريخ الدول والعهود.

وكتب التاريخ حسب الموضوعات، كما كتب حسب الطبقات بصرف النظر عن السنين. إذ ارتبط التاريخ حسب الطبقات بعلم الحديث والعلوم الدينية الأخرى، فجاءت «طبقات ابن سعد» ترجمات لشخصيات محدثة هامة و «طبقات الشافعية» للشعراني تراجم لشخصيات فقهية، وطبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة، وطبقات الشعراء لابن المعتز وغيرها...

واشتهر في علم الأنساب محمد بن السائب الكلبي (ت ١٤٦ هـ) وابنه هشام بن محمد بن السائب الكلبي (ت ٢٠٤ هـ) ومصعب الزبيري (ت ٢٣٣ هـ) وتلميذه وابن أخيه أبو عبدالله الزبيري بكار بن مصعب القرشي (ت ٢٥٦ هـ) الذي كتب «نسب القرشيين» في مجلدين ثم أحمد بن يحيى البلاذري (ت ٢٧٩ هـ) الذي ترك لنا كتابه الكبير (أنساب الأشراف) الذي شاءه سجلاً عاماً للتاريخ الإسلامي، انطلاقاً من دراسة شخصيات الأشراف عن طريق أنسابهم ويبدأ الكتاب بالحديث عن الرسول أفضل الأشراف العرب.

٥ ـ في الجغرافيا:

أدى اتساع رقعة الدولة العباسية وانتشار البريد في سائر أقاليم الدولة، وازدهار التجارة في العصر العباسي الأول إلى الإهتمام بالطرق وباخبار البلاد والعباد ولا سيما النائية منها. فكثرت الأسفار وازداد عدد الرحالة حتى وصلت رحلات المسلمين في عهد الرشيد إلى الهند وسيلان والصين، فضلاً عن الرحلات التي ارتبطت بزيارات الحج إلى مكة والمدينة.

ظهر من الجغرافيين في العصر العباسي الأول ابن خرداذية صاحب كتاب المسالك والممالك الذي يعتبر أقدم الكتب الجغرافية، التي ظهرت باللغة العربية[٢٨] وتوفي ابن خرداذية (ت ٣٠٠ هـ) وكان يعمل في البريد في إقليم الجبال + (ت ٢٧٤ هـ) وعنوان كتابه «المسالك والممالك» ثم الخوارزمي محمد بن موسى المتوفى في منتصف القرن الثالث للهجرة، وواضع كتاب «صورة الأرض» وقد ضمنه خريطة مشابهة لخريطة بطليموس عن العالم القديم، ولذلك يعد الخوارزمي أول صانعي الخرائط من المسلمين.

لكن كتابة الجغرافية تطورت في القرن الرابع الهجري وأرست قواعد مدرسة في الجغرافية العربية التي ارتبطت بالتاريخ عن طريق: اليعقوبي (ت ٢٨٢ هـ) الذي ألف كتاب «البلدان» نتيجة رحلات طويلة قام بها إلى أرمينيا وإيران والهند ومصر وبلاد المغرب. وكتب الهمداني «(ت ٣٣٤ هـ) كتابه «صفة جزيرة العرب». واشتهر المسعودي (ت ٣٤٦ هـ) بكتابه «مروج الذهب ومعادن الجوهر» الذي كتبه بعد زيارته الفرس والهند وجزيرة سرنديب (سيلان) وبحار الصين، فضلاً عن سواحل شرق أفريقيا والسودان، وإقليم بحر قزوين، وكذلك الأصطخري، الذي عاش في القرن الرابع الهجري وكتب «الأقاليم»، موضحاً إياه بالخرائط. وكتب أيضاً كتاب «المسالك والممالك» واضعاً فيه مشاهداته في البلاد التي زارها.

ومن كتاب المدرسة الجغرافية العربية أيضاً: ابن حوقل - المقدسي - الإدريسي - البكري - المهلبي - البيروني (ت ٤٤٠ هـ). وهذا الأخير يعود إليه الفضل في إرساء قواعد الجغرافية القائم على المشاهدة والرحلة والتجربة الشخصية كما كان عند العرب الأوائل.

---

(٢٨) استعان بالعديد من الجغرافيين والرحالة وبعض المؤرخين، من الذين توالوا بعد ابن خرداذية، ونقلوا عنه، أمثال: ابن الفقيه، وابن حوقل، والمقدسي، والجيهاني، حتى ياقوت، وابن خلدون، دائرة المعارف - فؤاد إفرام البستاني ٢ / ٤٨٩ / "٤٩، بيروت ١٩٥٨ م.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل التاسع عشر

خامساً: الفنون

مزج العرب بين الفنون التي اطلعوا عليها في البلاد المفتوحة ببلاد الشام وفارس وغيرها وأضافوا إليها ما ابتكروه وصمموه، فكان لهم ما أرادوا فنوناً عربية خالصة. فبرعوا في الزخرفة والرسم والخطوط والنقش والبناء وغيرها.

١ ـ النقوش والزخرفة:

اهتم العرب في العصر العباسي في الزخرفة والنقوش، فاستخدموا النقوش الخطية العربية، وجعلوا من الخط العربي آية من آيات الفن الرفيع، وزخرفوا به حيطان المساجد وأطراف الأواني ـ وخاصة أواني مياه الشرب ـ وقد أهملوا فن النحت والتصوير واعتقاداً منهم بأن النحت والتصوير هما من عمل الأوثان وعباداتهم[١]. ولكن هذا الإعتقاد لم يمنع من تفشي الصور في العهد العباسي حتى اضطر المهتدي بالله (٢٥٥ ـ ٢٥٦ هـ) إلى محوها بسبب زهده وتقشفه[٢]. بينما أمر المتوكل بأن. يجعل على أبواب ودور النصارى صور شياطين مسمورة من خشب[٣].

٢ ـ هندسة البناء وزخارفها:

كان لاتساع الدولة العباسية وتوارد أموال الخراج والجزية والعشور إلى بيت

(١) عباس محمود العقاد. أثر العرب في الحضارة الأوروبية. ١١٩. منشورات دار المعارف بمصر ١٩٤٦ م.

(٢) مروج الذهب. ٥ / ٩٨.

(٣) تاريخ الطبري ٩ / ١٧٢.

المال في بغداد الأثر الكبير في غنى الخلفاء العباسيين وبخاصة بعد استتاب الأمن وازدهار التجارة ونشاط الصناعة في البلاد. وعندما أحس العباسيون بالترف وتمتعوا بثراء واسع جعلهم يفكرون في بناء القصور وتزيينها بالتحف النادرة ومحاكاة الفرس وأباطرتهم. فجاءت القصور العربية في ذلك العصر قطعة فنية بهندستها الرائعة وقبابها الضخمة وزخرفتها الدقيقة، إضافة إلى ما فيها من نقوش وزخارف فائقة الحسن والجمال مصنوعة من الجص وهي تغطي الأجزاء السفلى من الجدران، والتي كشفت الحفائر في أطلال مدينة سامراء عنها، هذا فضلاً عن الصور الحائطية التي عثر عليها في انقاض بعض القصور في تلك المدينة، مما يدل بأن المسلمين في العصر العباسي الإسلامي، قد تخلوا عن كراهيتهم للرسم والتصوير نتيجة لتطور المجتمع. فظهرت فيها صور ورسوم لحيوانات وطيور وصور آدمية لأشخاص في الصيد أو لنساء يرقصن[٤] ثم ظهرت مثل هذه الصور والزخارف على المنسوجات والتحف المعدنية والخزفية والخشبية في ذلك العصر.

٣ ـ فن العمارة:

بلغ فن العمارة مركزاً متقدماً في العصر العباسي، وبرز في عمارة المدن العباسية أمثال: بغداد وسامراء. وقد ذكر الطبري بأن الخليفة المهدي أمر ببناء القصور على طول الطريق بين بغداد ومكة لتكون محطات للإستراحة أثناء تأدية فريضة الحج، وأمر بتحسين جامع البصرة والمسجد الحرام في المدينة... هذه الأعمال أدت إلى ارتقاء فن العمارة في العصر العباسي، إذ شيدت القصور وأقيمت المساجد والجوامع والمنشآت ذات الأعمدة والأقواس، وذات العقود والقباب، وشيدت بطرف وأساليب تنم عن ذوق رفيع خاصة واجهات المساجد وفي المآذن وتيجان الأعمدة فجاء الفن العربي العباسي مفخرة من مفاخر الحضارة العربية الإسلامية على مر العصور والأجيال.

---

(٤) تاريخ التمدن الإسلامي ٣ / ٢٦٨. و ٥ / ١٠٧ و١١٦.

المصادر والمراجع

أولاً: المصادر العربية:

- ابن الأثير، علي بن أحمد بن عبد الواحد الشيباني (٥٥٥ - ٦٣٠ هـ/١١٦٠ - ١٢٣٢ م). **الكامل في التاريخ** ٩ أجزاء، منشورات دار الكتاب العربي الطبعة الثانية، بيروت ١٣٨٧ هـ/١٩٦٧ م.
أسد الغابة في معرفة الصحابة، طبعة مصر ١٢٨٥ هـ.
- ابن أبي أصيبعة موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم (٦٠٠ - ٦٦٨ هـ/١٢٠٣ - ١٢٧٠ م). **عيون الأنباء في أخبار الأطباء**، ٣ أجزاء، منشورات مكتبة الثقافة - بيروت ١٩٨١ م.
- ابن إياس، أبو البركات محمد بن أحمد بن إياس المصري (٨٥٢ - ٩٢٨ هـ/١٤٤٨ - ١٥٢٢ م) كتاب تاريخ مصر المعروف بـ «**بدائع الزهور في وقائع الدهور** ٣ أجزاء، طبعة بولاق ١٣١١ - ١٣١٢ هـ.
- ابن تغري بردي، أبو المحاسن جمال الدين بن يوسف (ت ٨٧٤ هـ/١٤٦٩ م). **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**. ١٧ جزءاً، طبعة دار الكتب المصرية - القاهرة ١٩٢٩ م.
- ابن حزم، أبو محمد (ت ٤٥٦ هـ/١٠٦٤ م) **الفصل في الملل والأهواء والنحل** ٥ أجزاء، الطبعة الأولى القاهرة ١٣١٧ هـ/ ١٨٩٩م.
- ابن حوقل، أبو القاسم محمد البغدادي الموصلي (ت ٣٤٨٠ هـ/٩٩٠). **المسالك والممالك والمغاوز والمهالك** - ليدن - بريل ١٨٧٣ م.

- ابن خـرداذبـة، أبو القاسم عبيدالله بن عبدالله الخراساني (٣٠٠ هـ/٩١٢ م) **كتاب المسالك والممالك**. نشره دي غويه. طبعة ليدن إبريل ١٨٨٩ م.
- ابن الخطيب، لسان الدين السلماني (ت ٧٧٦ هـ/١٣٧٥ م). **أعمال الأعلام**. القسم الثالث الخاص بالمغرب. نشر أحمد العبادي، وإبراهيم الكتاني.
- ابن خلدون، عبـد الـرحمن بن محمـد (ت ٨٠٨ هـ/١٤٠٥ م). **المقـدمـة**. منشورات دار الكتاب العربي. الطبعة الخامسة (لا. تا) بيروت.

كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبـر الخ ٧ أجزاء منشـورات مؤسسـة الأعلمي. بيروت ١٩٧١ م.
- ابن خلكان، شمس الدين أبو العباس أحمد بـن إبراهيم بن أبي بكر الشافعي **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**. ٨ أجزاء تحقيق د. إحسان عباس، منشورات دار صادر، بيروت ١٣٩٨ هـ/١٩٧٨ م.
- ابن سعد، محمد بن سعد بن منيع الزهري (٢٣٠ هـ/٨٤٥ م). **كتاب الطبقات الكبير**. تحقيق Sachau طبعة Leiden ١٩٠٥ ـ ١٩٢٨ م.
- ابن عبد ربه، أحمد بن محمد أبو عمر الأندلسي (ت ٣٢٨ هـ/٩٤٠ م). **العقد الفريد**، ٣ أجزاء، القاهرة ١٢٩٣ هـ
- ابن قتيبـة، أبـو محمـد عبـدالله بن مسلم (٢١٣ ـ ٣٧٦ هـ/٨٢٨ ـ ٨٨٩ م). **الإمـامـة والسيـاسـة**. صححـه محمـد محمـود الـرافعي الـقـاهـرة ١٣٤٢ هـ/١٩٠٤ م.

المعارف تحقيق West⅞ طبعة Gottingen ١٨٥٠ م.

عيون الأخبار. ٤ أجزاء في مجلدين. دار الكتب المصرية. القاهرة ١٩٢٥ م.
- ابن القفطي، جمال الدين علي بن يوسف بن إبراهيم بن عبد الوهاب. **أخبـار العلماء بأخبار الحكماء**. طبعة القاهرة ١٣٢٦ هـ.
- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي (٧٠٢٩ هـ/١٣٣٠ م). **البداية والنهاية** ١٤ جزءاً منشورات مكتبة المعارف بيروت ومكتبة النصر بالـرياض. الطبعة الأولى ١٩٦٦ م.
- ابن مسكويه، أبـو علي أحمد بن محمـد (٤٢١ هـ/١٠٣١ م) كتاب **تجـارب**

الأمم، ثلاثة أجزاء، مطبعة شركة التمدن الصناعية بمصر ١٩١٤ ـ ١٩١٥ ـ ١٩١٦ م.

ـ ابن منجب الصيرفي، علي أبو القاسم بن منجب بن سليمان (٤٦٣ ـ ٥٤٢ هـ/١٠٧١ ـ ١١٤٧ م). **الإشارة إلى من نال الوزارة** (المعهد العلمي الإفرنسي) القاهرة ١٩٢٤ م.

ـ ابن النديم، أبو الفرج محمد بن أبي يعقوب إسحق المعروف بالوراق (ت ٣٩٠ هـ/ ١٠٠٠ م) **الفهرست**، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت ١٩٧٨ م.

ـ ابن هشام أبو محمد عبد الملك بن هشام بن ايوب الحميري البصري (ت ٢١٣ هـ/٨٢٨ م) **السيرة النبوية** أربعة أجزاء دار احياء التراث العربي. بيروت ١٩٨٠ م.

ـ ابن الوردي، عمر بن مظفر بن عمر (٧٤٩ هـ/١٣٤٩ م). **تتمة المختصر في أخبار البشر**، هو تتمة لكتاب البداية والنهاية من سنة ٧٢٩ ـ ٧٤٩ هـ. طبع في مجلدين. القاهرة ١٢٨٥ هـ.

ـ أبو تمام، حبيب بن أوس الطائي (١٨٠ ـ ٢٣١ هـ/٧٩٦ ـ ٨٤٥ م) **الديوان**. جزءان شرح الخطيب التبريزي. تحقيق محمد عبده عزام. دار المعارف بمصر ١٩٦٥ م.

ـ أبو شامة، عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم بن عثمان شهاب الدين (ت ٦٦٥ هـ/١٢٦٨ م). **الروضتين في أخبار الدولتين**. تحقيق محمد حلمي محمد أحمد، جزءان، القاهرة ١٩٥٦ م.

الذيل على الروضتين، نشر عزت العطا، السيني القاهرة ١٩٤٧ م.

ـ أبو شجاع الروذاراوري، محمد بن الحسين (ت ٤٨٨ هـ/ ١٠٩٥ م) **ذيل تجارب الأمم**، يحتوي على حوادث ٢٥ سنة من سنة ٣٦٤ ـ ٣٨٩ هـ. نشر أمدروز القاهرة ١٩١٥ م.

ـ أبو حنيفة الدينوري، أحمد بن داوود **الأخبار الطوال** تحقيق عبد المنعم عامر، الطبعة الأولى القاهرة ١٩٦٠ م.

- أبو فراس الحمداني، الحارث بن سعيد بن حمدان (ت ٣٥٧ هـ/٩٦٨ م). **الديوان**. منشورات دار صادر. بيروت.

- أبو نواس، الحسن بن هانىء (١٤٠ - ١٩٩ هـ/٧٥٧ - ٨١٤ م) **الديوان**، جزءان تعليق إيليا حاوي. منشورات دار الكتاب اللبناني. بيروت.

- أبو يوسف، يعقوب بن إبراهيم الأنصاري الكوفي (١١٣ - ١٧٢ هـ/٧٣١ - ٧٩٨ م) **الخراج**. جزآن ترجمة وتعليق القاهرة ١٣٤٦ م.

- الاصطخري، أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي **مسالك الممالك**، ليدن، بريل، ١٩٢٧ م.

- الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين القرشي الأموي (ت ٣٥٦ هـ/٩٦٧ م). **الأغاني**. ٢٥ جزءاً، منشورات دار الثقافة. الطبعة الرابعة بيروت ١٩٨٣ م.
مقاتل الطالبيين، منشورات المكتبة الحيدرية ومطبعتها في النجف ١٣٥٥ هـ/١٩٦٥ م.

- البغدادي، أبو منصور عبد القادر بن طاهر **الفرق بين الفرق، وبيان الفرقة الناجية منهم**. تحقيق محمد بدر. القاهرة ١٣٢٨ هـ/١٩١٠ م.

- البغدادي، الحافظ أبو بكر أحمد بن علي المشهور بالخطيب البغدادي (ت ٤٦٣ هـ/١٠٧٠ م). تاريخ بغداد. ١٤ جزءاً، منشورات دار الكتاب العربي. بيروت ١٩٧٨ م.

- البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر **فتوح البلدان**، تحقيق De Goge طبعة بريل Brill ١٨٦٦ م.
أنساب الاشراف تحقيق De Geiten طبعة القدس ١٩٣٦ م. خمسة أجزاء.

- الجهشياري، محمد بن عبدوس (ت ٣٣١ هـ/٩٤٢ م). **نصوص ضائعة من «الوزراء والكتاب»** جمع وتعليق ميخائيل عواد، منشورات دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٦٤.

- الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد (ت ٤٢٩ هـ/١٠٣٨ م) **يتيمة الدهر**. ٥ أجزاء، طبعة دمشق. ١٣٠٢ هـ.

- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر **البيان والتبيين** . مجلدان، دار صعب، بيروت ١٩٦٨ م.
- السيوطي. الحافظ جلال الدين عبدالرحمن: **حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة**. جزآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. دار أحياء الكتب العربية، الطبعة الأولى. ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ - ١٩٦٨ م.
- **تاريخ الخلفاء** تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد. منشورات المكتبة التجارية بمصر، الطبعة الرابعة ١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩ م.
- الشهرستاني ، أبو الفتح محمد (ت ٥٤٨ هـ/١١٥٣ م) **الملل والنحل**، **تحقيق** Cureton طبعة London١٨٤٦ م.
- الصابي ، أبو المحسن هلال بن محسن (٤٤٨ هـ/١٠٥٦ م). **الوزراء أو تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء**. تحقيق عبد الستار فراج. منشورات عيسى البابي الحلبي وشركاه ١٩٥٨٠ م.
- **الطقطقي** ، محمد بن علي بن طباطبا المعروف بابن الطقطقي . **الفخري في الأداب السلطانية**. منشورات دار صادر. بيروت ١٣٨٦ هـ/١٩٦٦ م.
- الطبري ، أبو جعفر محمد بن حرير (٢٢٤ - ٣١٠ هـ/٨٣٩ - ٩٢٣ م). **تاريخ الأمم والملوك**. ١١ جزءاً مع الذيل. دار المعارف بمصر ١٩٦٦ - ١٩٦٩ م. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم الطبعة الرابعة.
- الفارقي ، مالك بن سعيد بن مالك أبو الحسن (ت ٤٠٥ هـ/١٠١٤ م). تاريخ الفارقي، دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٧٤ م.
- القلقشندي ، أبو العباس أحمد (ت ٨٢١ هـ/١٤١٨ م) . **صبح الأعشى في صناعة الإنشاء** ١٤ جزءاً، منشورات دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩١٣ - ١٩١٧ م.
- الكندي ، أبو عمر بن يوسف **كتاب الولاة والقضاة** ، نشر مكتبة المثنى ببغداد ودار الكتاب اللبناني.
- الماوردي ، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البحري (ت ٤٥٠ هـ/١٠٥٧ م) الأحكام السلطانية. القاهرة ١٩٠٩ م.

- المسعودي ، أبو الحسن علي بن الحسين (ت ٣٤٦ هـ/٩٥٦ م) . **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، تحقيق يوسف أسعد داغر ٤ أجزاء، دار الأندلس، بيروت ١٣٨٥ هـ/١٩٦٦ م.
- **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، تحقيق وتنقيح شارل بلا. ٧ أجزاء، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت ١٩٦٦ م. **التنبيه والإشراف**. تحقيق De Goge طبعة Leiden ١٦٨٤ م.
- المقدسي ، أبو عبدالله محمد بن أحمد، **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، ليدن، بريل ١٨٧٧ م.
- المقريزي ، تقي الدين أحمد بن علي (ت ٨٤٥ هـ/١٤٤١ م) . **المواعظ والإعتبار في ذكر الخطط والآثار**. مجلدان القاهرة ١٣٢٦ هـ. **اتعاظ الحنفاء بأخبار الفاطميين الخلفاء**. ثلاثة أجزاء، الجزء الأول تحقيق جمال الدين الشيال. القاهرة ١٣٨٧ هـ/١٩٦٧ م. والجزآن الثاني والثالث تحقيق محمد حلمي محمد أحمد، القاهرة ١٣٩٠ - ١٣٩٣ هـ/١٩٧١ - ١٩٧٣ م. **إغاثة الأمة في كشف الغمة**. تحقيق زيادة وشيال، الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٥٧ م. **النزاع والتخاصم فيما بين أمية وبني هاشم**، تحقيق طبعة ليدن، ١٨٩٨ م.
- المقري ، أبو العباس أحمد التلمساني (ت ١٠٤١ هـ/١٦٣٨ م) . **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، تحقيق أحمد فريد الرفاعي، القاهرة ١٩٢٦ م.
- ياقوت الحموي ، شهاب الدين الرومي (٦٢٦ هـ/١٢٢٩ م) . **معجم البلدان**، خمسة أجزاء، منشورات دار صادر، بيروت ١٩٥٧ م. **معجم الأدباء**.
- النوبختي ، أحمد محمد الحسن بن موسى (ت ٣٠٢ هـ/٩١٤ م). **كتاب فرق الشيعة، صححه محمد الصادق، النجف، ١٣٥٥ هـ/١٩٣٦ م.**

ثانياً: المراجع العربية والمعربة:

- أمين ، أحمد **ضحى الإسلام**. ٣ أجزاء . دار الكتاب العربي، (لا. تا) بيروت.
- الأنباري، عبد الرحمن **طبقات الأدباء**، مصر ١٢٩٤ هـ.
- أيوب ، إبراهيم رزق الله . **الحياة الإجتماعية في مصر - القاهرة أيام**

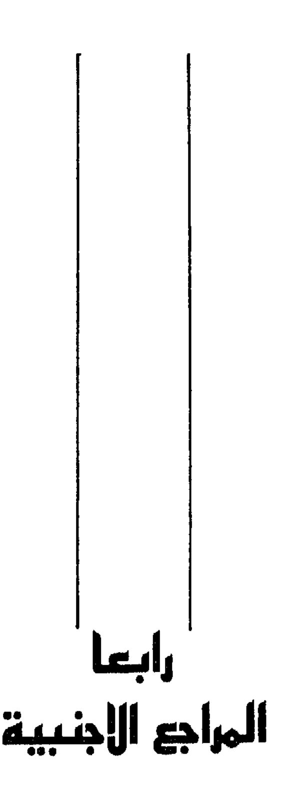
الفاطميين. أطروحة دكتوراه في التاريخ. جامعة القديس يوسف، بيروت مخطوط. أيار ١٩٨٢ م.

- البريد ، مصلحة تاريخ البريد في مصر ، وضع بمناسبة انعقاد مؤتمر البريد العالمي العاشر. القاهرة ١٩٣٤ م.
- بستاني ، فؤاد أفرام **دائرة المعارف** ١٤ مجلداً، بيروت ١٩٥٨ ـ ١٩٨٣ م.
- بلبابيق ، ي، أ **العرب والإسلام والخلافة العربية** ، ترجمة أنيس فريحة راجعه محمود زيدان، منشورات الدار المتحدة بيروت ١٩٧٢ م.
- حتي ، فيليب **تاريخ العرب**. دار غندور، بيروت ١٩٦٧ م.
- حسن ، حسن إبراهيم **تاريخ الإسلام السياسي**، ٤ أجزاء ، الطبعة السابعة، القاهرة ١٩٦٥ م.
- حمزة، عبد اللطيف **ابن المقفع**، القاهرة ١٩٣٦ م.
- الخازن ، وليم **الحضارة العباسية**، منشورات الجامعة اللبنانية ، بيروت ١٩٨٤ م.
- الخضري بك ، الشيخ محمد **الدولة العباسية** ، المكتبة التجارية الكبرى مصر.
- خودا بنخت ، صلاح الدين **حضارة الإسلام** . ترجمة وتعليق علي حسن خربوطلي، منشورات دار الثقافة، بيروت ١٩٧١ م.
- ريسلر ، جاك. س **الحضارة العربية**. ترجمة غنيم عبدون ، مراجعة أحمد فؤاد الأهواني منشورات الدار المصرية للتأليف والترجمة.
- الزركلي ، خير الدين **الإعلام** قاموس تراجم ٩ أجزاء ، الطبعة الثالثة، بيروت ١٣٨٩ هـ/٨٩٦٩ م.
- زيدان ، جرجي **تاريخ التمدن الإسلامي** ، خمسة أجزاء في مجلدين، دار مكتبة الحياة، بيروت ١٩٦٧ م.
- شلبي ، أحمد **المجتمع الإسلامي**، منشورات مكتبة النهضة المصرية ، الطبعة الثالثة ١٩٦٧ م.

- شيخاني ، سمير **أعلام الحضارة** ، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، ٣ أجزاء. ١٩٨١ م، بيروت.
- الصالح ، الشيخ صبحي **النظم الإسلامية** ، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الخامسة ١٩٨٠ م.
- العقاد ، عباس محمود **أثر العرب في الحضارة الأوروبية** ، دار المعارف بمصر ١٩٤٦ م.
- علبي، أحمد **ثورة الزنج**، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت ١٩٦١ م.
- كحالة عمر رضا **معجم المؤلفين** ، ١٢ جزءاً ، منشورات مكتبة المثنى ببيروت ودار أحياء التراث العربي، بيروت.
- لوبون ، غوستاف **حضارة العرب** ، نقله إلى العربية محمد عادل زعيتر، دار إحياء الكتب العربية ـ عيسى البابي الحلبي وشركاه، الطبعة الثانية ١٩٤٨ م.
- ماجد ، عبد المنعم **التاريخ السياسي للدولة العربية**.، جزآن، منشورات مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الثانية، ١٩٦٠ م.
- متز ، آدم **الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري** ، نقله إلى العربية محمد عبد الهادي أبو ريد، مجلدان، دار الكتاب العربي / بيروت، الطبعة الرابعة، ١٩٦٧ م.
- هونكه ، زغريد **شمس العرب تسطع على الغرب** . نقله إلى العربية فاروق بيضون وكمال دسوقي، المكتب التجاري للطباعة والتوزيع، بيروت، الطبعة الثانية ١٩٦٩ م.

ثالثاً كتب دينية ومعاجم ومجلات:

- القرآن الكريم.
- لسان العرب.
- عالم المعرفة . سلسلة كتب شهرية تنشرها وزارة التربية في الكويت . والكتاب المرجع كان بعنوان: **حكايات الشطار والعيارين في التراث العربي**. من وضع د. محمد رجب العطار. أيلول ١٩٨١ رقم ٤٥ .



رابعا
المراجع الأجنبية

— Abdelnour, Antoine: **Introduction à l'histoire urbaine de la Syrie ottamane** (XVIe - XVIIIs), publie de l'Université libanaise. Beyrouth, 1982.

— Dichi, Charles: **Histoire de l'Empire Byzantin.**

— **Encyclopédie de l'Islam:** (art Mawalà), (art Bukair Mâhân), (art abu-salama el Khaliâl) 1 (E.I.Z), Paris, Lyden, 1965 ' 1973.

— Lombard, Maurice: **L'Islam dans sa première grandeur** (XIe - XIIIes), Flamamarion, Paris, 1971.

— Miquel, André: **l'Islam et sa civilisation** (VIIe ' XXes), armand Colin, 2e Ed., Paris, 1977.

— Pirenne, Jacques: **Les Grands Courants de l'histoire universelle,** T.2, Ed. de la Baconniére, neuchatel, Suisse, 1959.

— Poliak, N.A.: **Le Dialecte des Mamelouks,** R.E.I, Cahier III, 1935.

— Sourdel, Dominique: **l'Islam médiaval,** P.U.F., Paris, 1979.



أسماء الأعلام

- أ -

ـ ب ـ

- ح -

- خ -

- د -

ـ ش ـ

- ن -

اسماء الأماكن والبلدان

ـ أ ـ

ـ ب ـ

ـ ت ـ

ـ ح ـ

- خ -

- د -

- ر -

ـ ز ـ

ـ س ـ

- ش -

- ص -

- ط -

- ع -

ـ ك ـ

ـ ل ـ

ـ م ـ

فهرس الموضوعات





التاريخ العباسي